أريه (لوبا) إلياف

أرض الجمال

تقييم موقف إسرائيل والإمكانات المفتوحة أمامها

إعداد
مركز البحوث والمعلومات

١٩٧ / ٢٩٦
٩٧/٦/١٣

اريه (لوبا) الياف

أرض الجمـــال

تقييم موقف اسرائيل والامكانات المفتوحة أمامها

١٥
٤
٦٠

إعـــداد
مـركز البـحوث والمعـلومات

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرست

" ارض الجمـــال "

بسم الله الرحمن الرحيم

العرض العام

مؤلف الكتاب من العاملين فى الحركة الصهيونية ، وقد اشتغل بأعمال توطين اليهود فى البلاد ، ومساعدتهم على الهجرة اليها ، كما اشتغل بالسياسة ، وكان سكرتير حزب العمل ، وهو لا زال نائبا فى الكنست ، وآراؤه لها وزنها ، وأفقه واسع فى التفكير ينظر للأمور من جميع زواياها . تناول فى كتابه عرض الفكرة الصهيونية والمشروع الصهيونى والوطن اليهودى ، والمسألة الفلسطينية ، وحاول فى عرضه أن يكون شاملا وموضوعيا فى تفكيره ، وقد وفق أحيانا وخانه التوفيق أحيانا أخرى . وتعرض لوضع اسرائيل فى المنطقة واند ماجها فيها ودورها المحتمل ، وحاول أن يضع أهدافا محددة لمستقبل اسرائيل ، وأن يضع خطة محددة لتنفيذ هذه الأهداف ، مع مراعاة العدالة مع عرب فلسطين وتفهم مشكلاتهم وعلاجها ، ومراعاة ظروف العالم العربى والتعايش معه . وقد قسم كتابه الى ستة أقسام ، رأينا أن نكتفى بنشر الثلاثة الأولى منها فى الجزء الأول من الكتاب ، على أن ننشر الثلاثة الأخرى فى جزء ثان .

ويتناول المؤلف فى القسم الأول الانسان وحياته فى ظل عوامل الطبيعة الضارية والأخطار والفناء من مختلف الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية ، معرضا لاختلال فى الميزان البيئى (تلوث البيئة) والميزان الديموجرافى والانفجار السكانى ، تتربص به وسائل . ويتحدث فى هذا الفصل عن تطور المجتمع ، وكيف بدأ المجتمع بالرابطة الأسرية ثم الرابطة القبلية ، وقيام الدولة ، ثم نظم الحكم فى المجتمع من رأسمالية وشيوعية وديموقراطية ، ويخرج من هذا بأن خير النظم هو نظام الاشتراكية الانسانية .

ويرى المؤلف أن على الانسانية أن تكف عن استخدام أسلحة الدمار بعضها ضد بعض ، وأن نجاتها فى ايجاد التكتلات واتحادات الدول ، وأن أملها فى النجاة هو فى

ادراكها أخطار البيئة وقوى الدمار التى تتربص بها ، وأن تعمل على مكافحتها قبل أن تنطلق عليها وتحيلها ركاما ٠

وفى القسم الثانى من الكتاب يتناول المؤلف الكفاح من أجل أرض فلسطين وحق اليهود فيها وحق عرب فلسطين ، ويبدأ بالكلام عن تاريخ شعب اسرائيل فى الزمن القديم فى فلسطين ، ثم شتاته فى أرجاء العالم وما استفاده اليهود من الأمم الأخرى وما قاسوه منها ، وبداية عمل يهود الشتات على العودة لأرض الآباء ، ونشوء الفكرة الصهيونية وقيام المشروع الصهيونى ، وبداية الحركة الصهيونية بجماعة بيلو ، وعشاق صهيون فى أواخر القرن الماضى ، واستمرار الحركة الصهيونية فى أوائل القرن الحالى وظهور هرتزل ٠

ثم وصول الهجرة اليهودية الأولى ثم الهجرة الثانية من روسيا تحمل معها الأفكار الاشتراكية ، وانشاء المستعمرات الاشتراكية فى فلسطين واصطدام الصهيونية بحركة القومية العربية ، ويتكلم عن حق اليهود فى هذه الأرض لأنها كانت أرض الأسباط الاثنى عشر فيما مضى ٠ ثم يتحدث عن قيام الحرب العالمية الأولى فيها ، ودور اليهود لجانب بريطانيا ، وحصولهم على وعد بلفور ، ثم قيام الحكم البريطانى فى فلسطين من ١٩١٨ ـ ١٩٤٨ ٠ وعمل اليهود على قيام الدولة اليهودية ، وقيام الصراع بين العرب والصهيونية الذى تبلور فى أحداث ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ وتزايد عداء العرب للصهيونية ٠

ثم يتناول اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وعمل الصهيونية على استيعاب الناجين من النازية فى فلسطين ، ومشروعات تقسيم البلاد بين العرب واليهود ٠ ثم يبين الكاتب ازدهار حركة القومية العربية فى اقليم الشام وصراعها ضد الاستعمار البريطانى والفرنسى ٠ ثم ينتقل الى حرب سنة ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل ، ثم يتحدث عن اللاجئين من اليهود والعرب ، واتخاذ حكام العرب من اللاجئين الفلسطينيين سلاحا

سياسيا يشهرونه فى وجه اسرائيل ٠ ثم يتحدث عن ثورة يوليو وقيام عبد الناصر ، ونشوب حرب سيناء ، ثم انسحاب اسرائيل ٠ وينتقل الى الكلام عن المدة من حرب سيناء حتى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ والتسلل السوفيتى للمنطقة ٠

ثم ينحى باللائمة على حكام اسرائيل الذين لم يدركوا حقيقة مشاعر العرب وانغماس الدولة فى حياة الترف والكماليات ، وتخفيف حدة استعداد اسرائيل العسكرى حتى منتصف سنة ١٩٦٧ ٠ ويحلل الموقف العسكرى وحالة التسلح واستيعاب الأسلحة لدى العرب واسرائيل ٠

ثم يتحدث عن حرب يونيو سنة ١٩٦٧ وعجز مصر عن هذه المهمة الضخمة واندفاع اسرائيل فى جنون لتمزيق حبل المشنقة الذى كاد ينطبق على عنقها ٠ ثم ينتقل الى حرب الاستنزاف كسلاح بتار ضد اسرائيل ثم يأتى دور منظمات المقاومة الفلسطينية وتكلم عن وضع عرب فلسطين فى الأراضى المحتلة ٠ ثم يتكلم عن الأصل المشترك بين العرب واليهود ، ثم حركة القومية العربية ، ونظرة العرب لليهود ، واعتبارهم أن اليهود كالصليبيين وأن مصيرهم سيكون نفس المصير وسوف يلقون بهم الى البحر ٠ ويذكر أن عقدة الصليبيين لدى العرب هو سبب البلاء ٠

ثم يتناول الكاتب القسم الثالث من كتابه وربما كان من أهم أقسام الكتاب ، ففيه يتناول خمسة موضوعات هامة هى :ـ

١ ـ علاقة اليهود بعرب فلسطين ٠
٢ ـ علاقة اسرائيل بمصر كبرى البلاد العربية ٠
٣ ـ علاقة اسرائيل بسوريا ٠
٤ ـ علاقة اسرائيل بلبنان ٠
٥ ـ علاقة اسرائيل بالعالم العربى عامة ٠

فبالنسبة لعرب فلسطين يرى أنه يمكن التعايش بين اليهود وعرب فلسطين عند ما تزول الريب والشكوك ، ويسود الاطمئنان بين الجانبين ، وأن على اسرائيل أن تسعى لازالة شكوك العرب وطمأنتهم على حياة آمنة مع اخوانهم اليهود مع المساواة فى الحقوق ويرى أن على الاسرائيليين أن يسعوا للاتفاق مع الفلسطينيين فهم أصحاب الشأن ، وأن على اسرائيل أن تعلن عن موافقتها على قيام شعبين ودولتين يهودية وعربية (فى قطاع غزة والضفة الغربية) .

ثم يتحدث عن الأمن بين الدولتين العربية واليهودية ، ويتعرض هنا لزيادة النسل لدى العرب عنها لدى اليهود بحيث أن العرب بمرور الزمن سوف يفوقون اليهود عددا . ويرى الكاتب أنه يجب أن تشمل الدولة العربية الجديدة الأردن أيضا . لأن اسرائيل لن تسمح بقيام دولتين عربيتين لجوارها ، ويرى المؤلف أن تسعى اسرائيل بتصريح على يطمئن عرب فلسطين على مستقبلهم من ناحية نوايا اسرائيل ، كما يرى أنه تجب معالجة المسألة أيضا فى داخل اسرائيل وتهيئة الأذهان فى اسرائيل للتعايش مع العرب الذين درجت أجهزة الاعلام على تصويرهم بأبشع الصور . كما يجب على اسرائيل أن تسعى لمعالجة مشكلات اللاجئين العرب بمشروع شامل يكون فيه النفع للجميع والافادة من الأيدى العاملة .

ثم يتعرض الكاتب لمسألة القدس ، وهو يرى أنها عاصمة اليهود على أن يترك حرية العبادة لجميع الأديان . ويذكر مكانة هذه المدينة بالنسبة للمسيحية وضرورة تكوين هيئة مسيحية تتحدث باسمهم فيما يختص بأماكن عبادتهم . ثم يعود للكلام عن القدس والعرب ، ومكانة القدس فى الاسلام ، ويرى أن يقوم بادارة المساجد وأماكن العبادة الاسلامية هيئة اسلامية . ويفرد عنوانا لمستقبل القدس ، ويرى فيه استحالة العودة للتقسيم ، وأنها يجب أن تظل يهودية وموحدة فهى مدينة داود وسليمان . ويختم كلامه عن عرب فلسطين بوجوب التعاون بينهم وبين اليهود لصالح الشعبين ، والمنطقة

بأكملها ، وتطويرها . ثم ينتقل المؤلف الى الكلام عن علاقة اسرائيل بمصر كبرى البلاد العربية وتاريخهما المشترك قديما وحديثا ، وهو يرى أن مصر لم تكن متطرفة فى عدائها مع اسرائيل .

ثم يتحدث عن حرب فلسطين وقيام ثورة يوليو ، وزعامة عبد الناصر . ويفرد بابا لقطاع غزه ، وشبه جزيرة سيناء ، وهو يرى أن مصر ليس لها حق فى غزه ، كما أن سيناء كانت طول عمرها ممرا لجيوش الغزاة الهابطة من الشمال أو الصاعدة من الجنوب الى آسيا ، ولم تكن تشكل جزءا من مصر . وذكر أن اسرائيل لا يمكن أن تعيد هذه القاعدة العسكرية الرهيبة بمعداتها لمصر لكى تستخدمها ضدها ، بل يجب نزع سلاحها ، والا كانت نقطة وثوب لتل أبيب والقدس . ويتحدث عن التعاون بين مصر واسرائيل وامكان قيام علاقات طبيعية بين البلدين وتزاور الشعبين .

ثم ينتقل للكلام عن العلاقة بين اسرائيل وسوريا ، ويذكر أن سوريا أكثر البلاد العربية تطرفا فى عدائها لاسرائيل وأنها تتخذ من عدائها لاسرائيل سلاحا لتغطية خلافاتها الداخلية وعدم استقرار نظام الحكم فيها . ويذكر أن الجيش السورى على طول تاريخه لم يشتبك اشتباكا جريئا مع الجيش الاسرائيلى ، فكان دوره فى حرب سنة ١٩٤٨ دورا هزيلا ، وفى حرب سنة ١٩٥٦ لم ينجد الجيش المصرى فى شىء ، ولم يحاول حتى تخفيف ضغط الجيش الاسرائيلى عنه . وفى حرب سنة ١٩٦٧ اكتفى بالاعتصام فى أوكار النسر فى مرتفعات الجولان مطمئنا الى أن الجيش الاسرائيلى لن يستطيع الصعود اليه ولكن خاب فأله ، وهزم شر هزيمة وهو يرى عدم ترك الجولان لسوريا كسلاح تصوب منه مدافعها لصدر اسرائيل ، والى مستعمرات الوادى .

ثم يتحدث المؤلف عن علاقة اسرائيل بلبنان ، ويذكر أن لبنان كانت طول عمرها متزنة ، ولم تشترك فى المنازعات بين اسرائيل والعرب الا بقدر ضئيل ، ولكن مؤخرا

أقحمتها المنظمات الفلسطينية فى هذه المنازعات حيث اتخذت منها مركزا لاعتداءاتها على اسرائيل مما جلب لاسرائيل المتاعب وجر عليها الأضرار ، لاضطرار الجيش الاسرائيلى للقيام بأعمال انتقامية ضد لبنان وألحق بها الخسائر فى المنشئات والأرواح • ولكن اسرائيل تستطيع أن تسوى علاقاتها بلبنان ، والتفاهم معها والتعاون معها وتبادل المنافع •

ويختتم المؤلف القسم الثالث بعنوان نحن والعالم العربى يتحدث فيه عن علاقة اسرائيل بالدول العربية ، ويذكر أن الدول العربيةد انيها وقاصيها يتخذ من عداء اسرائيل رابطة تجمع شملها ، ولكن هذه الرابطة هزيلة بالنسبة للدول العربية غير المتاخمة لاسرائيل فان هذه الدول لديها مشكلاتها الخاصة التى تلهيها عن اسرائيل وتحتاج من هذه الدول الى حلها ، كما أنها محتاجة للتفرغ لرعاية شئونها الخاصة فالعراق مثلا لديه مشكلة الأكراد ، ومشكلة أهل السنة والشيعة والمغرب لديها مشكلات البربر ومشكلة توحيد السكان ، والجزائر لديها مشكلاتها هى الأخرى ، والسودان لديها مشكلة قبائل الجنوب والأزمات الاقتصادية ، أما مظهر العداء لاسرائيل فانه ليس الا تعاطفا مع دول المواجهة • وهو قد وضع الحلول لتسوية الأمور مع دول المواجهة كلا على حدة والسعى للاندماج فى المنطقة والتعاون مع دولها •

اهــــداء

الى أبنائـــى

زفـــى وعفـــرا وأيـــل

تفسير :

ترجمة أرض الظبى بأرض الجمال •

يسوق المؤلف فقرة من التلمود من باب الطلاق ٤٧ ـ ٦١ يدلل فيها على أن أرض اسرائيل هى أرض الجمال كما ورد على لسان ربى حنينا : " ان أرض اسرائيل " هى أرض الجمال أرض الظبى الذى لا يكاد جلده يمسك لحمه وكذلك اسرائيل عند ما تقيمون فيها تزدهر ، واذا لم تقيموا فيها أجدبت • " ولم ترد كلمة الجمال فى الفقرة التى ساقها المؤلف ولكنها موجودة فى نص التلمود •

والظبى هو رمز للجمال وخفة الحركة وهو أول قائمة الحيوانات المحلل أكلها عند اليهود وهى الحيوانات المجترة ذات الظلف المشقوق وتبدأ بالظبى والأيل والرئم (سفر التثنية اصحاح ١٤ آية ٧) وبلغ من شغف المؤلف بهذا الحيوان (بدافع الدين والاحساس الجمالى) أن سمى ابنين له (ظبيا وأيلا) ـ والابنة سماها عفرا وهى مؤنث كلمة عوفر أى رئم •

المترجم

تقديم (الغلاف)

كيف نجد طريقنا وسط أدغال حالة اللاسلم واللاحرب ، والفوارق الطائفية والطبقية والدينية والتضخم فى القيم ؟

هل نحن فى طريق الاقتراب من الصلح الكبير أو البعد عنه ؟ ماذا ستكون عليه صورة مجتمعنا واقتصادنا وبيئتنا ؟

عضو الكنست أريه لوبا الياف رجل عملى تتحدث عنه أعماله وهو يقوم فى هذا الكتاب بتحليل هذه المسائل وغيرها ويدرس الامكانات التى أمامنا واحدة واحدة ويعرض أهدافا محددة وخطة عمل لتحقيقها .

كان أريه لوبا الياف قائد سفن نقل المهاجرين غير الشرعيين وقام بتوطين منطقة لاخيش ، وأقام عرد .

وهو قائد عملية انقاذ يهود بورسعيد فى حملة سيناء سنة ١٩٥٦ ومبعوث ليهود الاتحاد السوفيتى . وكان مسئول الحكومة فى تصنيع مناطق التنمية ، واستيعاب المهاجرين ، والمعونة الاسرائيلية لايران .

عمل سكرتيرا عاما لحزب العمل .

كتبه : " بين المطرقة والمنجل " و " السفينة ألواه " و " الطفرة " و " أهداف جديدة لاسرائيل " .

مقدمــــة

ان هذا الكتاب هو محاولة لتسجيل رأيى الذى تبلور على مر السنين ويتنـــاول الكتاب أهداف اسرائيل للمستقبل على أساس الماضى والواقع الحاضر كما تبدو لى ، ويوضع علامات طريق لبلوغها ، وليست الفصول الأولى التى افتتحت بها الكتاب سجلا تاريخيـا فلست أدعى لنفسى هذا ، فانها ليست الا نظرة للماضى من وجهة النظر الشخصيـــة . وقبل مناقشة مشكلات اسرائيل وأهدافها قدمت فصلا عن المشكلات العالمية والانسانيـة ان مشكلة بلادنا هى المشكلة الوحيدة بالنسبة لنا ، وهى كل شىء فى نظرنا ، ولكـــن القدس ليست مركز العالم ، فاسرائيل ليست الا ركنا ، وان كان هاما حقا فى ميـــدان الانسانية ، ومصيره يرتبط بالمجال كله ، وبودى أن أبدأ بعرض سريع للميدان كله ومراكـز القوى التى تعمل فيه والرياح التى تهب فيه ، والزلازل التى تجتاحه ، والفيضانات الـتى تهدد باغراقـــه .

وفى السنوات الأخيرة تغلبت البرجماسية على الايديولوجية وأصبحنا نفضـــل أن نحيا الساعة التى نحن فيها عن التفكير فى الحياة الدائمة ، بل ان البرجماسية نفسهـا أصبحت ايديولوجية . والأسباب واضحة فان الناس فى حيرة ، ويبدون أحيانـا وقـد استولى عليهم الجنون ، ويبدو النضال الذى لا ينقطع بيننا وبين العرب كأنه لا نهائـى ولا مخرج منه ، وتبدو المشكلات الداخلية وكأنها لا حل لها .

فما أسهل أن نهرب الى أحضان البرجماسية المنقذة ، التى تتلخص فى أن نحيا لكى نسد رمقنا أى من اليد الى الفم فنأكل ونشرب لأننا لا نعلم ما سيأتى به الغـــد فاذا حل الغد نهتم بالغد ، ونعبر الجسر اذا ما وصلنا اليه . ان هذه البرجماسيـة تؤدى باسرائيل الى المادية المتطرفة التى تسيطر على كل حياتنا . وما معنى حياتنـا اذا كانت كلها حيرة ، ودون أهداف ودون حلول ، اذا لم نحاول أن نمتص منها كـــل قطرة من المتعة ، وما معنى أن نكافح من أجل حياة أجمل وأفضل للأجيال القادمة ، اذا كان الجمال والخير غير محددين ، وليس هناك ايمان فى امكان تحقيقهما . كمـــا أن الاعتقاد بالمعجزات السائد بيننا ليس الا هربا من الأيديولوجية والأهداف والمسافـة بينه وبين الرأى القائل بأن كل شىء باطل هو فرق طفيف ، وهنا نلتقى فى حياتنـــا بالمادية والقدريـة .

أعظم ما فى الصهيونية محاربتها للقدرية اليهودية التى تؤمن بالمسيحية والمعجزات ، ومحاربتها مادية يهود المهجر ، وقد وضع مؤسسو الصهيونية لأنفسهم أهدافا طويلة المدى على ضوء تقدير أوضاع الشعب اليهودى فى عصرهم ، وقد أدركوا أن هذه الأهداف تتحقق بتنازلات من أجل المستقبل ، والاكتفاء بالقليل والتضحية بالذات .

حققت الصهيونية هدفا واحدا فحسب ، وهو اقامة دولة اسرائيل ، ولكن اقامة الدولة لم تكن الا وسيلة لتحقيق أهداف أكبر وضعتها نصب أعينها حركة تحرير واحياء الشعب اليهودى ، وهى حشد معظم الشعب اليهودى فى أرض اسرائيل وتكوين مجتمع يهودى جديد يقوم على أساس أن يجمع الانسان بين العدل والمساواة والحرية . لم يتحقق هذان الهدفان بعد : فبعد جهود عظيمة لم نستطع الا أن نحشد فى اسرائيل خمس الشعب اليهودى ، ولا زال مجتمعنا مجتمعا غير عادل .

وقد وضعت الصهيونية لنفسها أثناء عملية تحقيق ذاتها ونزاعها الدمى الذى فرض عليها وصدامها مع حركة القومية العربية – هدفا ثالثا هو السلام مع العرب ، ولكنه أيضا لا زال بعيدا . ان من ييأس من النضال من أجل هذه الأهداف بسبب الواقع الذى نعيش فيه ، ومن لا يحاول شق الطرق وايجاد الوسائل لتحقيقها فى المستقبل القريب يسوق اسرائيل الى جمود فكرى وسياسى واجتماعى ، ويجعلها دولة قصيرة النظر تتحسس فى الظلام . ان من يتنازل عن أحد هذه الأهداف أو يفضله عن الآخر يشوه شخصية الصهيونية ، ومن يركز على حشد الشعب اليهودى فى اسرائيل ، لا يبين كيف يمكن أن يقوم مجتمع يهودى عادل ، ومن لا يتعجل ساعة السلام مع العرب ، ويحاول ارجاءها للمستقبل البعيد ، يزور ، عن عمد أو غير عمد ، النظرية الصهيونية . ان تحديد الطرق المؤدية لتحقيق هذه الأهداف المتشابكة ، رغم أنها تبدو فى الواقع الذى نعيش فيه متعارضة – الواحد منها مع الآخر – هو بأنفسنا ، وفى تحديد الأولويات لتحقيق هذه الأهداف يجب أن نقدم السلام مع العرب قبل كل شىء فتحقيقه لا يتعارض مع الأهداف الأخرى ، ويمكن تحقيقه بربطه بها ، ويجب ألا نفصل بينها .

حقا ان السلام مع العرب هو هدفنا الأول ، ولكن يجب أن يكون رائدنا فى كل ما يتصل بحياتنا ومستقبلنا هو المحافظة على كياننا والحرص على أمننا القوى وأن يكون هذا أيضا نبراسنا فى تحديد الطرق لتحقيق ذلك . لو كنا جزيرة معزولة فى بحر هادىء لكانت مناقشة مستقبلنا وأهدافنا أسهل ، ولكن الواقع شىء آخر واذا تهاونا فى

المحافظة على كياننا ، ولم نحرص تماما على أنفسنا ، سوف تحرقنا نيران كراهية العرب المتأججة من حولنا . ان قوتنا هى التى أتاحت لنا ، فى ظروف حياتنا منذ عودتنا لهذه البلاد ، أن نحلم بالسلام مع العرب وأن نعمل من أجله ، وهذه القوة وحدها هى التى تردع العرب عن أن ينفذوا فينا مشيئتهم ، لقد كانت رغبة المتطرفين من زعمائهم دائما ، وهم لا يخفونها حتى فى أيامنا هذه ، هى أن يمحونا من فوق ظهر الأرض ، وقوتنا الرادعة ليست مجرد قوة مادية ، بل انها تنهل من الايمان بعدالة مشروعنا وطريقنا ، وتستند الى قاعدة اقتصادية واجتماعية والى انجازاتنا العلمية والتكنولوجية أما أساس هذه القوة فهو جيش الدفاع الاسرائيلى ، وأى ثغرة فى هذا الجدار الحصين الذى تكسرت عليه فى الماضى موجات الكراهية العربية ، ستبدو للعرب نقطة ضعف واغراء للعودة لمحاولة اختراقه .

اننا اذا تنكرنا للأهداف السابقة للصهيونية أو قلت الهجرة أو ضعفت الصلات باليهودية العالمية أو انهار اقتصادنا أو حدثت تصدعات اجتماعية عنيفة بيننا أو حدثت بيننا خلافات طائفية أو دينية أو طبقية اذ حل بنا أحد هذه العوامل أو بعضها فسوف يجرب العرب قوتهم معنا فى حرب انتقامية . ان اسرائيل القوية من الناحية الاجتماعية والعسكرية ، وقد التف حولها الشعب اليهودى هما اللذان يستطيعان أن يشقا طرقا الى السلام ، طرقا غير مألوفة لا تدخل فى حسبانها ، وضع العرب عامة وعرب فلسطين خاصة ، طرقا تشكل حلا وسطا مع العرب ، ولكن ليس على حساب كياننا .

لقد وقعنا نحن والعرب فى شرك من المخاوف والرعب والعقد النفسية ، ان العرب الذين لم يسلموا بوجودنا يعيشون فى ظل الخوف من توسع اسرائيل توسعا غير محدود من ناحية ، وفى ظل العقدة الصليبية المنبثقة عن تفوقهم العددى (مائة مليون عربى مقابل ثلاثة ملايين) من ناحية أخرى ، فى حين نعيش نحن فى عقدة الرعب من النكبة والخوف من الابادة والفزع من خراب الدولة اليهودية الثالثة ، وفى مركب النقص من ناحية حجم اسرائيل وعدد سكانها ، مقابل عدد العرب الضخم وأراضيهم الشاسعة ، اننا نعيش – بعد ألفى سنة من المنفى – فى عقدة " ان كل العالم ضدنا " ، اننا نرتاب فى العرب والكراهية والثأر المتقدين فى قلوبهم ، ونخشى الروس الذين يضرمون نيران اللاسامية فى بلادهم ، ويمدون العرب بالأسلحة الموجهة ضد اسرائيل .

فى الأمس القريب قتل النازيون الألمان الشعب اليهودى ، فقد رأى النازيون فى أفران أوسفتش الحل النهائى لمشكلة اليهودى ، وقد وقف العالم المسيحى يتفرج ، ولم

يحرك ساكنا لانقاذنا . ان دماءنا تقع على رؤوسهم . وفى الأمس القريب حاربنا الجنود البريطانيين حربا دموية من أجل حق فلول اليهود فى الوصول الى ساحل الأمان فى فلسطين ، وفى الأمس القريب زعم مئات الملايين من الكاثوليك أننا صلبنا مسيحهم ودمغونا بوصمة عار ، فهل يمكن أن ننسى كل هذا ؟

ان العالم الذى نعيش فيه — عالم بيافرا وفيتنام وبنجلاديش وأيرلندا — عالم قد أطبقت شعوبه" الواحد منها بخناق الآخر" وأصابع الدول العظمى على زناد الأسلحة النووية ، عالم الأمم المتحدة الذى تجتاحه المنازعات والعجز — أى درس نتعلمه منه اللهم الا اذا كنا نريد الحياة فانه يجب علينا أن نعتمد على قوتنا .

عقدة مقابل عقدة ، ورعب مقابل رعب ، هذا هو نظام علاقاتنا بالعالم العربى . اننا لا نستطيع كما أن العرب لا يستطيعون التغلب دفعة واحدة على الرعب ، والتخلص من عقدنا ومخاوفنا المتبادلة ، كما أنه لا أمل أن يضع الجانبان سلاحيهما فى المستقبل القريب .

فى هذا الوضع يتحتم علينا كما يتحتم على العرب اذا أردنا نحن وهم الحياة وألا يستنزف الواحد منا دماء الآخر حتى آخر قطرة ، أن نبدأ فى حذر شديد ، وخطوة بعد خطوة فى نزع مفجرات العقد والريب والرعب ، كما يفعل جساسو الألغام فى حقل الألغام ، وأن نضع فى الألغام مسامير الأمن وأن نبطل بعد ذلك مفعول المواد الناسفة نفسها ، لكى يمكن تطهير الحقل وأن نبذر فيه بذور السلام .

لقد كنت فى الحرب جساس ألغام وخبير تفريغ للألغام والقنابل ، وأعتقد أننى فى هذا الكتاب سوف أقوم بعمل جساس الألغام فى حقول خياتنا .

ان أنبياءنا عندما أرادوا وصف أرض اسرائيل بالجمال والروعة اختاروا لأنفسهم الظبى كرمز لأرض الجمال والمجد ، وأخذ هذا الوصف فى المدراشيم والأساطير والتصوف معنى رائعا خارقا للطبيعة تجسدت فيه خصال هذا الحيوان الخفيف الأصيل فى مزايا الأرض الطيبة الفريدة .

هل نستطيع فى السبعينات بعد مرور قرن على حركة العودة لصهيون وربع قرن على قيام الدولة — أن نتطلع وأن نأمل وأن نعمل على أن تصبح بلادنا أرض الجمال ؟

اننا نسير فى درب ضيق متعرج فى أعلى الجبل وعلى جانبينا هوى سحيقة . فهل تؤدى بنا طريقنا الى أرض الحياة ، وهل تكون بلادنا أرض الجمال لكل الهلاد ؟

ان هذا الكتاب يتناول هذه المسائل .

أريه لوبا الياف

جامعة تل أبيب
مايو سنة ١٩٧١ — مايو سنة ١٩٧٢

القسم الأول

العالم الذي نعيش فيه

في ظل الأخطار

*

على ضوء الاحتمالات

في ظل الأخطار

الانسان وتبرير وجوده

بعد أن أشبع الانسان احتياجاته الأولى - كانسان - من جوع وعطش وجنس، كان من الطبيعي أن يتساءل من أين أتى ، وأين يقف والى أين هو سائر ؟ وتملكته رغبة قوية في أن يعرف ذلك ، وترجع هذه الرغبة جزئيا الى غريزة المعرفة لدى كل مخلوق يفكر ، وجزء منها يرجع الى الرغبة في الوقوف على معنى وجوده وحياته القصيرين ، والاجابة عن هذه الأسئلة معروفة للانسان ، فالانسان يعلم من أين أتى - من رحم أمه ، وأن حياته على الأرض حوالي سبعين سنة ، وأنه سائر الى الموت .

ان معرفة الفرد بأن الانسان يشبه النسمة ، وأيامه كالظل العابر قد تلقى في نفسه رعبا دائما ، لو كان يعيش منفردا كذئب الليل ، وتغرس في قلبه احساسا بالفناء وتسلبه الرغبة في الحياة ، ولكن الانسان مخلوق اجتماعي ، وهو يعيش ويعمل بين مخلوقات انسانية أخرى . والى جانب عشيرته وأسرته وأبويه وزوجته وأبنائه وأحفاده ، أشخاص دماؤهم تسري في دمائه ونسله فيهم ، ويشعر في حياته المشتركة معهم باستمرار وجوده ، واستمرارهم هؤلاء الأقرباء جزء منهم ولد قبله ، ومن الطبيعي أن يموتوا قبله وجزء منهم وهم نسله سيعيشون من بعده ويرثونه . ان طبيعة التوريث ، وليس مجرد الولادة هي التي تثير في الانسان أقوى الدوافع لأعماله ، وبها يجد معنى لوجوده .

ان تبرير الوجود هو الهدف الذي يعمل الانسان من أجله في المجتمع ، فهو يتعلم لكي يتقدم ، وهو يعمل لكي يعول أسرته ، وهو يناضل عن وجوده لا لمجرد أن يستعذب أن يكون أكثر شبعا ، وأكثر صحة ، وأكثر سعادة بل كمخلوق اجتماعي يرغب أيضا في تحسين أحوال أفراد أسرته وأقربائه الذين هم جزء منه ، ومن لحمه .

ان من يعتقد أن الاطار العائلي لا مكان له في مجتمع المستقبل عليه أن يثبت كيف يفسر الفرد لنفسه معنى وجوده والا تسيطر عليه في حالة انعدامه عزلة رهيبة لا يمكن احتمالها ، وسيكون مضطرا كمخلوق اجتماعي لأن يوجد لنفسه بديلا ، سيكون هو أيضا أسريا في أساسه " مجتمع صغير أو طائفة مغلقة ، أو أي جماعة أولية" .

وظاهرة " الهيبيز " هي دليل قاطع على أن الفرد من أصحاب هذا المذهب يختار كبديل لانكار الوالدين والأسرة ، طريق ادمان المخدرات لفقد الوعي والعدمية

أو أنه يتخذ لنفسه جماعة وأسرة جديدة ، وقد يختار الطريقين معا .

ان الاطار الأسرى الذى يعيش فيه الفرد ويعمل فيه يلزمه أن يفكر تفكيرا جماعيا . من أين أتينا ، ماذا سيحل بنا ، أين نقف ، والى أين نحن سائرون ؟ ولم يعد يرى نفسه فى بؤرة الخليقة ، بل مجرد حلقة فى سلسلة الأجيال التى سبقته والتى سوف تليه وأخذ يفكر فى الماضى . ماذا فعل آباؤنا وآباء آبائنا ، من أين أتوا ، وكيف عاشوا ، ويتطلع الى المستقبل : ماذا سيفعل أبناؤه ، وأحفاده ، كيف سيعيشون . وماذا عليه أن يفعل لكى يعيشوا حياة أفضل .

فى هذه المرحلة بدأ الارتباط بدوائر انسانية أوسع ، فالأسرة ليست الا جزءا من الطائفة ، والقرية ، والحى والمدينة ، والقبيلة وكذلك فى هذه المرحلة من تطور المجتمع الانسانى تكون جزءا من اطارات أشمل : كالدين الذى يضم أفراد العقيدة الواحدة ، والشعب الذى يشمل أصحاب الأصل التاريخى المشترك ، والخلفية الحضارية المشتركة ، والدولة — وهى أوسع اطار جغرافى ، وقد يتطابق أحيانا مع اطار الشعب والدين ولكنه فى أغلب الأحيان يشمل فى داخله أكثر من شعب واحد ودين واحد .

فى هذه المرحلة — التى ليست الا مرحلة عابرة فى التسلسل اللانهائى لتطور الانسانية — ان الدولة هى أقوى وأشمل اطار ، أوجده الانسان ، واذا كانت تشمل شعبا واحدا ودينا واحدا — أى أنها دولة شعب — فانها تكون أقوى .

مرت بتاريخ الانسانية حقب كان فيها الانتماء القبلى أقوى ، ولكنها انتهت بلا رجعة فى معظم أنحاء العالم ، ومرت حقب كانت الأديان فيها أقوى اطار انتماء ، وفيها سادت الأديان ، ولكن منذ بضع مئات السنين اختلف الأمر ، فحل الاطار القومى — الذى كان أسمى تعبير له هو الكيان السياسى داخل مساحة جغرافية محدودة — محل الاطارات الاجتماعية الأخرى ، وتعيش الانسانية فى دول منفصلة فيما عدا بعض المستعمرات من مخلفات عهد الاستعمار .

لا شك أنه على اثر الثورة التكنولوجية الضخمة التى تجتاح العالم سوف تحدث تغييرات — وهناك بوادر لهذا — فى اطار الدولة وسياجها ، ونجد أن الدولتين العظميين الولايات المتحدة (اتحاد ٥١ ولاية) والاتحاد السوفيتى (اتحاد ١٥ جمهورية) هما خير مثل لعملية تكوين اطارات أكبر من اطار الدولة ، وهذا هو الحكم

بالنسبة للسوق الأوروبية المشتركة التى هى فى مرحلة التكوين وبالنسبة للتكوينات السياسية الأخرى الأكثر خلخلة مثل البرلمان الأوروبى ، والاشتراكية الدولية ، والأمم المتحدة التى هى التجربة الانسانية التى لم تنجح حتى الآن فى ايجاد اطار انتماء يشمل الانسانية .

فى الوقت الحاضر نجد أن الدولة هى أقوى اطار ، ونجد أن الدول التى كانت النتيجة النهائية للحركات القومية التى قامت فى أوروبا وانتشرت الآن على سطح الكرة الأرضية بأكملها ، ولا سيما الدول الشابة والحديثة واسرائيل بينها ، هى فى عنفوان حيويتها وازدهارها ، ويعيش فيها — فى المدن والقرى — الأفراد والأسر والطوائف وهى تسيطر عليهم سيطرة تامة ، فقوانين الدولة هى التى تحدد — الى حد كبير — حياة الانسان وشكل الحكم المؤثر فى الفرد ، وهى تلزمه بالانتماء اليها ، وتطالبه بدفع الضرائب للمحافظة على كيانها ، وببذل دمائه فى سبيلها .

وكما هو الحال فى الأسرة نجد رغبة فى تبرير الوجود فى المجتمع وجموع الناس الذين يبغون معرفة منشأهم وكيف ولدت وقامت دولتهم أو أمتهم ، وماذا مر بهم خلال آلاف أو مئات أو عشرات السنين التى مضت على قيامها وكل ما يتصل بتاريخها وتراثها .

نجد أولا — وهذا طبيعى — الرغبة فى معرفة وادراك وضع الدولة فى الحاضر — وهذه هى العجلة الدافعة للحكم والسياسة والاقتصاد ، والحياة اليومية للمجتمع والتى تحدد نظام العلاقات الخارجية والداخلية للدولة ، ومن هنا يأتى العمل من أجل أمن وسلامة المواطنين وعائلاتهم وأجورهم وصحتهم وتعليمهم واسكانهم وازدهارهم الاقتصادى ولكن نجد ما هو أقوى من كل ذلك وهو الرغبة فى معرفة الى أين تسير الدولة والشعب وكيف يحصل أبناء الدولة على مستقبل أفضل ، وماذا عليهم أن يعملوا من أجل المستقبل وكيف نطور استقلال الدولة وندعم أمنها ؟ ومع من نعقد حلف صداقة ؟ وعلى أساس أى القيم نربى الجيل الناشىء ؟ وبأى الوسائل تستثمر موارد الدولة ؟ وكيف تنسق نفسها مع تيار العلوم التكنولوجيا الدافق ؟ وما هى أهدافها للمستقبل ؟ ومن هنا يأتى الفكر والتخطيط فى كافة المجالات للمدى القصير والمدى البعيد الذى تلتزم به أى قيادة للدولة لمواطنيها الذين يعيشون فى الدولة .

على قادة الدول وزعماء الشعوب أن يتوقعوا مقدما أو يتنبأوا بمستقبل دولتهم وأن يضعوا للدولة طبقا للتوقعات والتنبؤات أهدافا وأن يرسموا الطرق لتحقيقها ، بل والعمل والحياة طبقا لها .

ان من يشتغل بهذا فى أيامنا قد يتعرض للتكذيب ، كما كذبت من قبل الأنبياء والقادة ، الذين وضعوا الخطط أو تنبئوا بالمستقبل على المستوى القومى أو الدينى أو الانسانى . للشعب اليهودى تجارب فى هذا المجال مثل بركة يعقوب لأبنائه وما يتصل بالآخرة . وقد حملنا مشعل الفكرة المسيحية أجيالا عديدة ، ونقلناها الى الانسانية عامة عن طريق المسيحية والاسلام ، ولكن هذه الفكرة ظلت فى نطاق الأحلام . كان الحلم والنبوءة يثيران دائما سخرية المتشككين ، وأحيانا كان الحلم مزيفا والنبوءة كاذبة ، وحتى تجارب التخطيط التى تمت فى الأجيال المتأخرة ، مثل تخطيط المجتمع الذى قام به ماركس ، وكان مفخرة علمية قامت على أساس خير الأفكار والمعلومات والخبرات فى عصره ، قد كثرت فيه الثغرات اليوم وأصبح كالغربال .

فى الماضى – حتى الماضى القريب – كان الرائى أو النبى أو المخطط يستطيع أن يتخذ بعض المعلومات الأساسية الثابتة وأن يضع خططه ومشروعاته معتمدا عليها . مثل طبيعة الأرض وخصائصها ومواردها ، ومناخها ، وجدول المسافات (لم يحدث أى تغيير فى الزمن اللازم لقطع مسافة معينة حتى اخترع القطار ، فنجد أن نابليون قطع نفس المسافة الضخمة التى قطعها الاسكندر فى نفس الزمن) ، وعدد السكان وتزايدهم وميزان القوى الطبيعية والقوى البشرية .

الى عهد قريب كان المخططون يستطيعون التنبؤ بزيادة الانتاج القومى والشكل الاجتماعى والاقتصادى لدولتهم فى أوضاع مختلفة . لقد انقضت هذه العهود بلاعودة . وأصبح معدل التطور العلمى والتكنولوجى فى عصرنا سريعا ومذهلا فى كل مجال من مجالات الحياة والعلوم الى حد أن المخططين للمدى الطويل لم يعودوا يستطيعون ملاحقته وتراهم يلهثون وراء الضباب الذى يخلفه الصاروخ الذى يحرق فى الفضاء فى عصرنا احتل المتنبئون بالمستقبل مكان الأنبياء والرائين ، فاذا تعرضوا لوصف وجه الانسانية فى المستقبل أطلقوا العنان لخيالهم ، فلا تمر الا سنوات قليلة حتى نكتشف أن خيالهم كان أضيق من الواقع الجديد الذى يتغير بين الحين والآخر .

رغم كل هذا يجب على الساسة المتنبئين والمخططين فى عصرنا أن يضعوا للانسانية أهدافا جديدة ، ولكنا لا نعتقد ازاء التغيرات الضخمة فى العلوم والتكنولوجيا أنهم يستطيعون أن يضعوا خططهم على المستوى القومى أو المستوى الدولى للمدى البعيد ، بل أقصى ما يصلون اليه هو نهاية هذا القرن . لكن قبل أن يضعوا أمام الجيل الحاضر أهدافا جديدة يجب عليهم أن يضيئوا النور الأحمر ويحذروا الانسانية

من الأخطار الرهيبة التى قد تنزل عليها كارثة رهيبة تبيدها من فوق الأرض قبل أن ينقضى القرن العشرين .

فى الماضى كانت الانسانية تعيش فى ظل كابوس حرب هاجوج وماجوج ونهاية الانسان ، وكان الانسان يحتاج الى عقيدة راسخة كى يتغلب على غرائزه الشريرة ويكف عن القتل والحرب الذى سيطر على النوع الانسانى فى كل مكان على سطح الأرض ، وعلى طول العصور حتى هذا اليوم ، والفرق الرهيب بين الأجيال القديمة منذ آلاف السنين وبين جيلنا ، هو أنه فى جيلنا قد صنع الانسان بيديه وسائل التدمير ليقضى على نفسه قضاء تاما ، فيحل الفناء التام بالانسانية جمعاء وتشمل الحيوان والنبات ، ويدمر تماما الكرة الأرضية التى تحيط بها طبقة دقيقة من الهواء ، وتدور من ملايين السنين حول نجم أكبر قليلا يمنحها الضوء والحياة وتحوله هو أيضا الى نجم ميت بين مجموعة النجوم الميتة الأخرى العديدة التى تتحرك فى الفضاء اللانهائى .

الرعب النووى

ان قوى التدمير التى أطلقها الانسان المعاصر من قمقم سليمان ثلاثة ، وهى تهدد مصير الانسانية : (١) الحرب الشاملة ، فتدمير الطبيعة والبيئة (٢) عدم التوازن الاجتماعى (٣) الانفجار السكانى . فعند اضاءة النور الأحمر كعلامة انذار من هذا الخطر المثلث سوف تعرف الانسانية كيف تنجو منه ، ويستطيع القادة والمتنبئون أن يرسموا للانسانية الطريق للحياة بعد جيل اذا وصلت حقا الى ذلك .

يجب علينا أن نستعرض كل واحدة من قوى الدمار الثلاثة هذه التى تهدد الجنس البشرى بالابادة .

الحرب الشاملة :

ان الانسانية جمعاء تعيش اليوم فى ظل كارثة نووية ، وقد نجحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى جيلنا فى صنع وخزن الأسلحة الذرية والهيدروجينية (وقد جربتها الولايات المتحدة بنجاح وهى لا تزال فى مراحل التطوير الأولى فى هيروشيما ونجازاكى) بكميات كبيرة ومن نوعية ممتازة حتى انه فى حالة صدام مخطط أو عفوى بينهما فانها سوف تقضى عليهما كليهما بعشرات الملايين من سكانهما بل سوف تفنى أيضا الحيوان والنبات من سطح قارات بأكملها وتلقى بالكرة الأرضية كلها أو معظمها الى

أحضان الخراب والظلام ويحوم الغبار الذرى على سطح الهاوية .

استغلت الدولتان العظميان الامكانيات العلمية والاقتصادية فى تطوير أسلحة نووية أكثر دقة وجدوى وأكثر تدميرا وقتلا ، ويرينا الصاروخ " ميرف" الذى يحمل اثنى عشر رأسا أيدروجينية الى أى مدى يستطيعان السير فى هذا الطريق ، ولا شك أن العلماء فى أمريكا والاتحاد السوفيتى يعملون بأمر القيادة السياسية على اطلاق عقال طاقة أكثر تدميرا من الطاقة النووية ، وهم يبحثون عن مواد خام جديدة لانتاجها للتحرر من الاعتماد على مناجم اليورانيوم والمواد الخام الأخرى التى اكتشفت حتى الآن .

أخذت تتراخى يد القيادة السياسية فى الدولتين العظميين التى تقبض على الأسلحة النووية لتعقد السيطرة على القائمين بتشغيلها ومن يضغطون الأزرة ، ومن يعطون الضوء الأخضر لتشغيلها ، وكذلك لأن الزمن اللازم للانذار من هجوم مفاجىء قد قل ، ونجد أنه فى هذه الحالة ليس هناك أهمية كبرى للسؤال من كان البادىء ومن الذى أصدر الأمر ؟ ولن يتأخر الرد ، فانه سوف ينقض على قبر الحضارة الانسانية .

تبين لنا الكوارث التى وقعت فى هذا الجيل النووى ، والتى لم نعلم عنها الا القليل ووصولنا الى حافة الضغط على الزر فى أزمة الصواريخ بكوبا تبين لنا أن الانسانية نجت بمعجزة من نكبة مروعة .

ان نظم الحكم فى أمريكا والاتحاد السوفيتى لن تكون أكثر استقرارا ولا نعتقد أن السيطرة على الزر ستكون فى المستقبل فى أيد أكثر ثباتا .

ان أمريكا يجتاحها الانشقاق فى الداخل ، وجريحة فى الخارج ، وينتقد الكثيرون طريقة الحياة الأمريكية ، ويتزايد فيها التطرف والعنف من اليمين ومن اليسار ، فهل يمكن الاعتماد على زعمائها فى المستقبل ، ألا نخشى أنه فى يوم من الأيام يدفع الاغراء أحدهم الى ضغط الزر؟ وكذلك الاتحاد السوفيتى يقوم النظام السياسى فيه على أساس أكاذيب محكمة ، تبدو الثغرات فيه أقل منها فى الغرب ، لكنها ليست أقل عمقا ، وهى تهدد بتقويض نظام الحكم ، واخراج الزعماء عن وعيهم ، وتؤدى بهم الى الضغط على زناد الأسلحة النووية التى تفنى العالم .

ان الأسلحة النووية لا تقتصر على الدولتين العظميين فقد دخلت مجال الذرة الصين وبريطانيا وفرنسا ، وأصبح لديها مخازن للأسلحة المدمرة ، حقا انها فى عصرنا

فى أوائل السبعينات ليس لديها القدرة بعد على تدمير الوجود كله أو أغلبه ، بل عشرات الملايين من الأشخاص فقط ، ولكنها ولا سيما الصين ليست الا مبتدئة فى تطوير الأسلحة النووية ، ولكن ليس هناك ما يمنع الصين من أن تصبح خلال زمن قصير جدا من الدول النووية الكبرى ، وتكفى قوة التدمير التى تختزنها فى مستودعاتها لتخريب العالم كله .

ان السيطرة على الزر فى الصين أقل احكاما منها فى أمريكا والاتحاد السوفيتى فان نظام الحكم فيها كان منذ سنوات قليلة فريسة بين أنياب الدوريات الحمراء الجامحة التى أفلت زمامها ويقوم على أساس عبادة زعيم أسمى يحكم أكبر حشد من البشر على وجه البسيطة ، ويرى فى أجزاء العالم الأخرى أهدافا للثورة ، ولا يتورع عن الكلام عن التضحية بعشرات ومئات الملايين من الأشخاص وخطر هذا الحكم أشد اذا كان لديه قوة من الصواريخ عابرة القارات التى تحمل الموت والدمار .

ان نادى الدول الذرية الخمسة ليس العنصر الوحيد فى هذا المجال ، وليس هذا بسبب أن هذه الدول ولا سيما الدولتين العظميين قد وزعت الأسلحة النووية والهيدروجينية فى مستودعات وقواعد أقيمت على أراضى عشرات الدول الصديقة أو الاذناب فى جميع أنحاء العالم . ان الخطر موجود فى الحركة التى لا تنقطع على سطح المحيطات وتحت سطحها وفى الجو فى عصرنا فى قاذفات القنابل ، وفى المستقبل القريب فى سفن الفضاء . وهناك حوالى اثنتى عشرة دولة فى الغرب والشرق تمتلك الخبرة العلمية والمواد والأدوات التى تستطيع بها أن تنتج خلال مدة قصيرة الأسلحة النووية بالفعل ، وان كان الذين يحاولون طمأنة الانسانية وعدم اثارة الخوف فى قلبها يدعون أنه ليس لديها الا مدخل لمجال الذرة . بالاضافة الى دول المدخل ، تقف عدة دول أوروبية وغير أوروبية فى الصف تتدافع على أبواب النادى الذرى ، وهذه الدول قادرة على انتاج أسلحة وأجهزة نووية خاصة بها .

لم يقف الأمر عند هذا الحد ، فان الدولتين العظميين قد تعهد رغم المواثيق الدولية بأسلحة نووية أو أجزاء من الأسلحة النووية للدول الحليفة الأصغر ، ويحتمل أن تكون قد فعلت هذا ، والأدهى من ذلك أن تقوم الدول المتوسطة والصغيرة التى تنتج أو سوف تنتج أسلحة ذرية ببيعها فى المستقبل لأى دولة تدفع ثمنا طيبا ، كما تقوم اليوم ببيع الدبابات أو المدافع لمن يرفع السعر .

والنتيجة أن تتوزع في المستقبل مستودعات الأسلحة النووية المتنوعة والمختلفة في الحجم والكم على سطح الأرض بأكملها ، وكلما كثرت الأيدي التي تعبث ، وكلما صغر حجمها ، وزادت امكانيات تشغيله كلما زاد خطرها ، وكما أنه ليس هناك وجه شبه بين الحوت والخفاش فيما عدا أن كليهما من الحيوانات الثديية ، كذلك ليس هناك وجه شبه بين القنابل المعقدة التي يبلغ وزنها عدة أطنان من النوع الذي ألقي على هيروشيما من قلعة طائرة في سنة ١٩٤٥ وبين القنابل الصغيرة التي تخزن حاليا في مستودعات الدول النووية ، فيما عدا أن كليهما سلاح نووي يحمل الخراب والدمار ، ولا شك أن جميع القصص عن احتمالات وضع أسلحة نووية في حقائب ليست خيالية على الاطلاق ، فان الواقع يفوق الخيال .

الأسلحة الكيمائية

ان الأسلحة النووية ليست الا احدى الأسلحة الشاملة التي في يد الانسان والتي تتيح له أن يفني نفسه وكل ما حوله ومنذ جيلين وأكثر منذ نهاية الحرب العالمية الأولى والغازات السامة الحربية تعد محرمة ، فان الأطراف المتحاربة قد رأت آنذاك ما فعلته الغازات السامة بالجنود والمدنيين ، ووضع اتفاق يشبه الاتفاق القائم بالنسبة للأسلحة النووية يسمح بانتاج هذه الأسلحة ، ولكن يحظر استخدامها . وهناك علماء ممتازون في الدول الكبرى والمتوسطة والصغرى يقومون بأبحاث ويحضرون أنواعا جديدة من الغازات الخطرة لا تقاس بكل ما عرفناه في الحرب العالمية الثانية .

لقد كانت الغازات السامة ، ووسائل اطلاقها وانتشارها منذ جيلين بدائية جدا وعلى هذا خشي الأطراف المتحاربة استخدامها من الرعب الذي كانت تلقيه في القلوب ثم طفرت تكنولوجيا تطوير وسائل القتال الكيماوية طفرات واسعة ، حتى أدى الأمر الى أنه لو استخدمت الدول الكبرى الأسلحة الكيماوية المدمرة التي في حوزتها الى جانب الأسلحة النووية فانها قد تفني شعوبا وقارات بأكملها ، والكلام عن تدمير مستودعات الأسلحة الكيماوية ليس الا نفاقا وكذبا ، لأن الدول الكبرى ليست في حاجة الى خزنه على الاطلاق ، فان المواد الخام اللازمة لانتاجها موجودة في الصناعة الكيماوية والبتروكيماوية المدنية التي في حوزة وزارات الحربية ، والتي تنتج عناصر الأسلحة الكيماوية وأدوات الاطلاق موجودة لدى الجيش، وكل المطلوب في وقت الطوارئ هو مهلة قصيرة جدا حتى تتحول هذه العناصر الى سلاح كيماوي .

ان كل ما قيل عن استطاعة أكثر من اثنتي عشرة دولة متطورة وصناعية أن تنتج حاليا أسلحة نووية يصدق أيضا على الأسلحة الكيماوية . ان أي دولة متوسطة أو صغيرة تمتلك صناعة كيماوية على مستوى عال ، ولديها علماء وكيماويون ممتازون تستطيع انتاج أسلحة كيماوية بسرعة كبيرة ، ونعتقد أن بعضها تنتجها في الخفاء ، أو تنتج عناصرها المختلفة .

ان الأسلحة الكيماوية لا تقتصر على الغازات السامة ، فهناك مواد يمكن أن تنتشر على سطح أرض العدو ، وأن تسمم مياهها ، وأن تقتل سكانها عطشا ، وأن تبيد النبات والحيوان أو أن تذبل غلات الأرض .

يمكن أن يدخل مجال الحرب الكيماوية أيضا حرب المخدرات ، وهي ليست جديدة ولكن أدخلت عليها حاليا تحسينات كبيرة ، وقد رأينا في فيتنام ما يحدث للجيش الذي يجد المخدرات في متناول يده ، فان هذا الجيش يفقد لياقته القتالية ، وقد يخرج من العملية دون أن تطلق طلقة واحدة ، وليس هذا فحسب فان الدول الكبرى المتعادية تستطيع الواحدة منها أن تخدر الأخرى بصفة مؤقتة أو دائمة ، وأن تعمل على انحلال سكان الدولة المعادية ونجد أن من يستخدم الأسلحة الكيماوية لا يأمن أنها بعد اصابتها الهدف لن تعود وتصيبه هو نفسه ، كما يصيبه الغبار الذري للأسلحة النووية التي يستخدمها هو نفسه .

الأسلحة البيولوجية

هناك نوع ثالث من الأسلحة لا يقل فظاعة وشمولا عن الأسلحة النووية والكيماوية وهو الأسلحة البيولوجية . فمنذ فجر التاريخ كانت الانسانية فريسة للأوبئة ، فكانت تجتاح الشعوب والبلاد أوبئة الطاعون والكوليرا وغيرها ، وكانت تعد عقابا ربانيا لا يمكن الوقوف أمامه ، ولم ينجح الانسان في الوصول الى وسائل التغلب ولو جزئيا على الجراثيم والفيروسات الا في الأجيال الأخيرة بعد التطور السريع للطب والعلوم البيولوجية ، ولكن العلماء الذين يجرون الأبحاث وينتجون مواد التحصين ووسائل منع الأمراض ومكافحتها هم أنفسهم الذين ينتجون الوسائل التي تسبب الأمراض والأوبئة وتنشرها .

يضع العلماء تحت تصرف القيادات السياسية والجيش هذه الطاقات غير العادية التي تنطوي على امكانيات تدمير لاحد لها من الناحية النظرية ، لأن الأعداء البيولوجية

للانسان قادرة على مهاجمة جسمه الرقيق واصابته بالمرض والذبول والموت .

تنطبق على هذه الأسلحة أيضا قاعدة أنه لا داعى لأن ننشىء من أجلها ألوية ومستودعات خاصة . وكل المطلوب لانتاجها وتشغيلها هو علماء البيولوجيا والميكروبيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم البكتريا وعلم الفيروسات ، والعلوم المتصلة بها ، ومعامل حديثة ووسائل اطلاقها .

نجد لدى أى دولة كبرى أو دولة متطورة صغيرة أو كبيرة هذه العناصر ومن هذه الناحية تعد الأسلحة الكيماوية موجودة بالفعل ، وتهديدها تهديد فعلى . وهذه الأسلحة كالأسلحة الكيماوية يمكنها أن تصيب أجساما وعقولا ونفوس أهالى الدولة المعادية ، وأن تنزل بهم مصيبة خاطفة . ان لم يكن لديهم وسائل تحصين ، لأن العلماء الذين يجرون أبحاثا فى معاملهم حول وسائل التحصين ضد الأوبئة يربون بصورة صناعية أنواعا وأصنافا من الفيروسات والجراثيم أقوى بكثير من الأنواع الموجودة فى الطبيعة ، ونجد لدينا اليوم مسببات الأمراض والقتل الجماعى يعجز أمامها تماما الناس والدولة التى يقع عليها الهجوم .

لم يكف جيلنا أنه يعيش فى ظل ثالوث الأسلحة الذرية والبكتريولوجية والكيماوية التى تستطيع تدمير العالم كله ، فانه فى جعبة التكنولوجيا العصرية مفاجأة أخرى للانسانية ، فاننا نعلم أن استخدام أشعة ليزر لا يزال فى البداية ، وأن اليوم ليس بعيدا عندما يقدم العلماء لرجال الحرب على صينية فضية أسلحة حارقة تستطيع أن تحرق من مسافات شاسعة أى هدف ولا تقتصر على الانسان والحيوان والنبات .

والطريق ليس بعيدا من أشعة ليزر الى غيرها من الأشعة مثل تركيز أشعة الشمس بواسطة سفينة فضاء ضخمة ، وتوجيهها الى أهداف على سطح الأرض ، ونجد أن محطات الفضاء الكبرى فى السبعينات والثمانينات ليست على غرار السبوتنيك والأقمار الصناعية البدائية الأخرى التى أطلقت فى الستينات ، والتى كل ما تستطيعه هو أن تقوم بالتجسس أو أن تسقط بصعوبة بضعة أشخاص أو مركبة على القمر وأن تجمع البيانات العلمية فان الأولى تستطيع أيضا أن تطلق أسلحة مدمرة غير تقليدية فى أى وقت والى أى مكان على سطح الأرض .

اذا أضفنا الى ذلك أنواع الأسلحة غير التقليدية (ولم نتحدث عن الأسلحة

التقليدية وملايين الجنود وآلاف الطائرات المقاتلة والقاذفة وآلاف الدبابات ، وآلاف السفن الحربية) نصل الى نتيجة بأنه يوجد حاليا فى السبعينات لدى عدد من الدول قابل للزيادة أسلحة تدمر أى عدد حقيقى أو وهمى . حقا انه يوجد لدى دولتين أو ثلاث من الدول العظمى أضخم كمية من أسلحة الدمار هذه ، ولكن الشعوب الصغرى أيضا مزودة بالأسلحة غير التقليدية والصواريخ الحديثة . وعندما يأتى اليوم الذى يخيل لها فيه أن دولة عملاقة ستنقض عليها لابادتها تسارع لتدميرها .

ان هذه الرؤيا الفظيعة للشعوب الكبرى والصغرى التى يتربص فيها الواحد للآخر لابادته ليست رؤيا آخر الزمان ، بل انها على عتبة بابنا ، ونحن نعيش فى ظلها .. بعد الحرب العالمية الثانية والقتل الجماعى الذى أنزله النازيون بالشعب اليهودى وابادتهم ثلثه بطريقة علمية مخططة ، فقد قضوا على كل من وصلت اليه أيديهم من اليهود بدا لنا لفترة قصيرة أن الانسانية روعت من الامكانات التى فتحت أمامها فى أيام الحرب لابادة شعوب بأكملها ، حتى انها عقدت العزم على كبح غريزة القتل التى تنبض فى نفسها ، ولكن هذا كان مجرد وهم . فبعد الحرب العالمية نشأ جيلى ولا زلنا نعيش فيه ، لا زالت الحرب تراوده من حرب الهند والباكستان ، والحرب بين اسرائيل والعرب وحرب كوريا والهند الصينية ، وعشرات من حرب الاستقلال التى تسفك فيها الدماء ، لقد تعودت الانسانية هذه الحروب ، وتاريخ الانسانية على الأرض هو تاريخ حروب طويلة تتخللها فترات سلام قصيرة (يؤكد ذلك كثرة ورود عبارة " وهدأت الأرض أربعين سنة " فى الكتاب المقدس) ، بل وعادت فى جيلنا ظاهرة القتل الجماعى ، قتل شعب بأكمله وان كان بطريقة أقل تنظيما مما فعله النازيون باليهود ، لقد عادت فى بيافرا وبوحشية أفظع فى بنجلاديش ، وكل هذا فى أواخر القرن العشرين وقد وصل الانسان الى القمر وأخذ يطلق سفن الفضاء فى أنحاء النظام الشمسى .

من يضمن أن الانسان فى عصرنا قد كبح غريزة القتل التى تعتلج فى نفسه وأنه لن يعود الى استخدام الأسلحة الشاملة لابادة أعدائه . اننا نقترب من أواخر القرن العشرين ولا زال الانسان يحمل السلاح لأخيه الانسان ، والكل يدرسون الحرب — وأى حرب !

اختلال الميزان البيئى (تلوث البيئة)

ان قوة التدمير الثانية التى أخذت تنتشر على سطح الأرض هى " الشيطان

الخانق " أو تلويث الجو والماء والأرض – تخريب البيئة واختلال ميزان السكان الحساس ودورة الحياة فى البحار والقارات وفناء أنواع وأجناس كاملة من النبات والحيوان ، لم تدرك الانسانية خطورة هذه العملية الا فى الجيل الأخير . وأنه لا محل للشك فى اضرارها ، وأنها وان كانت لا تقوم بعملية خنق شاملة فانها تعمل فى بطء ، ولكن يجب أن ندرك أنها اذا لم تصب مقتلا من الحضارة الانسانية ، فانها تشلها ، ونقصد بالدرجة الأولى الدول الصناعية المتطورة كأمريكا ودول أوروبا واليابان والاتحاد السوفيتى التى يعيش فيها حوالى ثلث النوع الانسانى . ان الولايات المتحدة يمكن أن تكون أداة تنبيه لهذا الثلث من سكان العالم ، بل وللانسانية جمعاء اذا لم توقف هذه العملية ، لأن التطور والتصنيع والتكنولوجيا قد سببت تلويث البيئة وتدميرها ، ان أمريكا (وكذلك أوروبا واليابان) تقف حائرة أمام ما سيحدثه فيها هذا التلوث ، فان مدنها الكبرى التى كانت تفخر بها فيما مضى ، قد استشرى فيها العفن من الداخل وأصبحت تترصدها لعنة سكانية ، فهواؤها تلوث الى درجة مخيفة ، وأصبح مصدر اضرار بالصحة ، وأصبحت أنهارها الكبرى التى بنيت على ضفافها المدن الضخمة مصبا لفضلات الصناعة وعشرات الملايين من السكان ، وأخذ التلوث يمتد من المدن الكبرى للمدن الصغرى ونخر جزءا كبيرا من المراكز السكانية فى أمريكا .

ان اليابان مزدحمة بالسكان ومدنها الكبرى تنافس مدن أمريكا وأوروبا المكتظة بالسكان ، وقد لحقت بها ، وأدى تطور الصناعة والمواصلات ووسائل الاتصال بهذه الصورة المذهلة الى ترك عشرات الملايين من السكان محل اقامتهم كل سنة والاحتشاد فى المدن الكبرى من العالم ، واذا لم تنتبه الدول المعنية ، وتجد علاجا للتلوث وتدمير البيئة سوف يؤدى هذا الى فناء المدنية وليدة الحضارة التى ترجع لآلاف السنين وليس هذا الا ناحية واحدة من نواحى التلوث المتعددة الذى غرس سمومه فى مجالات أخرى ، فان تلوث الأنهار والبحيرات الداخلية سيؤدى سريعا الى تلوث البحار والمحيطات ونحن نشاهد حاليا مساحات من البحر تبلغ آلاف الكيلومترات المربعة تكسوها طبقة من تلويث البترول الذى يلقى بكميات متزايدة الى البحر بالاضافة الى تلوث الشواطىء والأنهار . هذه الطبقة من التلوث تفنى فى طريقها أى كائن حى ، وتغير طبيعة حياة السمك ، وقد تأتى على أحد مصادر الغذاء الأساسية للانسانية .

نجد أن التغير فى ميزان الطبيعة على سطح اليابسة مروع هو الآخر ، فمنذ بضع سنوات عند اكتشاف المبيدات ومواد التعقيم خيل الينا أننا اكتشفنا علاجا لجميع الأمراض

وآفات النبات والحيوان ، وفعلا أتت هذه المواد بالأعاجيب ، ولكن فجأة ظهر للانسان أن لهذه المواد أضرارا عظيمة ، وأنها مخلوق عملاق اذا لم نقف فى طريقها سوف تقتل خالقها .

لقد ثبتت بوضوح أضرار الد . د . ت وأضرابه ، فبعد مدة من استخدامه تقوم أجيال من الآفات الحصينة نتيجة التعود على المبيدات وقانون الاختيار الطبيعى والبقاء للأصلح والتحول مع البيئة ، فيبطل مفعول المبيدات السابقة ، ويتطلب الأمر استخدام مبيدات أقوى وسموما أشد فتكا عدة مرات ، فترش النباتات بمبيدات سامة ، ويزداد تركيزها فى أجسام الحيوانات التى تتغذى على هذه الحيوانات ، ويمتص الانسان الذى يعيش على هذه الحيوانات فى جسمه جرعة سامة تركيزها أقوى عدة أضعاف .

ان المبيدات والتلوث وصيد البر والبحر تسبب فناء واختفاء عشرات الأنواع والأجناس من النبات والحيوان ، ولن تطول الأيام حتى يهلك الانسان الضئيل ، وأشد المخلوقات وحشية " الحوت أكبر الحيوانات فى العالم " ويفنيه تماما ، وتضيع علينا مغانم اقتصادية .

لقد دالت حضارات وشعوب ودول على مر التاريخ الانسانى بسبب كوارث الطبيعة التى لا يستطيع الانسان التحكم فيها مثل الزلازل والفيضانات نتيجة للأوبئة والأمراض والحروب الانسانية والغزو وأعمال التدمير والقتل ، وقد هلكت فى الماضى شعوب وحضارات بسبب سوء استخدام الأرض وتلوث المياه ، ومن يرى ، مثلا ، خرائب القرى فى أقاليم كاملة فى مرتفعات ايران والأراضى التى حولها ، والتى ملحها الانسان نتيجة صرف مياه الرى فى الأجزاء المنخفضة ، يدرك لتوه سبب فناء مئات المستوطنات البشرية وقد كانت فلسطين أيضا مزدهرة الى بضعة أجيال سابقة حين تكونت المستنقعات والملاحات على اثر دمار الحضارة ، وسببت بدورها مرض السكان وذبولهم فى محيطها وهجران مناطق واسعة .

كل هذا كان على نطاق ضيق محلى ، أما الآن فان الانسان يستطيع أن يجعل دولا كاملة وفى المستقبل أيضا قارات غير صالحة للسكنى .

اختلال الميزان الديموجرافى

أما عن الديموجرافيا أو ما نسميه الانفجار السكانى ، فمن المؤكد أن عدد

السكان على سطح الكرة الأرضية سوف يتضاعف قبل نهاية هذا القرن وسيبلغ عـــدد الانسانية أكثر من خمسة مليارات من الأشخاص ٠

منذ أكثر من مائة سنة نبه ملتوس الى الانفجار السكاني ، وحذر من أن الكــرة الأرضية لن تستطيع أن تحمل سكانها وأن تطعمهم ، ولكنه أخطأ اذ لم يستطع أن يتصور ما سوف تحدثه فى الأجيال القادمة تكنولوجيا انتاج الأغذية وتكنولوجيا الزراعية واصـلاح الأراضي البور ، وتطوير طرق جديدة فى الزراعة وتهجين أنواع جديدة من التقاوى وفيرة المحصول وكشف وسائل تسميد وابادة الآفات وما الى ذلك ٠ حقا ان توزيع الأغذيـــة لا زال غير متكافئ ٠ ، وأن مليار شخص يسكنون النصف الشمالي من الكرة الأرضية يعيشون فى عالم مصنع ومتخم ، أما المياران الآخران اللذان يعيشان فى النصف الجنوبى غيـــر المتطور ، فانهم يشتغلون بالزراعة ، ويعيش جزء منهم حياة جوع ومسغبة ، ولكن المسألـــة مسألة وقت حتى تستطيع الصين مثلا بسكانها البالغ عددهم ٨٠٠ مليون تنضم من هـــذه الناحية الى الثلث الشمالي ٠

حقا ان علم وتكنولوجيا انتاج الأغذية أمامها طفرات جديدة فى مجال محصـولات الأرض بأنواعها ، ولا سيما محصولات الأغذية واستخراجها من البحر (ليس السمـــك بالذات) وأهم من كل هذا تواجه احتمالات انتاج مواد عضوية وأغذية من مواد غير عضوية من ناحية أخرى اذا كان ملتوس لم يخطئ ٠، واستمرت زيادة السكان بمعدل ٢٪ — ٣٪ سنويا ، وأصبحت وسائل العلاج والصحة العصرية فى متناول سكان النصف الجنوبى مـن الكرة الأرضية البالغ عددهم ملياران فسوف يزيدون بمعدل سريع الى حد لا تستطيـــع التكنولوجيا الحديثة أن تلحق به ، وقبل أن تتعلم الانسانية استخلاص الأغذية الحديثة وتوزيعها ، فسوف يزيد مئات الملايين من الجوعى الذين سوف يقوضون نظام العالـــم ويشعلون الثورات والحروب من أجل عدالة توزيع الأغذية بين الشعوب والدول ٠

وحتى لو نجحت الانسانية فى تنظيم النسل بالطريق الطبيعية ووجدت الطـــرق لتنسيقه مع كميات الأغذية الجديدة التى ستنتج من الزراعة والصناعة (مع استخلاص أغذية من البحر والمواد غير العضوية سيفقد لفظ الزراعة مفهومه الكلاسيكى) فانها سوف تواجه خطرا جديدا ، وهو خلق الانسان بغير الطريق الطبيعى ، وهنا نصل لمشكلة علـــم الأجنة ، وما يخبئه فى طياته للانسانية فى المستقبل ٠

لقد وصل العلماء فى مجالات مختلفة بفضولهم العلمى ونوايا شريفة الى خلـــق

مسخ وأدوات تدمير بأنواعها ، وقد سبق أن تحدثنا عن الأسلحة غير التقليدية ومـن نووية وكيماوية وبكتريولوجية التى ولدت فى عقل الانسان ، وعلى لوحات التصميم فى معامل ومختبرات العباقرة من العلماء ، ثم انتقلت الى أيدى رجال الجيش والساسة الأمينـة ووقف آباء هذه المسوخ مشدوهين عاجزين لمشهد ما تمخضت عنه عقولهم لا يملكون الا أن يصرخ الواحد منهم بأعلى صوته : " ليت اليوم الذى ولدت ما كان ، ولعن الله الليلـة التى تمخضت فيها أفكارى عن هذا المسخ ٠ "

وهذا هو أيضا الحال فى مجال الأعاجيب فى بحوث أسرار علم الأجنة ٠ الــذى يشتغل به آلاف العلماء الذين يتعاونون أو يتنافسون فيما بينهم للوصول الى أعقد لغز فى العالم — وهو لغز الحياة ٠ ونجد أن لدى الباحثين والعلماء رغبة ملحة فى كشف هذا السر ٠ وادراك كيفية صدور الأوامر لخلايا الأجنة ، ومن القائد والمتصرف فى الجسيم الزلالى الميكروسكوبى والذى يصدر الأمر بأن ينبت من أحد الجسيمات أرز ، ومن الثانى نبات أبو خنجر ، ومن الثالث تنمو سمكة قرش ومن الرابع انسان ، لكن ليس هناك حـدود للبحث والفضول العلمى لدى الانسان ٠ فاننا اذا عرفنا من المتصرف ، وما وسائل الأمـر التى تحدد نوع الانسان ، وصفاته الوراثية مثل لون البشرة والعيون ، وطولهم وآلاف الصفات الأخرى ، تعتمل فى نفس الانسان رغبة شديدة فى التدخل فى عملية التصرف وتعديـل الغيوب ، ومنع نقل الأمراض الوراثية ، وبنفس الطريقة يريد العلماء أن يصلوا فى بحـوث السرطان ٠ ويعرفوا من الذى أصدر أمرا لخلية معينة بأن تتحول الى خلية سرطانيـة ولأى سبب ومن الذى يوصل الأمر ، وأيضا بهدف التدخل فى العملية ومنعها ٠ فهــل هناك أهداف أجمل وأسمى من هذه ؟

لكن فى اللحظة التى يصل فيها العلماء الى غزو جديد فى هذا المجال ويخيل للانسانية أن الطريق أمام جنة الفردوس قد أصبح مفتوحا على مصراعيه ، تنشق تحـت أقدامها هوة عميقة تؤدى الى الجحيم ٠

لا داعى للتكالب على القصص العلمية لادراك ما سوف يحدث ، فقد أدى تدخـل العلماء فى هذه العمليات الى ثورة فى عالم النبات فأثمرت عمليات التهجين التى بدأت بعلم الأجنة أنواعا جديدة وأحدثت ثورة فى جميع مفاهيم الزراعة فى العالم ٠

وأدى الاخصاب الصناعى وحقن السائل المنوى للحيوانات المنتقاة الى تحسيـن أنواع الأبقار والأغنام ، والطيور وغيرها من الحيوانات لصالح الانسانية ٠

والآن أخذ العلماء يبحثون أيضا عمليات اخصاب الانسان وتناسله ، وليس هناك مانع من الناحية العلمية والتكنولوجية من أن يتدخلوا أيضا فى هذه العملية . وهنا أيضا نجد نوايا حسنة ، وأهدافا شريفة هى معالجة العقم ، وتقديم المعونة للنساء والرجال التعساء الذين لا يستطيعون الانجاب ، دون هذا التدخل ، ولم يتحرك العلماء فى هذا المجال الا خطوة واحدة ، هى تكوين بنوك للسائل المنوى تستطيع أن تحتفظ بالسائل المنوى المنتقى مدة سنين عدة ، وأن تتيح انجاب أولاد من آباء منتقين ، أو من آباء توفوا منذ عهد قريب ، ولكن هذا لا يكفى ، فان العلماء (وقد تعاون فى هذا المجال علماء أفرع عديدة مترابطة) لا زالوا فى مرحلة التجارب فى تنمية أجنة خارج أرحام أمهاتها ، ولا زالوا الى الآن يجرون تجاربهم على الحيوانات ولكن الطريق ليس بعيدا من هنا الى تنمية البشر فى زجاجات ، وسرعان ما يصلون الى عالم هكسلى العجيب .

ولكن يبدو أن هكسلى لم ير فى حينه احتمالات كثيرة فى هذا الموضوع ، أما الآن فانه اتضح أنه باستخدام السيدات للحبوب والأدوية وعلاجهن للعقم قد زادت احتمالات انجاب توأمين أو ثلاثة وأربعة أحيانا عنها فى الماضى . كل هذا فى الوقت الذى لا زالت العمليات الكيميائية والبيولوجية التى تؤثر على زيادة الانتاج غير واضحة الى الحد الكافى .

ما الذى يمنع العلماء والباحثين فى المستقبل من خلق عشرات الأجنة المتماثلة وربما المئات والآلاف ، وتربيتهم بطريقة الشريط المتحرك مثل موديلات السيارات أو الكاميرات أو المخارط ؟ لا داعى للتحليق أكثر على أجنحة الخيال ، لندرك حجم القوة الضخمة التى تحت تصرف علم الأجنة والتى تستطيع تغيير التكوين الاجتماعى بأكمله بل وكل صور المجتمع الانسانى تغييرا رائعا .

اذا لم نكبح هذه القوة قبل فوات الأوان ، واذا انتقلت هذه الخبرة والمعلومات كالخبرة النووية من أيدى العلماء الى أيدى القادة السياسيين أو قادة الجيش بحجة خير الدولة والأمة ، فان هؤلاء القادة سوف يستطيعون فى المستقبل خلق أشخاص كما تنتج الدولة حاليا المحصولات الزراعية ، ويستطيعون مضاعفة السكان مرتين أو ثلاثة بخلق أشخاص بطريقة الشريط المتحرك ، ومعامل التفريخ وجعل دولتهم مسكن نمل انسانى ، واذا لم تكبح هذه القوة سوف يستطيعون تحت شعار مثل أعلى معين أن يغرقوا أعداءهم بهذه المخلوقات الانسانية التى يتحكم صانعها فى أجسامها وخصائصها

وطابعها ، فى حين أن صانعيها هم جماعة من الحكام تحتفظ لنفسها بكل حقوق الخالق .

وهنا يكمن خطر لا تقل فظائعه عن الأسلحة غير التقليدية يهدد البيئة بالدمار .

وفى الختام فان قوى التدمير الثلاثة هذه موجودة فى وسطنا وحولنا (ان خطر الأسلحة غير التقليدية محسوس ، وهى وحدها التى تشعر الانسانية حاليا بفظائعها فى حين لا تزال الأخريان فى مهدهما) ، وهى مترابطة الواحدة منها بالأخرى ، ويغذى الواحد منها الآخر . ان الغبار الذرى للأسلحة النووية أو للمفاعلات النووية المدنية هو مادة تلوث ذات قوة ضخمة ، ونجد أن الانفجار السكانى عن طريق التناسل الطبيعى أو بالطرق الصناعية سوف يؤدى الى استخدام الأسلحة غير التقليدية ، وسوف يؤدى الانفجار السكانى أيضا الى المغالاة فى انشاء المدن ، واقامة مدن ضخمة تضم عشرات الملايين من السكان الذين سيعملون من ناحيتهم على تدمير البيئة .

كيف تستطيع الانسانية أن تحمى نفسها من هذا الخطر على وجودها ، وما السد الذى تقيمه لوقف الطوفان الذى سيجتاح العالم ؟ وأى تحد تضعه أمام قادتها لكى يصمدوا أمامه ويحافظوا على أبسط الأمور ؟ وهو حقها فى الوجود ، ووجود الحياة عامة على سطح الكرة الأرضية . أم أن الانسانية بعد بضعة ملايين السنين من الوجود وبضعة آلاف السنين من الحضارة لم تعد تنبض فيها الرغبة فى الحياة ؟

لا تقتل !

ظلت الأديان الكبرى تفخر عدة أجيال بأنها هى التى تمنع ابادة الأفراد والجماعات والشعوب ، ولكنا لا نجد أن الأديان كلها ولا فى جميع مراحل تطورها قد نجحت فى هذا الامتحان . ونجد الدين اليهودى يتأرجح بين اتجاه " رب الجيوش قائد الحرب " واتجاه " ولا يرفع أمة على أمة سيفا ، ولا يتعلمون الحرب " والمسيحية كانت فى البداية تدعو للتسامح والمحبة والعطف على أى مخلوق انسانى ، وسرعان ما انقلب الى دين شنت باسمه أفظع الحروب فى تاريخ الانسانية . كما نجد أن المسلمين نسوا آيات التسامح والعفو الواردة فى القرآن ، واتخذوا اتجاه " دين محمد ينتشر بالسيف " وحروب الجهاد كما أن دين بوذا الذى يعزو أهمية صغرى للجسم والمادية ينقلب فى عهود مختلفة الى دين همجى ظالم .

لكن رغم ما منيت به الانسانية من خيبة أمل فى الأديان العالمية الكبرى ، فان

هذه الأديان هى التى وصمت جبين القاتل بوصمة قابيل فى عصورها المبكرة ، وهى التى صرخت لا تقتل ! وهى التى وقف مؤسسوها على طبيعة الانسان وغرائزه الهمجية وحاول كل واحد منهم بطريقته أن يضع لها حواجز وضوابط ، ولكنهم لم ينجحوا الا فى فترات معينة .

فى الأجيال المتأخرة نهض للأديان منافسون فى شكل أيديولوجيات عالمية ادعت أنها حلت مشكلات الانسان والانسانية ، وكونت الاشتراكية والشيوعية بألوانهما المختلفة حركات اجتماعية من أجل هذه المثل العليا ، ولكن الشيوعية وحدها هى التى ترى فى الثورة الدائمة وحرب الطبقات المستمرة ، واتخذت من العالم الذى نادى به دعاة الاشتراكية وسيلة للاحتلال والقتل الجماعى ، ورأينا كيف أسئ استغلال اسم الاشتراكية والشيوعية ، وكيف أن جميع الدكتاتوريات فى تاريخ الأجيال الحديثة اتخذت لنفسها هذه المثل العليا وهذه الأسماء ، تستخدمها حسب هواها ولأهدافها .

حاولت الانسانية فى السنوات الخمسين الأخيرة أن تسلك طريقا جديدة لكبح غريزة الحرب ، فقد أدرك قادة الدول الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى التى خسرت الانسانية فيها عشرات الملايين من الضحايا أنه يجب تكوين هيئات يكون أول أهدافها وأهمها منع الحروب ، وكانت عصبة الأمم أول هيئة دولية من هذا النوع . وكانت ضعيفة منذ تكوينها وأصيبت بأمراض الطفولة ، واستولت عليها المخاوف ، ولم تنضم بعض الدول الكبرى وعلى رأسها أمريكا الى هذه المنظمة الضعيفة ، ولم تمنحه من قوتها ، ولم تعرها الثورة البلشفية أى أهمية ، وركلتها بقسوة الفاشية الايطالية والنازية الألمانية والامبريالية اليابانية ، ولدى نشوب الحرب العالمية الثانية تهشمت الى شظايا .

كانت هذه الحرب العالمية أكثر شمولا من سابقتها ، فقد فاقتها فى فظائعها لانعدام الضوابط فى ابادة السكان المدنيين (كارثة يهود أوروبا) وكذلك لانها انتهت فى ظل القنابل الذرية الأولى التى ألقيت على هيروشيما ونجازاكى وأدت هذه الحرب الى تكوين منظمة الأمم المتحدة والتى مضى على انشائها أكثر من خمسين عاما .
هذه المنظمة هى أعظم وأشمل منظمة على الاطلاق كونتها الانسانية لمعالجة مشكلاتها لها وكالات وهيئات لمعالجة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية على المستوى العالمى مثل منظمة التغذية والزراعة ، ومنظمة العمل الدولية ، ومنظمة الصحة وغيرها ، ولا يمكن الاستهانة بالأعمال التى تقوم بها هذه الهيئات والأمم المتحدة عامة رغم المصاعب الضخمة . وقد وجدنا معشر الاسرائيليين فى الأمم المتحدة وهى فى بداية عهدها

الهيئة التى منحت دولتنا الاعتراف الدولى ، وانضمت للأمم المتحدة عشرات الدول التى قامت بعد الحرب العالمية الثانية كدول مستقلة ، ورأوا فى هذا رمزا للانتماء الى أسرة الدول الشعوب .

لكن الأمم المتحدة أخذت تتحول أكثر وأكثر الى هيئة لا تشبه على الاطلاق ، لما كان يبغى مؤسسوها أن يبوها عليه ، أولا لانها ليست حاكمة ، وليس لها أى نفوذ فى الموضوع الرئيسى وأعظم خطر وهو الأسلحة غير التقليدية ، واستخدامها ، وهذه الأسلحة فى حوزة الدول العظمى وانضمت اليها بعض الدول ، وهذه الأسلحة هى التى تحدد حاليا مصير الانسانية ، وليس للأمم المتحدة أى شأن فى هذا ، كما أن نظامها الذى يقضى بأن يكون لأمريكا صوت واحد فى الجمعية العامة ، وكذلك للاتحاد السوفيتى وكذلك صوت واحد لماوريشسيوس وسيراليون هو نظام غير معقول ومضحك ، ويجعل منها ناديا لبيع وشراء الأصوات ، وتكوين كتل مصطنعة ، تقاس قوتها بعدد الأصوات التى تستطيع جمعها بهذه الطريقة فى الموضوعات ذات الأهمية الدولية .

هناك حقيقة أخرى تعمل على اضعاف الأمم المتحدة ، وهى أننا وقد وصلنا الى أوائل السبعينات لا زلنا نرى بعض الدول غير ممثلة فيها ولم تنضم اليها الصين الا بعد عشرين سنة وأكثر ، وكذلك سائر الدول الممزقة والمقسمة (كوريا الجنوبية والشمالية ودول الهند الصينية وغيرها) أو التى تكافح فى سبيل التحرر القومى (موزمبيق وأنجولا وغيرهما) .

كما أن الدول الكبرى والصغرى على السواء لا زالت تضع نصب أعينها مصالحها الخاصة ، وليس لديها استعداد للتنازل عنها لخير الانسانية عامة ، ونجد أن التعصب والقومية وغريزة الحرب التى تعتلج فيها لا زالت قوية فيها الى حد أن الأمم المتحدة لا زالت أبعد ما تكون عن أن تشكل مؤسسة عالمية تستطيع أن تقف سدا أمام الانحدار الى الهاوية .

على ضوء التوقعات

اتحاد الدول

أصبح أمل الانسانية فى أن يكثر خلال العقد القادم عدد زعماء الشعوب والدول الذين يقفون على ضخامة الخطر الذى يتهدد العالم ، ويحتمل أنه بعد دخول الصين الأمم المتحدة وانضمام المانيا الغربية والمانيا الشرقية ، وتغيير كادر الأمم المتحدة وتقييم القوى التى تعمل فيها تقييما سليما بغير القياس الحالى بمنح صوت واحد لكل دولة ، تصبح الأمم المتحدة أكثر فاعلية ، وعنصر ضبط وردع كما تصبح قادرة على منع انتحار الانسانية انتحارا جماعيا .

اذا كتب للانسانية الحياة والنجاة ، فسوف يكون هذا بطريقة أخرى ولا يتحتم أن تتعارض مع وجود الأمم المتحدة وهى طريقة تكوين كتل كبيرة من الشعوب والمجتمعات والدول وايجاد دول اتحادية أو اتحاد دول على أساس عضوى وتكتلى ، وتتحمل الدول الاتحادية عبء دولها ، والتعاون عبء العالم كله . وهذه التكتلات الضخمة كان لها سوابق فى الماضى ، هى الامبراطوريات القوية التى قامت فى مصر وروسيا واليونان والرومان والصين ، وأسبانيا والبرتغال وبريطانيا وروسيا وفرنسا وامبراطورية العبرانيين وغيرها . ترجع بداية هذه الامبراطوريات وسبب وجودها الى الرغبة فى الحروب والاستعباد والتطلع للاحتلال والسيطرة ، ولكنها خلفت وراءها آثار البناء والحضارة ، والاستقرار والسلام النسبى ، وحققت المصالح المشتركة بين التكتلات البشرية الكبرى التى يختلف الواحد منها عن الآخر ، وقد فرضت بالقوة وفى وحشية قوانين موحدة أدت الى أن أصبحت معظم الانسانية تتكلم الآن عددا محدودا من اللغات لا تزيد عن ست لغات ، وأصبح بعضها عالميا ، وصارت وسيلة فعالة للتأثير المتبادل .

لو استطاعت الانسانية حتى نهاية هذا القرن ، ازاء الكارثة التى تلوح فى الأفق أن تكون عدة تكتلات من الدول الاتحادية التى تصير مراكز جاذبية لمئات الملايين من الأشخاص، ولها حقوق ومزايا الامبراطوريات دون واجباتها وعيوبها ، لأصبحت مرفأ النجاة للانسانية ، فان الطريق الوحيد المفتوح أمام الجنس البشرى للاستمرار فى الوجود وليجد طعاما لحياته واستمرارها فى القرن الواحد والعشرين هو تكوين " اتحاد دول العالم " أو حكومة عالمية ، وهذه الحكومة أو هذا الاتحاد هو الحلم المنتظر . ويبدو

أن الانسانية اذا كانت تبغى الحياة ، فليس أمامها الا هذا الطريق ، وفعلا يمكننا أن نرى البوادر الأولى للاتجاهات الدولية والعالمية التى تعلو على القومية والوطنية .

ما اتحاد الدول ؟ انه ليس الا نضوج عضوى لدول قائمة تشترك فى مقومات عديدة جغرافية ولغوية واجتماعية واقتصادية وغير ذلك . توكل اليها مسئوليات جسام بسبب ضخامة حجمها واشتمالها على مئات الملايين من السكان ، فتستطيع أن تنهض بما لا يعهد بها الى دولة صغيرة سواء أكانت قوية أم ضعيفة .

وقد قامت — أو على وشك أن تقوم طبقا لهذه المعايير — دول اتحادية كالصين التى تمثل بسكانها الذين يبلغون ٧٠٠ مليون نسمة ضخامتها الديموجرافية والاقتصادية والعلمية تمثل أبرز نموذج لذلك ، وتتلوها الولايات المتحدة الأمريكية بسكانها الذين يبلغون ٢٠٠ مليون نسمة ، وهى تجربة انسانية ضخمة عظيمة رغم المشكلات الخطيرة ومثلها الاتحاد السوفيتى بسكانه البالغ عددهم ٢٥٠ مليون نسمة ، وكتلة دول السوق الأوروبية الثلاث عشرة البالغ عدد سكانها ٣٠٠ مليون نسمة والتى تتشكل نصب أعيننا وكذلك اليابان بسكانها المائة المليون ، وهكذا اذا استمر هذا الاتجاه نحو التكتلات الكبرى العضوية ويتغلب على اتجاه الاستعمار الجديد ويتغلب على الروح الانفصالية والقومية لدى الأمم التى حصل معظمها على استقلاله السياسى ، فسوف تقوم فى العالم تسع دول اتحادية تتحمل كل منها مسئوليات مئات الملايين من السكان ، وتحاول جميعا معالجة الموضوعات العالمية المشتركة .

هذه العملية يمكن أن تتبلور حتى نهاية هذا القرن على النحو التالى :

١ — اتحاد دول (أو ولايات) أمريكا الشمالية — وتشمل الولايات المتحدة وكندا ويبلغ مجموع سكانه حوالى ٣٠٠ مليون شخص، ويكون هذا اتحاد دول صناعية وصناعية متقدمة .

٢ — اتحاد دول أمريكا اللاتينية ويشمل كل دول أمريكا الجنوبية والوسطى بما فى ذلك المكسيك ، ويبلغ عدد سكانه حوالى ٣٠٠ مليون نسمة ، ويكون فى مراحل مختلفة من التنمية الصناعية .

٣ — اتحاد دول غرب أوروبا — ويشمل جميع دول غرب أوروبا ، ويبلغ عدد سكانه حوالى ٤٠٠ مليون شخص ويتألف من دول صناعية ، وصناعية متقدمة .

٤ — اتحاد دول الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ،ويشمل الاتحاد السوفيتى ودول

أوروبا الشرقية ويبلغ عدد سكانه حوالي ٤٠٠ مليون نسمة ، ويشمل أيضا دولا صناعية وصناعية متقدمة .

٥- اتحاد دول الصين — ويشمل الصين وبعض الدول المجاورة لها ، ويبلغ عدد سكانه حوالي ألف مليون شخص ويكون في حالة انتقال سريع للصناعة .

٦- اتحاد دول اليابان وجنوب شرق آسيا — ويشمل اليابان وأندونيسيا وبعض الدول الأخرى في جنوب شرق آسيا وجزر المحيط الهادي ، ويشمل حوالي ٤٠٠ مليون من السكان ، وتكون اليابان دولة صناعية وصناعية متقدمة والباقي في حالة انتقال الى التصنيع .

٧- اتحاد دول شبه القارة الهندية — ويشمل الهند والباكستان والبنغال وبعض الدول الأخرى ، ويبلغ عدد سكانه حوالي ٨٠٠ مليون شخص ، ويكون في حالة انتقال للتصنيع .

٨- اتحاد دول الشرق الأوسط — ويشمل دول شمال افريقية ، وشرق البحر المتوسط وشبه الجزيرة العربية وايران والخليج العربي ، ويبلغ عدد سكانه حوالي ٢٠٠ مليون نسمة ويكون في حالة انتقال للتصنيع .

٩- اتحاد الدول الأفريقية — ويشمل كل الدول الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى ، ويبلغ عدد سكانه حوالي ٣٠٠ مليون نسمة ويكون في حالة انتقال للتصنيع .

[illegible] حاليا من حوالي ١٦٠ دولة يبلغ عدد سكانها حوالي [illegible] [illegible] هذه الدول ، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة [illegible] وتتعدد القبائل ، وتتعدد الأجناس [illegible] (ونحن نعتبر [illegible] أم العالم) يجب [illegible] بأن تتكتل في وحدات [illegible] الدولة ، دون ازالة [illegible] .

[illegible]

الدول ليست كبيرة حاليا) ، ودول يسيطر عليها حكم عسكري .

ويمكن أيضا أن نقسم الدول طبقا لوضعها الاقتصادي والاجتماعي الى دول متطورة ، أي دول صناعية تعيش معظم سكانها في المدن ، ودول في حالة انتقال للتصنيع والتحضر بصورة أو أخرى ، ومعظم أهلها قرويون ويعيشون على الزراعة .

ولكن مهما كان نوع الحكم والتشكيل الاجتماعي في هذه الدول ، فلن يجنب ذلك الانسانية بكل أنظمة الحكم فيها خطر الفوضى ، اذا لم تتغلب فيها غريزة البقاء والمحافظة على الذات . واذا لم ينر الانسانية نبراس أمامها تسير على هديه سوف تنزلق الى كهف مظلم وتضيع هناك في داخله .

ان التخطيط الذي وصفناه عاليه والذي ينص على قيام تسعة تشكيلات تفوق الدولة على شكل اتحاد دول تخطيط ناقص شأن أي تخطيط ينطوي على التعميم وأساسه هو القرب الجغرافي بين الدول المختلفة — الداخلة في الاتحاد . حقا انه في أواخر القرن سوف تقصر المسافات ، وسوف تصبح الطائرات التي تفوق سرعتها سرعة الصوت والصواريخ وسائل انتقال عادية بين الناس ، ولكن سيظل الجوار الجغرافي هو الذي يحدد علاقات القربى وتنجذب الى الصين الدول المحيطة بها ، وكذلك تنجذب للاتحاد السوفيتي وغرب أوروبا الدول الواقعة في المناطق القريبة منها . ان هذا التخطيط أيضا يتيح أن تدخل في هذه الكتل الدول القريبة الواحدة منها للأخرى في الأصل واللغة ، والى حد ما من ناحية نظام الحكم فيها .

هناك اختلاف كبير بين قوة الجذب الاقتصادي والعسكري والثقافي والاجتماعي في أي واحد من اتحادات الدول التي ذكرناها فنجد على وجه التعميم أن الاتحادات الشمالية صناعية وقوية جدا ، في حين أن الجنوبية ، على وجه العموم لا زالت في مرحلة الانتقال أو في بداية التصنيع ، ولا زالت ضعيفة جدا ، ولكن هذا الاختلاف لا ينال من صحة فكرة هذه التكتلات كبديل حتمي للفوضى التي تسود العالم حاليا .

ان تحقيق هذه الفكرة والسير في هذا الاتجاه يتطلب من الدول التضحية بالكثير من مصالحها ، كما نشاهد حاليا في عملية الولادة العسيرة لاتحاد دول غرب أوروبا التي استغرقت وقتا طويلا ، ولكن هذا المثال نفسه يثبت لنا بمقدار القوة الكبرى التي ستتركز في أيدي الدول المتفرقة الداخلة في هذا الاتحاد .

ان عملية تكوين " اتحاد دول " هى عملية بطيئة وتستغرق وقتا طويلا ، وهى تختلف بالتأكيد من اتحاد لآخر . ولكن المشكلة هى : " أتسير الانسانية فى هذا الطريق أم أن الدولتين العظميين سوف تتنافسان فيما بينهما بصورة جامحة للسيطرة على العالم كله " ، وتنضم الصين واليابان وأوروبا الغربية هى أيضا لحلبة هذا التنافس الجامح .

وستكون المهمة الرئيسية لاتحاد الاتحادات معالجة الأمور الثلاثة التى تحدثنا عنها فى فاتحة الكتاب ، وهى تجنب الحرب ، وتلويث البيئة ، والانفجار السكانى ، وهى قوى الدمار الثلاثة التى تهدد الانسانية ، وستكون مهمة اتحاد الاتحادات المحافظة على الانسانية . ويجلس الى جانب الساسة فى هذا المجلس كمستشارين مندوبون أخر عن الاتحادات بالانتخاب أو يعينون بالموافقة العامة وأقصد ممثلى الأديان الكبرى التى لا زال لها نفوذ كبير على مئات الملايين من الأشخاص ، وربما زاد أيضا فى المستقبل بسبب المخاوف وانعدام الأمن فى العالم مع التكنولوجيا ، ويجلس أيضا فى هذا المجلس كمستشارين للاتحادات كبار رجال الفكر والفلسفة والعلوم ، ولا سيما رجال العلوم المتصلة بالأمور الثلاثة التى ذكرناها .

اذا نجحت الانسانية فى الخلاص من الرمال المتحركة التى انزلقت اليها ، واذا احتفظت بروحها وقوتها وأنشأت مؤسسة عليا سياسية وأدبية وعلمية تسير بمعونتها على أرض آمنة ، فان هناك أملا فى أن تعبر البشرية أبواب القرن الواحد والعشرين وليس حطام البشرية .

يحتمل أن يأتى الحل من مكان واتجاه آخر . فيحتمل أن تشق الصين أو الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة أو أيضا مستقبلا مجموعة أخرى من الدول تشق طريقها فى أحد هذه المجالات الثلاثة قبل غيرها ، وتسيطر دون حرب بل بمجرد التهديد على الكرة الأرضية كلها وتنشر فى ربوعها سلاما عالميا ، كما فعل الامبراطور أغسطس حين نشر السلام الرومانى فى أنحاء الامبراطورية وهذا احتمال معقول ، ولكنا نجد أن الأمم المتحدة ضعيفة والدول الكبرى تتنافس فى انتاج الأسلحة غير التقليدية والتوسع والسيطرة على المناطق الضعيفة الحساسة خارج حدودها ، كما أنه ليس هناك اشراف عالمى على البيئة الانسانية ، وليست هناك رقابة على زيادة السكان ، وقد تلحق هذه الحالة عن قصد أو غير قصد بالانسانية كارثة عالمية لا يمكن تجنبها .

الشيوعية والرأسمالية ، والاشتراكية الانسانية

اذا قامت اتحادات دول بطريقة أو أخرى وأنشئت مؤسسة عليا مشتركة منها جميعا فسوف تتنافس فى هذه الاتحادات فى المستقبل القريب أيديولوجيات اجتماعية وسياسية واذا استثنينا من الايديولوجيات حكم الهيئات العسكرية (الذى نجده فى أمريكا الجنوبية وأفريقيا) وكذلك بعض الدول التى لا زالت ترزح تحت عبء الملكية ، فاننا نجد أن العالم يسوده حاليا ثلاثة طرق أو ايديولوجيات — مع اختلاف فى الشكل والموضوع وهى : الشيوعية (السوفيتية والصينية والألوان الأخرى) والرأسمالية (الأمريكية وغيرها) والاشتراكية .

ويبدو حاليا أن الشيوعية هى أكثر هذه الثلاثة عدوانا ، وهى تقوم على أساس عقيدة عامة تتضمن الردود على كافة الأسئلة ومسائل الحياة ، وهذه الردود مدعمة بالأسانيد الماركسية اللينينية أو الماركسية اللينينية الماوية الى آخر هذه الأسانيد وفى عصرنا تدعى هذه الأيديولوجية أنها صاحبة رسالة ولها هدف عالمى تسعى لتحرير الدول من نير الاستعمار الاستغلالى . والديموقراطية الاشتراكية المتعفنة ، وتسليم مقاليد الحكم للطبقة الكادحة من العمال والفلاحين ، ولكن كل من يتابع ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى بعد أكثر من خمسين سنة من قيام الحكم الشيوعى ، بل وفى الصين التى تسودها الشيوعية منذ أكثر من عشرين سنة ، يدرك أنه رغم كل المنجزات الضخمة التى حققتها هاتان الدولتان فى عديد من مجالات الحياة نتيجة للثورة الشيوعية ، فان الأيديولوجية الشيوعية لا تستطيع أن تفى باحتياجات المجتمع والانسان فيها ، فان نظام الحكم الشيوعى الذى يتميز بالصرامة والقسوة لا يتيح له أن يلحق بالثورة الحقيقية التى تجتاح العالم — وهى الثورة العلمية والتكنولوجية .

ان الماركسية لا تستطيع أن تدلى برأيها فى المشكلات الانسانية التى ظهرت فى أنحاء العالم على اثر الثورة التكنولوجية ، ولا فى مشكلات الأسلحة الشاملة ولا فى مشكلات تلويث البيئة ولا فى مشكلات السكان ، وليس لدى الشيوعية اليوم رد على هذه المشكلات وهى تقف أمامها حائرة مرتبكة .

والأدهى من هذا أنه ليس لدى الثورة الشيوعية التى قامت فى دولتين من أكبر الدول وفى مجتمعين من أكبر المجتمعات فى العالم فى الاتحاد السوفيتى والصين

ونظام الحكم ذو الحزب الواحد الذى قام فيهما – أى رد على كثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية فيهما ، ونظام الحكم الشيوعى السوفيتى هو مثل حى على أن هذه الطريقة لا تلائم الاقتصاد والتكنولوجيا العصرية والانسان العصرى الا اذا ادخلت عليها تغييرات من وقت لآخر ، ونجد أن الصينيين على حق اذ ينادون باصلاح الشيوعية السوفيتية ، والاتحاد السوفيتى مثل لما يحدث فى المجتمع الذى لا يقدم حوافز للفرد الذى يعيش فيه ، حيث تتفشى فيه عدم الكفاءة ، ولا يستطيع أن ينافس نظام حكم يقوم على حرية الفرد ولو كانت جزئية . وأهم ما يعنينا أنه رغم كل هذا فان ارتفاع مستوى معيشة السكان يغير بين الحين والآخر – رغم ارادة الايديولوجية – الاتجاه ويصبح تدريجيا ، ولكن فى ثقة وقوة لا يمكن التصدى لهما الا بصورة أحسن رقة وأقل تناسقا ، وأكثر انسانية ، وبايجاز أقرب لنظام الحكم الديموقراطى الاشتراكى المتعفن . والواقع أن الطريق من الشيوعية السوفيتية للاشتراكية الانسانية فى غرب أوروبا طويلة جدا ومليئة بالألغام والمتاعب ولكنها طريق مضمونة وغايته واضحة .

أما الصين التى لا زالت الشيوعية فيها أكثر شبابا والتشكيل الاجتماعى يختلف فى طابعه عن السوفيتى الأوروبى فى أساسه ، فلا تبدو فى الأفق بوادر التراخى والاصلاح ولكن هناك أيضا نجد أن " الثورة الثقافية " لم تكن الا علاجا للانحرافات عن الشكل التقليدى للشيوعية الذى يقوم على أسس الثورة الدائمة ، ولكن من المعتقد أنه خلال عقد من الزمان أو بضع سنوات عندما تصل الصين الى مستوى معيشة مناسب ، وفى هذا دون شك تحقيق غاية عظيمة للشيوعية ، سنجد أن الصين تتحرر هى الأخرى تدريجيا من الصرامة الأيديولوجية القاطعة ذات الاتجاه الواحد وتسير فى الطريق السوفيتى ، أو فى طريق تختطه لنفسها فى اتجاه الاشتراكية المعتدلة .

من المعروف أن خير سلعة يصدرها الاتحاد السوفيتى والصين هى الشيوعية التى يصدرانها الى دول أمريكا اللاتينية وأفريقية وبعض دول الشرق الأوسط ، وآسيا ويحتمل أن بعض هذه الدول تجتاز مرحلة الشيوعية الصارمة بأسلوب الاتحاد السوفيتى أو الصين قبل أن تسير فى طريق الاعتدال المؤدية الى الاشتراكية المعتدلة .

وكذلك نجد أن الرأسمالية الأمريكية والأوروبية ، رغم انجازاتهما الضخمة فى رفع مستوى معيشة السكان لم تستطع أن تجارى الثورة التكنولوجية ، ومشكلاتها الاجتماعية . لا داعى للتعمق فى هذا الموضوع ، ويكفى أن نرى كيف تصارع الولايات المتحدة تحديات التكنولوجيا والمشكلات المتصلة بها ، ولا تكاد تقف على قدميها الا بشق الأنفس، سواء

أكان ذلك فى المشكلات العنصرية أم الدينية أم السيكلوجية أم الطبقية أم غيرها ، وسوف نرى أن الساسة والفلاسفة الأمريكيين سيكونون أول من يعترف بأنه ليس لدى الرأسمالية التقليدية رد على مشكلات نهاية هذا القرن ومن الواضح أن الرأسمالية المتزمتة التى تقوم على أساس قانون العرض والطلب والسوق فوق كل شئ ، قد أفلست وأخذت تتغير وتعتدل نتيجة تدخل الحكومات فى العمليات المركزية فى الحياة ، والتخطيط المركزى الحكومى لمنع الأزمات الرأسمالية من أن تضر السكان ضررا بالغا .

يمكن أن نميز فى الرأسمالية الأمريكية والأوروبية دلائل تقارب للاشتراكية الانسانية ومهما كانت الطريق طويلة ، ومهما رفض النظام الرأسمالى فى أمريكا الاعتراف بأنه يسير نحو الاعتدال – فان الغاية واضحة ، وان كانت العملية سوف تستغرق عشرات السنين

ما هى الاشتراكية الانسانية والاشتراكية الديموقراطية ؟ لقد اتخذت الاشتراكية الديموقراطية (أو الاشتراكية البرلمانية الانسانية) شعارا لها فى القرن التاسع عشر هو التغييرات الاجتماعية لصالح العمال والطبقات المستضعفة فى المجتمع ، مع التأكيد بأن هذه التغييرات لن تكون عن طريق الثورات العنيفة وحرب الطبقات ودكتاتورية البروليتاريا ، بل عن طريق النضال الديموقراطى البرلمانى وبطريق التطور . وظلت هذه الطريقة مضطهدة سنين طويلة ترمى بأنها غير متماسكة ، وبأنها تعانى من الأنيميا الأيديولوجية ، وقد انهالت الشيوعية الثورية على الايديولوجية الاشتراكية .

ورغم ذلك فانه بالنضال البطئ فى البرلمانات وبالتوافق المستمر مع الواقع والرضا بالقليل نجحت طريقة الاشتراكية بعد نضال عشرات السنين فى دول عديدة فى غرب أوروبا ووصل الاشتراكيون الى الحكم فى بعضها .

نجح الاشتراكيون فى أن يغيروا شكل الحياة الى الأفضل فى بعض الدول التى وصلوا فيها الى الحكم ، وذلك دون عنف أو سفك دماء كما حدث مع الشيوعية ، ولا شك أن الاشتراكية الديموقراطية والأحزاب العمالية حققت بعض مبادئها فى غرب أوروبا من التأمين الاجتماعى والخدمات الاجتماعية وحرية الاضراب ، وتنظيم العاملين فى نقابات مهنية حرة .

ان تأميم الحكومات للخدمات الحيوية وموارد الطاقة أو على الأقل الاشراف عليها والتأمين الصحى والتأمين لسن الشيخوخة والتأمين ضد البطالة . أصبحت جميعا اليوم

فان الأحزاب المحافظة من المسلمات فى كثير من الدول بما فيها الدول الرأسمالية ، والمتحررة قد اعتنقت - راضية أو مكرهة أو بتأثير الاشتراكيين الذين وصلوا للحكم - قسما كبيرا من هذه المبادىء ، وبعد أن انشقت عليها الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية لم تعد تستطيع أن ترجع عجلة التاريخ للخلف . الى بداية السبعينات سيطرت الشيوعية بالدم والنار على حوالى ثلث سكان العالم ، وكان الثمن الذى دفعه الاشتراكيون الديموقراطيون للوصول الى ما وصلوا اليه فادحا - بضحايا من البشر والارهاب والدكتاتورية وقمع حرية الفرد ، وفى أوائل السبعينات أثبتت الرأسمالية ، ويعترف أشياعها بذلك - أنه ليس فى استطاعتها الرد على مشكلات المجتمع الحديث ، والتصدى لتحديات الثورة التكنولوجية ، ومشكلات المدن ، والحشود البشرية الضخمة ، وكذلك مشكلة الدول المتخلفة ، فى حين تصدت لها الطريقة الاشتراكية الانسانية ، الاشتراكية الديموقراطية بقامة منتصبة حقا انها لم تحل جميع المشكلات ، وليس لها نمط عام يسير عليه الانسان وتسير عليه الدولة فى كل حالة ، ولكن برجماسية هذه الطريقة ، قد أثبتت وجودها فى معظم الحالات . فان مرونة الاشتراكية الانسانية وانعدام المسلمات عندها يعد مكسبا فى حد ذاته ، كما أنهما سيجعلانها تتمسك فى المستقبل بقيمها ، وأن تكيف نفسها مع الواقع المتغير فى العالم ، ومع الأوضاع المتغيرة بين دولة وأخرى .

ان الاشتراكية تستطيع أن تفخر بانجازاتها فى أنحاء مختلفة من العالم ولا سيما فى الدول الاسكندنافية ، والتى تعتبر نموذجا حقا وان لم يكن كاملا ولكنه قريب من الكمال لنظام الحكم الذى استطاع الانسان أن يصل اليه فى عالمنا المعقد ، من ناحية العدالة الاجتماعية والمساواة الاجتماعية وأمن الفرد وأمن الضعيف ، وتستطيع أن تفخر ببريطانيا التى ترك فيها حزب العمال طابعا قويا ، وقد أخذت الاشتراكية الانسانية فى السنوات الأخيرة ترسخ فى دول عديدة أخرى فى أوروبا (هولندة وبلجيكا وألمانيا الغربية وايطاليا والنمسا وسويسرا ودول أخرى) . وكذلك فى اليابان واستراليا ونيوزيلندا ، وكذلك التجربة الرائعة للاشتراكية والفريدة من نوعها فى اسرائيل ، ويحق للاشتراكيين أن يصفوا طريقهم بأنه الطريق السوى لخلاص الانسانية .

ان الاشتراكية الانسانية والاشتراكية الديموقراطية لم تجدا طريقهما للدول الحديثة والنامية ، وأن كثيرا منها تتخذ اسم الاشتراكية كمجرد شعار وتعمية لأنظمة حكم دكتاتورية وعسكرية ، ونجد أن كثيرا منها تجذبه الشيوعية العدوانية كأقصر طريق لحل مشكلاتها كلها المتقدة والظلم الفادح الذى يسودها . وأن كثيرا من الدول

ولا سيما فى القسم الجنوبى والمتخلف من العالم لم تنضج بعد لنظام الحكم البرلمانى الديموقراطى فنجدها اما ممزقة فى الداخل للحروب القبلية ، أو واقعة فى قبضة رجال الجيش ، ومن ناحية أخرى نجد أن الدول التى رسخت فيها الشيوعية وكذلك بعض الدول الرأسمالية قد بدأت فيها عملية خفية للتحول نحو النظام الاشتراكى الديمقراطى .

ماذا كان يريد دوبتشيك وزملاؤه فى براغ ، وماذا يبغى الكثيرون من الشيوعيين الشبان من بين الصفوة الفكرية ، والشباب فى بولندا والمجر ، والديموقراطيون الذين يعملون سرا فى الاتحاد السوفيتى ؟ هل يتطلعون لثورة مضادة ، ويبغون تغيير النظام الشيوعى الذين يعيشون فى ظله ويدركون عيوبه الضخمة ثم ينشئون نظاما رأسماليا ؟ ليس هذا ما يبغونه تماما . انهم يتطلعون للوصول فى نهاية الأمر لحالة مشابهة للحالة فى الدول الاشتراكية الديموقراطية أى لتعدد نواحى الاقتصاد ، مع ترك مجالات الانتاج ومصادر الطاقة الرئيسية فى أيدى الجماهير ، وتخطيط الاقتصاد دون تركيز مطلق كالمتبع فى نظام الحكم الشيوعى ، وتكوين نقابات مهنية حرة ، وذات قدرة على المناورة وعلى الاضراب ، ورفع مستوى معيشة السكان . فان التكنولوجيا العصرية قد غيرت تماما مفاهيم الماركسية العادية فى تقسيم المجتمع الانسانى لطبقات . فان هؤلاء الشبان يتطلعون الى الوصول الى طريقة برلمانية متعددة الأحزاب تتنافس فيها الأحزاب على أصوات الناخبين مع التمسك بقواعد الديموقراطية والى احتمال احداث تغيير فى الحكم دون سفك دماء ، أو الاطاحة بأشخاص ، وبايجاز يتطلعون الى نظام شبه اشتراكى ديموقراطى . ولا يهم على الاطلاق اذا أطلق هؤلاء الديموقراطيون الجدد على أنفسهم فى الاتحاد السوفيتى وفى دول شيوعية أخرى (وعلى مر الزمن فى الصين أيضا) اسم الشيوعيين الأحرار أو الشيوعيين الديموقراطيين ، أو الشيوعيين القوميين انها مجرد تسميات فحسب . والمهم هنا هو الى أى المفاهيم يتطلعون والى أى القيم وأشكال الحكم الاجتماعى ؟

ان المنادين بادخال تغييرات على الشيوعية البالية والبربرية قد تلقوا فى السنوات الأخيرة ضربات قاسية ومريرة ويبدو أنهم تلقوا ضربات مميتة ، ويبدو أن الستالينية الجديدة قد رفعت رأسها من جديد .

ولكن اذا كان هناك أمل أمام الانسانية ، واذا لم تدمر نفسها فى الجيل بالحروب والتخريب (مما لا مجال بعده لأى طريقة ولأى نظام اجتماعى) فان الشيوعية الجديدة المتحررة أو لنسمها الشيوعية الاشتراكية الديموقراطية سوف تغزو قلوب الجيل الشاب .

ولن يستطيع منازلة الثورة التكنولوجية وغرائز الانسان ويحتفظ بقيمه فى نفس الوقت الا من كان مرنا ويرضى بالحلول الوسط .

اليسار الجديد بأنواعه

لقد نادت الدول الرأسمالية فى أيام ازدهار الرأسمالية بمبدأ التحرر الاقتصادى وآمنت بقوة المادية والتمويل وقاومت تخطيط الحكومة والشعب وتدخلهما فى الحياة الاقتصادية ، ووقعت فريسة لقوى غير ناضجة وبربرية فى وسطها ، وألقت هذه القوى بالضعاف خارج عجلة الانتاج .

عندما سارت الولايات المتحدة فى هذا الطريق وصلت الى حافة الهاوية ، وقام ضد الرأسمالية الأمريكية وطريقة الحياة الأمريكية جيل من الشباب الساخط يبغون تدميرها وتقويضها من الداخل ، هو جيل اليسار الجديد بأنواعه ، جيل من الهيبيز الذى يهاجم المادية والظلم وغريزة الحرب والرأسمالية والخضوع لأموال الآباء . طفر الشباب على عادة الشباب ، وانتقلوا بسرعة البرق الى ايديولوجية أخرى ، والمهم أنهم لم ينتقلوا الى الشيوعية التقليدية ، لأنهم اعتبروها طريقة أفلست ، بل انتقلوا الى النظريات الفوضوية بأنواعها ، ولطرق غامضة وبلبلة كل ما فيها هو سحر الاسم مثل " الماوزم " (المادية) و"التروتسكية الجديدة" وهى طرق سهلة الهضم ولكنها لاتبين كيف تحل المشكلات الصعبة فى المجتمع والدولة ولا تستطيع التصدى لمشكلات التكنولوجيا العصرية ، بل تدعو للسير فى الطريق السهل طريق هدم الطريقة الموجودة . وفى الواقع كافة الطرق الموجودة وجميع المؤسسات القائمة دون أن تدلى برأيها فيم نقيمه على أنقاضها ، وكيف يعيش مئات الملايين من الأشخاص فى المدن ، وكيف يوزع رأس المال القوى والعمل وكيف نقر النظام فى العالم ؟

هؤلاء الشبان الصغار يهونون الأمور على أنفسهم لانهم يدركون أنه ليس عليهم أن يهتموا بهذه الأمور ، فانهم لن يقوموا بتركيب السيارات التى ينتقلون بها ، وهم لن ينتجوا الأقمشة التى يكسون بها أجسادهم ، ولن يكرروا المياه التى يشربونها ولن يولدوا الكهرباء التى يرقصون على ضوئها ، ولن ينتجوا الأطعمة التى يتغذون عليها ، بل ولا المخدرات التى يتعاطونها . وتحت هذا الغلاف السطحى من الثورى نجد أن الشعر الطويل المشعث ، والقمصان ذات الألوان الصارخة علامات مميزة لأصحاب اليسار وطبعا يوجد بلا شك شبان صغار ذو عقول وقلوب يهتمون بما يجرى فى العالم ويتطلعون لتغيير بناء فى حياة المجتمع الأمريكى .

ان أصحاب مذهب الهيبز لم يبدأوا بنوايا شريرة وبالعنف ، انهم ثاروا على غريزة الحرب والعنف ، وعلى المادية التى استشرت من حولهم . ولكن المخدرات والسكر والكلمات والشعارات سرعان ماجعلتهم ضحايا الأمراض والقذارة والتراخى والاهمال المادى والنفسى والروحى على السواء ، ولم يضعوا اى قيم روحية ، ولم يسهموا فى الادب والشعر الا بالقليل ، واكتفوا باضافة علامات رخيصة وظاهرية فى ملابسهم وأطلقوا العنان لاسلوب حياة يقوم على غريزة العنف والتدمير من أجل التدمير .

ان خيار الجيل الشاب الامريكى والمفكرون منه يعلمون جيدا ان أمراض المجتمع فى أمريكا لاتعالج بالحشيش والهروين ، وأن الماريجوانا ليست الدواء لمشكلات العدالة والمساواة الاجتماعية ، وليس فيها اى رد على الثورة التكنولوجية التى لا يمكن ايقافها ، وسيأتى يوم يعودون فيه من عالم الاحلام الذى يحلقون فيه ، الى اطار الحياة الواقعية ، ويضعون لهم بناء القيم الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية التى تلائم دولتهم وعصرهم ، وقد شهدنا البوادر الاولى لذلك بأن اواخر جيل الفوضويين والهيبز الامريكيين سيكونون اوائل الاشتراكيين الجدد ، وانه ليس هناك اى اهمية لمن يطلقون على انفسهم الستالينيين الجدد او اى اسم آخر يخطر على بالهم .

ويبدو ، وهناك بوادر واضحة على القادة الذين يعملون فى الهيئة الحاكمة الامريكية الحالية وكذلك قادة المؤسسات الرأسمالية الاخرى يدركون جيدا ان طريقتهم لاتلائم هذا العصر ، ولا المستقبل ، وان قوانين السوق تصل الى حافة الافلاس اذا لم تكن مصحوبة بقيم اجتماعية وتخطيط اجتماعى .

لقد دفعت شدة المفاجأة والضربة التى لحقت المجتمع الرأسمالى الامريكى القيادة السياسية (من كافة الاحزاب والالوان) الى اتخاذ قيم اشتراكية واشتراكية ديموقراطية من التأمين الاجتماعى وتدخل الحكومة فى مشكلات الفقر وفروق الطبقات ، والتأمين الصحى وما الى ذلك ، كل هذه هى بوادر الاشتراكية التى كانت كامنة منذ بضع سنوات . وأصبحت الان عملة سياسية صعبة ونزلت السوق . وكذلك الشركات الضخمة أخذت الآن تغير لونها ، وقد أدرك المهيمنون عليها انهم اذا لم يحولوها الى شركات عامة ، واذا لم يشركوا فيها اصحاب الاسهم وجمهور العمال فان هذه الشركات لن تصمد فى المستقبل .

وهكذا نرى انه قامت بين الشيوعية الماركسية المبدئية من ناحية والشيوعية التقليدية من ناحية اخرى قوى عمالية قوية تميل فى اتجاه الاشتراكية الانسانية والبرلمانية وهذه عملية صعبة مصحوبة بارتفاعات وانخفاضات ، ولكنها اذا استمرت فان هناك املا

فى أن يصبح قسم كبير من اتحادات الدول التى سبق ان تحدثنا عنها اتحادات اشتراكية او اشتراكية ديموقراطية من ناحية التخطيط والقيم .

كما قلنا ان هذه العملية ليست حتمية للانسانية ، ولكن من الخير ان تتكون هذه الاتحادات ، ولوكان نظام الحكم فى كل منها يختلف عن الاخر ، على الا يهلك النوع الانسانى ، ولكن اذا تقاربت الدول الاعضاء ، من الطريقة الاشتراكية فان الأمر سيكون دافعا للسير بالمجتمع الانسانى نحو القرن الواحد والعشرين .

الاشتراكية الانسانية والتطلع للسلام

ما مفاهيم الاشتراكية الانسانية ، وقيمها كنظرية عالمية وانسانية ؟

ان أعظم قيم الاشتراكية هو التطلع للسلام وكراهية الحرب ، والعزوف عن العنف . لقد مر وقت طويل قبل ان يحصل الانسان على وسائل القتال الجماعى ، وكانت الحرب امرا عاديا ، وأخذ مؤسسو الاشتراكية يدعون لحل المنازعات الدولية بالطرق السلمية ، وأرادوا تغييرات جذرية فى العلاقات السياسية والاقتصادية بين الشعوب والدول ، ولكن ليس بقوة السلاح ودون سفك دماء كوسيلة لحلها .

عيب على الاشتراكيين والأشتراكيين الديموقراطيين ذلك . واتهموا بالجبن والمهادنة والنعومة ، واتهمهم الشيوعيون بانه ليست لديهم الجرأة للوصول لأهدافهم بابادة اعدائهم الداخليين والخارجيين ، وبأنهم لم يعتبروا معارضيهم افاعى وحشرات يجب سحقها ، وبأنهم لم يعملوا على القاء خصومهم السياسيين فى زوايا النسيان ومحوهم من التاريخ ، ولم ينشئوا معسكرات اعتقال يعتقلون فيها معارضيهم ، وبأنهم يخشون اى دكتاتورية ، ولوكانت دكتاتورية البروليتاريا ، وأن هدفهم مهما بلغ من السمو لا يبرر عندهم الوسائل . وأنهم مستعدون لقبول اهداف مرحلية وأهداف جزئية ما دام ذلك عن طريق الحل الوسط حتى يتجنبوا الطريق الدموية وأن يتسلقوا الى القمة على هرم من الجماجم .

كما ان الاشتراكيين لم ينساقوا وراء الشعارات القومية للأنظمة الرأسمالية ، وأيدوا تحرير الشعوب من الاستعمار ، وتكوين دول مستقلة ، ولم ينادوا بأفضلية عنصر أو أفضلية شعب على آخر ، وفى النضال حول مجال للمعيشة لا يجرون وراء العبارات العنيفة والشعارات الرجعية من كنوز اساطير الشعوب ولا يتخذون منها أسلحة .

لقد وصلوا بطريقتهم هم - وبخطى السلحفاة ولكنهم مع ذلك كانوا أول من وصل فى مباراة المساواة والعدالة الاجتماعية دون ان يدعوا بانهم وصلوا للكمال ، ونجحوا وأنشأوا دون عنف - أكثر النماذج تقدما فى حياة الانسان والامم . تتصدى الان النظرية الاشتراكية لفظائع الحروب فى المستقبل أكثر منها فى الماضى كنظرية صادقة أثبتت حيويتها لمستقبل الانسانية ، وكذلك النظم الاخرى والنظريات الاخرى بدأت تتراجع عن شعارات حتمية الحروب والثورات ، سواء أكان ذلك بين الطبقات ام بين الشعوب والدول ، وكذلك الشيوعية السوفيتية أخذت تمحو الان من قاموسها شعار حتمية الحرب كوسيلة لتحقيق اهدافها ، وهى تتخذ اسلوب التعايش السلمى بين الطرائق المختلفة ، والايديولوجيات المختلفة وقد اتخذت شعار التعايش السلمى كتعبير عن قيمتها خشية فظائع الحرب ، وحتى الشيوعية الصينية العدوانية بعد حصولها على وسائل الابادة الشاملة سوف تضطر للوصول بطريقة حوارها الخاص الى الاعتراف بحتمية التعايش السلمى مع الطرائق الاخرى ، وتبدو فى الافق البوادر الاولى لذلك .

كذلك الرأسمالية الامريكية قد تراجعت الان بعد الضربة التى تلقتها فى حرب فيتنام من نظرية البوليس العالمى ، والأمريكيون يدركون جيدا انهم لا يستطيعون أن يفرضوا بالقوة اسلوب حياتهم على الامم والدول الاخرى .

والشعار الوحيد الذى ظل باقيا هو شعار الدفاع عن النفس " ، وتسير عليه حاليا جميع الانظمة ، فحتى الاشتراكيون على استعداد ان يحموا بالقوة منجزاتهم وأنظمتهم ، ولكن المسألة هى من الذى يقرر متى نستخدم حق " الدفاع عن النفس وما المجالات التى يستخدم فيها ، فان الامريكيين حاولوا ان يقاتلوا باسم الدفاع عن النفس عن مصالحهم القومية على مسافة آلاف الكيلومترات من ديارهم ، واخترع الاتحاد السوفييتى " مبدأ برجنيف " للدفاع عن نظامه واعتمادا عليه أخذ يتغلغل الى جميع أركان العالم ولأى فراغ يحدث ، وكذلك الصينيون وغيرهم ، وأصبحت الفرملة الوحيدة الان هى التوازن بين الدولتين العظميين .

التطلع للمساواة

ان القيمة الاساسية الثانية للاشتراكية هى تطلعها للوصول الى المساواة ما أمكن فى المجتمع الانسانى وبين الدول المختلفة ، ولم تزعم الاشتراكية أبدا ان لديها نمط تستطيع به تنظيم تكوين متنافر من المجتمع الانسانى المعاصر ، حتى يصبح جميع الناس متساوين انها لم تدع كالشيوعية انها تستطيع تحقيق العالم المثالى الذى تسوده

المساواة بين الناس ، وبالتالي لم تحتاج لتغيير نظريتها ، ولم تضطر لشعارات زائفة كما فعلت الشيوعية . لقد اعتبرت الاشتراكية المجتمع الانساني مجتمعا مبنيا من حجارة مرصوصة ، والاشخاص فيه أمامهم آلاف المهام طبقا لتخصصاتهم ومواهبهم وكفاءاتهم واعتبرت المجتمعات المختلفة في مراحل تطور مختلفة ، ويبعد الواحد منها عن الآخر بعد الشرق عن الغرب ، فهناك مجتمعات تعيش طبقا لمعدلات وأساليب حياة ترسخت خلال آلاف السنين مجتمعات هي نتاج التاريخ والجغرافيا ، وتطلعت الاشتراكية وسط برج بابل هذا والخضم الاجتماعي الضخم لاهداف يمكن تحقيقها ، وهي خفض الفوارق الضخمة بين الطبقات وبين الاوضاع ، وبين الوظائف داخل المجتمع ، وخفض الفوارق بين المجتمعات وبين الدول بعضها وبعض ، وليس هذا بازالة الفوارق ، وتوحيد البشر في المجتمع ، بل برفع الطبقات الدنيا وتقريبها للمستوى الثقافي والتعليمي للطبقات الاعلى ، وتقديم الفرص المتكافئة لجميع أبناء المجتمع للارتفاع في مدارجها .

ان الشيوعية تبغي الناحية النظرية من الغاء جميع الطبقات فأدت في الواقع خلال جيل واحد الى تدمير الطبقات القديمة ، وخلق طبقات جديدة وأوضاع جديدة ونبلاء جدد (نبلاء الحزب ، والجهاز الحكومي ، والادارة والجيش وغير ذلك) نجد أن الفارق بينها وبين الطبقات الاخرى – رغم مظاهر المساواة الخارجية – أكبر منها في المجتمعات والنظم الاخرى ، ودون انتقاص مما فعلته الشيوعية في رفع مستوى التعليم والاسكان ومستوى المعيشة عامة لمئات الملايين من رعاياها ، يمكن للاشتراكية ان تشيد بانجازات (دون ثورات دموية) لاتقل عن انجازات الشيوعية بل تفوقها . فان تأثير الاشتراكية الانسانية كبيرا لا في الدول التي تتحكم فيها الاحزاب الاشتراكية فحسب بل أيضا في الدول الرأسمالية التي اتخذت بعضها قيمها .

ان الانجازات في رفع مستوى المعيشة وظروف الاسكان في دول غرب أوربا (اي في الدول التي تنبأ ماركس بان فيها سوف تزداد الطبقة العمالية فقرا ، وتزداد البورجوازية غنى) تفوق دون شك مثيلتها في الدول الشيوعية ، فقد أخذت الفوارق الاجتماعية تقل في دول غرب اوربا بفضل طريقة الضرائب التصاعدية ، ورصد الاموال الضخمة لاحتياجات الجماهير ومعونة التكنولوجيا العصرية ، وارتفاع مستوى الانتاج .

لاتستطيع الاشتراكية ان تزهو بانها وصلت الى هدفها وحققت مبدأ المساواة في المجتمع الواحد وبين أسرة الشعوب ، لقد أدت الثورة التكنولوجية الى خلق أوضاع عديدة وجديدة لم يكن يحلم بها حتى فلاسفة الاشتراكية ، فقد ادت الى تخصصات متزايدة في جميع المهن ، والى زيادة استخدام الآلات والحاسبات التي أخذت تحتل مكان

البشر ، وخلقت مشكلات الفراغ التي ليس لدى اي طريقة اجتماعية رد قاطع لها . ولكن الاشتراكية الانسانية تقف منتصبة القامة امام منافسيها في مجال المساواة ، ويرجح ميزانها .

وأهم من هذا ان الاشتراكية الانسانية أكثر تكيفا مع الثورة التكنولوجية ، وتستطيع ان تنشر مبدأ المساواة كما تستطيع ان تهضم بصورة اسهل المهام الناجمة في مجتمع التكنولوجيا ، كما تستطيع ان تتصدى لها ، وهي تستطيع لخلوها من العقائد ان ترى بوضوح أكبر الفارق الذي اخذ في القلة بين العمال اليد وبين العاملين بفكرهم ، بين أصحاب الياقات الزرقاء واصحاب الياقات البيضاء ، وبين العمل الانتاجي وبين عمل الخدمات ، بين الصناعة والزراعة .

التعدد الاقتصادي

ان القيمة الاساسية الثالثة للاشتراكية الانسانية هي في التعدد الاقتصادي ، وتقديم الامكانات لانواع الاقتصاد المختلفة لكي تعيش في وسطها الواحد بجانب الاخر .

لقد ثبتت الشيوعية والاشتراكية على السواء من النظام الراسمالي ، وكاحتجاج عليه وتنادي النظم الرأسمالية بأنواعها باقتصاد واحد ، الاقتصاد الفردي ، الذي توجد به جميع وسائل الانتاج وراس المال في ايد فردية ، والدافع لوجود الاقتصاد وتنميته ونهضته واحد اوحد وهو الربح .

تنادي الشيوعية بمصادرة وسائل الانتاج (بما في ذلك الاراضي) من أيدي اصحاب راس المال ، وحشدها في ايدي طبقة العمال ، واستبدال دافع الربح بآخر ، بانتاج الفرد لصالح الجماعة ، مع استيفاء احتياجات الفرد .

سرعان ما وصلت الشيوعية في عملية تحقيق هدفها هذا الى اقتصاد مركز ومتعدد ، وقد تركزت جميع وسائل الانتاج في ايدي الدولة وحكامها ، اي الاقتصاد الموجه الذي يتحكم فيه زعماء الحزب او الدكتاتور الاوحد (ستالين) ، وهم الذين يرسمون كيفية استخدام القوة العاملة ووسائل الانتاج والتكنولوجيا الحديثة ، لانشاء اهرام اقتصادية وهي اهرام بمفهومها القديم كانتاج ملايين التماثيل لستالين او طبع ملايين الصور والكتيبات عن ماو لتخليد اعمال وذكر هؤلاء الفراعنة العصريين ، فان هذه تقوم مقام الاهرامات .

ونجد ان الامر في النظام الشيوعي لا يقتصر على ان تقوم بادارة الاقتصاد يد واحدة ، بل ايضا يتركز تخطيطه في مركز التخطيط الحكومي صاحب الكلمة العليا الذي

وحصص الانتاج المطلوبة منها .
ينص على نوع المشروعات التى تنشأ وأين تقام ،

ان كل من يعيش فى ظل النظم الشيوعية يعرف ماتجلبه هذه الطريقة من زيادة التركيز بعد جيل او بضعة اجيال .

ان هذه الطريقة صارمة وغير مجدية تقوم على اساس بيروقراطية واسعة ، تؤدى الى التراخى الفكرى والروتين والسأم الى مقت العاملين لها ، ويمكن ان نذهب أبعد من ذلك ونقول ان هذه الطريقة التركيزية لايمكنها الاستمرار لولا الخوف من سياط الدكتاتور الاوحد او الجماعى (والخوف هو قوة دافعة ضخمة فى الحياة وكذلك فى الاقتصاد والانتاج) ولولا الاقتصاد الموازى الذى نبت بجانب الاقتصاد التركيزى .

ان الاقتصاد الحكومى فى الاتحاد السوفييتى (والامر ينطبق أيضا مع تغييرات محلية على الدول الشيوعية الاخرى) كون طبقة ضخمة من الوسطاء الذين يعيشون فى شقوق وثقوب الاقتصاد التركيزى ، فلولا امناء المخازن فى الصناعة ، وصغار الفلاحين الذين يعيشون بصورة شرعية او غير شرعية على قطع صغيرة من الارض حول منازلهم ، والوسطاء الذين تعتبرهم السلطات طفيليين ولكنهم كزيت التشحيم لعجلات آلة الانتاج الضخمة غير الكفوءة بدرايتهم باساليب تفادى القانون وتعليمات التخطيط المركزى لولا هؤلاء جميعا لتوقفت عجلة الاقتصاد المخطط الضخمة عن السير .

اذا سأل سائل تفسيرا للانجازات الضخمة لهذا الاقتصاد المخطط فى مجال التكنولوجيا الناهضة (الاسلحة العادية والنووية ، وبحوث الفضاء والصواريخ وما اليها) فان الرد هو ان السلطات التركيزية فى الدول الشيوعية القوية عندما تقرر منح اولوية من الدرجة الاولى لتخطيط وتنمية قطاع اقتصادى ، فانها ترصد لذلك وسائل وقوة بشرية غير محدودة ، على حساب احتياجات اخرى للمجتمع والاقتصاد وتكون النتيجة بالطبع مدهشة .

تحدث فى الاقتصاد الشيوعى حتما تغييرات فى اتجاه الاقتصاد المتعدد ، وهناك دلائل على هذا - ولا يحدث لان فيه الصالح العام والخاص ، بل لان فيه أيضا صالح النظام ، لان الطريقة التركيزية الصارمة لاتستطيع الصمود لمنافسة التطورات التكنولوجية الحديثة التى تحدث بمعدلات مذهلة ، وتتطلب مرونة فى الاقتصاد .

كما يدرك اساطين الاقتصاد الشيوعى ، وهم يذكرون صراحة او سرا ان ربح المصنع والاستمتاع الشخصى للعامل هما دافعان لايمكن لاى طريقة ان تغفلهما ، على اى حال فى المستقبل القريب .

اما الاشتراكية التى لم تتجاهل هذا الواقع ومع هذا سعت للوصول الى الصالح العام فى شكل الاقتصاد القوى فقد سارت فى طريق وسط فى طريق الاقتصاد المتعدد الذى يقوم على تركيز جزء من وسائل الانتاج الحيوية للصالح العام ورفاهية الشعب - فى يد الحكومة وترك جزء منها فى يد الجماهير او العاملين وجزء منها فى يد اصحاب المبادرات الفردية .

طبقا لهذه الطريقة نجد ان الحكومة وسلطات الحكم المحلى مسئولة عن القسم الاكبر من قطاع التعليم والصحة والعلاج والدفاع والامن ، وخدمات الادارة الحكومية الاخرى - من البوليس والشئون الاجتماعية والشئون الداخلية والقضاء وما اليها من الخدمات التى تقدمها الحكومة المدنية ، وتشرف الحكومة على هذه القطاعات بتخطيطها على مستوى الحكومة المركزية ورصد المبالغ اللازمة لها .

هناك قطاعات اخرى يجب على الحكومة ان تتدخل فيها ، ولكن بصورة غير مباشرة وتعهد بها الى هيئات جماهيرية ، وهى مصادر الطاقة (الماء والكهرباء ، والوقود ، والقوة النووية وغيرها) وصناعة الاسلحة والمواصلات ، ووسائل الاتصال الرئيسية الاعلام وما الى ذلك ، ويجب ان يكون توجيهها وميزانياتها وأسعار منتوجاتها تحت اشراف الحكومة على ان تكون السيطرة عليها غير مباشرة .

القسم الثالث من الاقتصاد هو الاقتصاد الفردى - فى الصناعة والزراعة والخدمات ، وهو متنوع جدا ، والسيطرة عليه فى ايدى اصحابه سواء افرادا تعاونيين ، والدافع الرئيسى هو الارباح والمتعة فى حين توجههم الحكومة وتشجعهم بصورة عامة طبقا للاولويات القومية ، ولا تدخل فى ادارة شئونها الا قليلا . وقد قام هذا الاقتصاد المتعدد ويقوم فى دول كثيرة ، وطريقه ليس مفروشا بالورود ، والنجاح لا يصحبهما دائما فى كل زمان وفى كل مكان . وفى هذا البناء الاقتصادى تصطدم النظرية الجميلة بالواقع ، والبيروقراطية الحكومية والعمومية فى الدول الاشتراكية الديموقراطية لاتخلو من تبديد الجهود واحيانا من الفساد والاهمال . ان الاشراف العام ليس تاما ، وجدان الاقتصاد الفردى لديه ميل طبيعى للخروج عن اى اطار ، ولا يسير دائما فى الطريق الذى ترسمه الحكومة .

وربما كان خير دليل على ان الاقتصاد البروليتارى هو انجح اقتصاد فى جيلنا ، هو انه يحدث فى الاقتصاد الرأسمالى الخاضع للحكومات ، تحدث تغييرات فى اتجاه التعدد الاقتصادى .

وهكذا تدرك الان الحكومة والجماهير فى امريكا انه حيال المشكلات التى يواجهها المجتمع والدولة ، يجب على الحكومة الفيدرالية ان تشرف عن طريق الميزانيات والتخطيط والتوجيه على الخدمات الحيوية ، وكذلك مستقبلا على قطاع التعليم والخدمات الطبية والخدمات الحيوية الاخرى .

وبالاضافة الى ذلك نواجه ظاهرة لم يكن يقرها الاقتصاد الرأسمالى الامريكى منذ سنوات قليلة - الشركات الضخمة التى تنتج خدمات او سلعا حيوية وقد اخذت تصبح شعبية ، وقلت عليها سلطة الجماعات الصغيرة من كبار اصحاب راس المال ، وأخذت الحكومة الفيدرالية تتدخل فى شئونها بألف طريقة . كما اخذ صغار اصحاب الاسهم يرفعون صوتهم ويطالبون بحق الادلاء برأيهم فى ادارتها ، وتبقى هنا خطوة واحدة نحو اشراك العمال فى ادارة شئونها . لاتكتفى الحكومة بتحديد ما على الشركات ان تعمله وان تتجه بل تحدد ايضا مالا يجب ان تعمله ، وكمثال لهذا مجموعة قوانين الامن والتامين الاجتماعى ، والوسائل المضادة لتلوث الهواء والماء .

انتبهت هذه الشركات الضخمة للنقد المتزايد من الجماهير والشباب ، وأخذت تتنافس فى وضع اهداف اشتراكية تقريبا ، وفى رصد الاموال لتنفيذها دون ان تدخل فى اعتبارها عنصر الربح . هذه الاهداف هى - المساواة وازالة الفوارق ، وتقديم الخدمات العامة لعمالها ، وللبيئة القائمة فيها ، وغير ذلك .

كما ان الاقتصاد المتعدد يستطيع ان يتصدى اكثر من اى اقتصاد آخر لتحديات التكنولوجيا الحديثة ، ولما لايستطيعه الاقتصاد الرأسمالى التقليدى والاقتصاد الشيوعى التركيزى - الاول لانه ليس وراءها احتمال ربح فورى ، والثانى للصرامة وانعدام المبادرة .

حماية الضعيف

هناك أساس آخر من اسس الاشتراكية الانسانية وهو حماية الضعيف فى المجتمع وهو يفسر مفهوم الضعيف اوسع تفسير . وهناك فترات فى حياة الانسان - وهى ليست قصيرة - تناسب هذا المفهوم ، ونجد ان اى طفل وغلام وفتى ضعافا بطبيعتهم ويحتاجون لحماية آبائهم وأفراد أسرهم ، ولكن هذا لايكفى ، انهم فى حاجة لحماية المجتمع وحتى لايظلمون ، ولايهضمون فى تطورهم ، ويستطيعون التقدم والوصول الى رشدهم المادى والروحى .

ونجد ان كل شيخ وعجوز ضعيفا ويحتاج لحماية من بنيه وأفراد اسرته من الشباب ، ولكن هذا لايكفى ، فالعجائز يحتاجون لمعونة المجتمع الذى عاشوا فيه ، وعملوا وانتجوا ، حتى لايقلب لهم الدهر ظهر المحن فى شيخوختهم ، وينهون حياتهم فى سلام ، ويقضون آخر ايامهم محترمين .

كل مريض ضعيف مهما كان مرضه وهو فى حاجة لرعاية طبية ورعاية نفسية . وقد وجد دائما فى المجتمع الانسانى الشعور بضرورة تقديم المعونة للطفل والعجوز والمريض ، فى البداية فى احضان الاسرة ، وعلى مر الزمان وبتقدم الحضارة الانسانية فى احضان القبيلة والطائفة والجالية والدولة .

ونجد ان الحضارة اليهودية والدين اليهودى غنيان بالعادات والقوانين التى تهدف الى حماية الضعفاء ، وهذا هو الحال فى الحضارات والاديان الكبرى الاخرى .

نجد ان الاشتراكيين هم الذين خلال المائة والخمسين سنة الاخيرة توسعوا فى هذه الحماية ووضعوا لها اطارا وأجهزة ووضعوا لذلك مجموعة كاملة ومتكاملة من قوانين المعونة والحماية فى ظل قوانين الحماية هذه قامت المؤسسات المختلفة برعاية النساء الحاملات ، وتقديم الاغذية المناسبة للاطفال والرعاية الصحية للام والطفل ، وتقديم المعونة المالية للاسر الكثيرة الاطفال ، وكذلك المؤسسات التعليمية بانواعها من دور الحضانة ومدارس الاولاد والفتيان الذين يدرسون ، كما سنت قوانين تحظر تشغيل الاطفال والفتيان حتى سن معين ، وكذلك نشا فى احضان الاشتراكية الانسانية واصبح من الاسس الاولى فى اى دولة عصرية مهما كان نظام الحكم فيها .

ان معونة العجائز من معاشات وصناديق تامين ، وملاجئ ورعاية طبية ورعاية نفسية ، هى الاخرى اكتسبت اساسا قانونيا واداريا فى المدرسة الاشتراكية الحديثة ، ونقلتها عنها النظم الاخرى .

وكذلك فكرة التامين الصحى ، والقاء عبء علاج المرضى ورعايتهم على المؤسسات الجماهيرية والحكومة وبدات من صناديق المرضى بانواعها على شبكة مستشفياتها والمستشفيات الحكومية والاهلية والطائفية - والجماهيرية ، وانتهت بالتامين الصحى الشامل (من المهد الى اللحد) المتبع فى الدول الاسكندنافية وجميع القوانين المتصلة بذلك - كل هذا يشكل جزءا لايتجزأ من مجموعة قيم الاشتراكية الانسانية والتى تبنتها ايضا الانظمة الاخرى .

ان هذا الاطار من قوانين حماية الضعيف يشمل ايضا معونة المعوقين منذ الولادة وبسبب الامراض والحروب والعمل والحوادث والذين يحتاجون أيضا لرعاية وحماية من المجتمع .

بالاضافة الى كل هؤلاء من الاطفال والشيوخ والمرضى والمعوقين — نجد الضعاف بطبيعتهم ، فهناك فى المجتمع الانسانى جماعات اجتماعية كاملة ضعيفة ومضطهدة ، وهدف الاشتراكية تجنب وجودها ، واذا وجدت ان تعمل على رفع مكانتها ، وان تساعدها وتحميها من الطبقات الاقوى فى المجتمع .

ان جذور هذه الظاهرة — التى مردها غريزة الشر فى قلب الانسان — ترجع الى طيات التاريخ الانسانى : من العبيد واسرى الحرب وعبيد الارض والاجزاء والخدم ، والجماعات النجسة والاجناس المتخلفة والطبقات المضطهدة ، ممن لم تستوعبهم الانسانية فى عهودها المظلمة فسحقت اجزاء منها نفسها فى التراب .

لم تكن الاشتراكية الحديثة هى التى شنت الحرب على العبودية بل كانوا هم الاحرار من امم العالم فى جميع الاجيال وفى كافة الدول هم الذين ثاروا على الظلم واضطهاد الضعفاء ، والغيت العبودية بانواعها فى معظم الدول المتحضرة قبل الاشتراكية ، وان كانت قد بقيت فى عصرنا فى اجزاء غير قليلة من العالم . ان الجديد فى رحاب الاشتراكية هو مجموعة قوانين حماية الطبقة التى تكون أغلبية المجتمع — طبقة العمال والاجراء ، ليس حماية تفضل ، بل حماية حق وواجب على المجتمع كله ، وعلى اصحاب العمل ، كذلك فى هذا المجال ، وصلت الاشتراكية الى انجازات كبرى عن طريق الصراع الطويل الذى استغرق حوالى مائة سنة وأكثر ، وايضا هنا عملت عملها فى قسم صغير فقط من دول العالم .

ان حرية تكتل العمال ، والنقابات المهنية ، وحق استخدام سلاح الاضراب ، والمفاوضات المشروعة بين العمال واصحاب العمل ، ومجموعة قوانين العمل والحد الادنى المشروع للاجر ، كل هذا يعد ثمرة نضال طويل ومستمر ، وصلت الاحزاب العمالية فى اثنائه الى انجازات كبرى ، باعتمادها على النقابات المهنية القوية التى تمنح الاشتراكية السياسية من قوتها وتمتص منها هذه الاحزاب قوتها .

فى النظام الراسمالى من النوع القائم فى امريكا حيث لا توجد اتحادا تنظيميا وايدولوجيا بين النقابة المهنية وبين جهازا الحزب السياسى تصبح النقابة المهنية جهازا قويا ومستقلا ، وينتهى به الامر ان ياخذ فى اضطهاد الطبقات الجديدة بين جماهير العمال بمنع انضمامهم الى خدماته ، اما فى النظام الشيوعى فقد اصبحت

النقابة المهنية اداة فى ايدى الحزب الايدولوجى الذى يسلبها قوتها ويضطهد العمال باسمها .

هناك وسيلة واحدة تنادى بها الاشتراكية الانسانية لحماية الطبقات الضعيفة ، وهى فرض الضرائب التصاعدية (الواقع ان ذلك يتبع حاليا فى ضريبة الدخل وسائر الضرائب فى اى دولة عصرية ، ولا يقتصر على الدول الاشتراكية) .

ان حماية الضعيف ، تتضمن جميع ما تقوم به الدولة الحديثة فى ميدان التامين الصحى والتامين الاجتماعى والتامين ضد البطالة ، والنقابات المهنية وقوانين العمل ، والضرائب التصاعدية وقوانين المعاشات وما الى ذلك ، وهى التى اوجدت ما تعودنا الان ان نطلق عليه احيانا فى استخفاف مجتمع المعونة الاجتماعية .

ان الاستخفاف بهذا المجتمع (الذى يمثله الدول الاسكندنافية والتى تحاكيها معظم دول غرب اوربا) من جانب المتخمين والاقوياء ، او من ابناء الذين كان هذا المجتمع يعاضدهم ، والان يركلونه ، فى حين ان المرضى والشيوخ والمعوقين اشك فى ان يرضوا بالعودة الى الحياة فى مجتمع لا يوجد فيه هذا النظام من المعونة .

نجد لمجتمع المعونة الاجتماعية عيوبا فكثيرا ما نسمع ان الحياة فيه سهلة وليس به تحديات للشباب ، وانه يهتم بابنائه ازيد من اللازم ، فى كل هذا شىء من الصحة ، فان الاشتراكية الانسانية تواجه تحديات اخرى مثل كيف تتغلب على فائض الخير وعلى فائض وقت الفراغ فى مجتمع الرخاء المتطور ، الذى يقصر فيه اسبوع العمل الى خمسة ايام ، واربعة ايام ، وسيكون فى المستقبل ثلاثة ايام . اما كيف تستطيع دولة اشتراكية متطورة وقوية ان تساعد مساعدة حقة لا مجرد بنيها الضعاف ، بل ايضا القوميات والدول الاضعف ، وكيفومن الذى يفرض على المجتمعات والدول الغنية والقوية ضرائب تصاعدية لمعاونة المجتمعات والدول الفقيرة والضعيفة ؟ لهذه هى تحديات الاشتراكية فى المستقبل .

المرونة والتسامح

ان احد قيم الاشتراكية الانسانية هى البرجماسية والتسامح ، وقد يبدو الامر فى الظاهر متناقضا ، اذ ان البرجماسية تتعارض مع القيم ، وهى مواءمة مع الحياة والمجتمع على ما هما عليه ، وكذلك التسامح الذى يؤدى الى التوافق مع الظواهر القبيحة فى الحياة ومع مخلفات الماضى ومع الرجعية بانواعها وما الى ذلك . ويلزم الامر ايدولوجية

شاملة لكى يكون المرء غير برجماسى وغير متسامح . والواقع ان هاتين الصفحتين كانتا فى الماضى ولازالتا الى حد ما اليوم من المزايا الرئيسية للشيوعية . ومنذ اللحظة التى ذكرت فيها النظرية الماركسية ان الدين هو افيون الجماهير ، راى النظام الشيوعى ان من واجبه استئصاله من الجذور ، واخذ يهدم الكنائس والمعابد اليهودية والمساجد ويعتقل ويقتل المبشرين ، واذا كان المبشرون مصاص دماء ، فان طريق التخلص منهم هو بقتلهم او ارسالهم الى منفى بعيد .

فى حين ان الاشتراكية الانسانية لم تدع ان نظريتها جامعة مانعة ، ولم تتخذ لنفسها نظرية علمية شاملة ، ولم تدع ان لديها ردا على اى سؤال وحلا علميا لجميع مشكلات المجتمع الانسانى ، بل بالعكس ، ادركت الاشتراكية من بدايتها ان سير الحياة وتنوع المجتمع وطبيعة الانسان ، والظروف المتغيرة من مكان الى مكان ومن وقت لاخر ، فانها تستطيع ان تضع لنفسها خطوطا رئيسية ، وتوجيهات عامة تتغير تبعا لظروف الزمان والمكان ، وتحقيق الاهداف التى تتطلع للوصول اليها مثل السلام العالمى والتكافؤ الاجتماعى والتعدد الاقتصادى ، وتركت رعاية الضعيف للمخططين والمنفذين فى كل دولة . الاشتراكية متسامحة دائما ، ولذلك ندد بها معارضوها ، انها لم تهدم ابدا مؤسسات قائمة ، بل غيرتها ، وجعلتها تواكب تدريجيا افكارها ، او تخطتها وخلفتها على قارعة الطريق .

على حين ادعت الشيوعية ان فى جعبتها نظرية كاملة ، وتتضمن حلا لكل مشكلة وجميع الامور والنواحى طبقا للنظرية الماركسية العلمية ، ورغم ذلك فهى تحتاج كثيرا للجدل والالاعيب اللفظية لتلائم نفسها للاحتياجات والظروف المتغيرة ، ولم تعترف بذلك ابدا ، وظل نموذجها مقدسا دائما .

ان راى الشيوعية بان العلوم الاجتماعية يجب ان تقوم على اساس قوانين حديدية وتجارب مثبتة مثلها مثل العلوم اطاح بالثقة فيها ، لان العلوم الطبيعية اصبحت فى ايامنا مرنة وبرجماسية ، وقوانينها تتغير بلانهاية ولا توقف فجميع قوانين نيوتن ونظرية دارون وجداول مندليف التى كانت دون شك نصب اعين ماركس وزملائه اثناء وضع النظرية العلمية وقوانين حياة الانسان والمجتمع اصبحت الان محل شك وتساؤل ولا ينفك رجال العلم المحدثون يذكرون مرارا وتكرارا - اننا كلما زدنا علما وجدنا اننا أقل علما " ولا نجد رجل علم حق فى ايامنا على استعداد أن يعلن مجموعة كاملة ، ونهائية من قوانين الطبيعة ، لانه ليس هناك بحوث للعالم الاصغر والعالم الاكبر . وليس هناك امر نهائى او آخر لاى شئ ، اى انه كلما تقدم البحث اصبح ايضا منطق العلوم

الطبيعية منطقا برجماسيا ، والعبارة الشائعة على لسان العلماء هى : " اننا نعرف حتى اليوم كذا وكذا عن ظاهرة معينة " . ولا يدعى احدهم انه يعترف على وجه الدقة ماسيتمخض عنه الغد ، وامحت من قاموس العلماء عبارات اننا على يقين - قانونية هذه الظاهرة واضحة وما الى ذلك .

واذا كان الامر كذلك فى العلوم الطبيعية فما حق اصحاب النظرية الشيوعية فى الكلام باسم الماركسية او الشيوعية العلمية ؟

ان مرونة الاشتراكية وتسامحها يكسبها فى عصرنا القدرة على السير فى الميدان الاجتماعى على قدم المساواة مع العلوم والتكنولوجيا الحديثة وهذا طبعا مع اعتبار ان برجماسية الاشتراكية الانسانية ليست الا وسيلة لتحقيق اهدافها الاجتماعية السامية .

لا بومبى ولا هيروشيما

لقد ذكرنا فى بداية هذا الفصل ان الامر فى عصرنا لا يقتصر على الفرد والمجتمع الواحد والدولة الواحدة . بل انه يجب على الانسانية كلها ان تجد معنى لوجودها ، فى ايامنا وفى الاجيال المقبلة ليس يعنى هذا الا المحافظة على كيانها رغم اخطار الابادة التى تتربص بها لاعتاب القرن الواحد والعشرين - لانه من حق الانسان الذين كشف الكثير من خفايا الطبيعة على كوكبه ومن اسرار الوجود ان يستمر فى الحياة على الارض .

كيف يعيش الانسان فى القرن الواحد والعشرين واى معنى سيكون لحياته ، وما سيكون عليه وجه الارض ؟ ان هذه مسألة اخرى ليست مناقشتها فى متناول ايدينا ويكفينا ان نورث الاجيال التى ستعقبنا الحياة نفسها .

ان الاخطار التى تهدد استمرار وجود الانسانية واضحة ولكن طرق المحافظة على الانسانية ليست كذلك ، وقد ذكرنا طريقا ممكنا واحدا هى كتل الدول على شكل " اتحاد دول " تتكتل فى اتحاد عالمى اساس مهامه تجنب الحروب ، والمحافظة على البيئة وميزان السكان . وقلنا ان الاشتراكية الانسانية من بين الطرق الايديولوجية الاجتماعية القائمة هى افضل من غيرها فى حل مشكلات وجود الانسانية ، والمحافظة على صورة الانسانية والفرد فى داخل المجتمع الانسانى ، وانها تستطيع اكثر من غيرها ان تجابه اخطار ومشكلات الثورة التكنولوجية .

ليس فى هذا الراى وضع مسلمات ، فيحتمل ان تصل الانسانية الى نهاية هذا القرن بوساطة طرق اخرى ومذاهب اخرى ، ويحتمل انه فى هذه المرحلة لم تتضح أجزاء

كبيرة من الانسانية لكي تستوعب وتحقق افكار الاشتراكية الانسانية ، وسوف تتطور دول ومجتمعات كثيرة لاجتياز مراحل ثورية شيوعية او شبيهة بالشيوعية او غير ذلك .

امل الانسانية حاليا ان يزداد عدد الاشخاص المؤمنين بالاشتراكية الديموقراطية الانسانية ، ولا سيما في الدول المتطورة ، والدول الرسمالية الكبرى . وتظهر في الولايات المتحدة ، وفي المستقبل القريب في الدولتين الشيوعيتين الكبريين الصين والاتحاد السوفييتي — البوادر الاولى للاتجاه والاقتراب من اهداف الاشتراكية الانسانية .

ان امل الانسانية هو ان يؤدي الخوف الذي استولى على جميع الدول الكبرى والمتطورة من خطر الحرب والابادة ودمار البيئة الى ادراك انه يتحتم على الانسانية كبح قوى الدمار قبل ان تنطلق على العالم والحضارة الانسانية وتحيله ركاما ويصير بومبي او هيروشيما ثانية .

* * *

القسم الثاني

الكفاح من اجل الارض

اليهود وارض اسرائيل

....

العرب وفلسطين

وأعطيك ارضا شهية ميراث مجد
أمجاد الامم — سفر ارميا اصحاح
٣ آية ١٩

ارض تشتهيها كل الامم :
ربي دافيد قمحي

اليهود وارض اسرائيل

من أين اتينا ؟

ازاء هذا العالم الذى نعيش فيه علينا ان ندرس جيدا طريقنا ، والاسئلة التى وضعناها لانفسنا كبشر ، وعلينا ان نسال انفسنا كابناء للشعب اليهودى ولوطننا — دولة اسرائيل .

والاسئلة هى : ما معنى وجودنا ، ومن أين اتينا ، وأين نحن اليوم ، والى أين نسير ؟ وعلينا ان نجيب على انفسنا اولا . وعلى العالم المحيط بنا .

منذ وطأت اقدامنا مسرح التاريخ كنا شعبا فريدا من نوعه ، حقا ، اننا فى بداية طريقنا من عهد الاجداد حتى اصبحنا شعبا ، لم نكن نختلف اختلافا فعليا عن كثير من القبائل الرحل منذ فجر التاريخ التى تبحث لنفسها عن ارض وموطن ، ولم يبرز الاختلاف والفارق الا عند استيطاننا ارض اسرائيل وتاسيس ملكنا .

لم يكن شكل الحكم هو الذى جعلنا فريدين ، فقد كان لكثير من الشعوب قضاة وملوكا ، وكذلك لم يكن اسلوبا خاصا فى البناء او الفنون ، بل بالعكس لم نتميز على غيرنا على الاطلاق ، ففى العالم القديم قامت للرب مدن كبرى تفوق كثيرا مدن اسرائيل كما اننا لم نتميز من ناحية عدد السكان ، ومساحة اسرائيل ، فحتى فى الشرق الاوسط القديم كنا دائما دولة صغيرة ، وحتى فى عهد ملك داود وسليمان فى اوج عظمتهما كنا شعبا صغيرا ازاء امبراطوريات تلك الايام .

خلال مئات السنين كنا نعيش فى عالم وثنى ، قد وصلت اجزاء منه الى مستوى من التطور فى التكنولوجيا والعلوم والفلسفة والفنون حدا يفوقنا كثيرا ، ولكنا كنا الشعب الوحيد الذى آمن باله واحد . وكان هذا تراثنا وحدنا ، ولم نكن نفوق او نقل عن غيرنا فى سائر مجالات الحياة . وكنا كسائر الامم فى ذلك العهد فى الاستبداد والخيانة والحسد والكراهية وفى العلاقات بين الانسان واخيه الانسان وبين الاسرة وغيرها ، وبين القبيلة والقبيلة وبين الطبقات بعضها وبعض ، ولم نكن نختلف عن غيرنا فى غرائزهم الخيرة والشريرة ، واحببنا ارضنا ، وقاتلنا عنها ومن اجلها ، كما كانت تفعل الشعوب الاخرى التى اندثرت فى طيات التاريخ ، وكونا لغة وحضارة لم تكونا فى عهدهما على مستوى اعلى او أقل من الشعوب المحيطة بنا .

ان الذى يميزنا من البداية كان عقيدتنا ـ الايمان باله واحد بارئ (خالق السموات والارض) لقد ولد التوحيد مع اجدادنا ونما وتطور حتى وصل الى الذروة فى عهد الانبياء . وهذا هو الذى يميزنا فى العالم القديم . وجعلنا شاذين سواء كافراد او كشعب . فقد تمسك اباؤنا الاول بعقيدة التوحيد وان لا اله الا الله . وكان هذا نبراسا لهم فى حياتهم وهاديا لهم فى طريقهم . وجعلنا هذا اقرابا غرباء ومختلفين وشاذين فى نظر الشعوب الاخرى فى العالم القديم .

وعندما تخرب هيكلنا ونفينا من ارضنا وتشتتنا بين امم العالم زاد اختلافنا ، وكل ما هو غريب فينا .

ان الايمان باله واحد هو من اسس حضارتنا . وقد اورثناه عن طريق المسيحية والاسلام لمئات الملايين من البشر فى انحاء العالم . ولما خرجنا الى المنفى حملنا هذه العقيدة فى قلوبنا .

وزيادة على هذا اننا لدى خروجنا للمنفى اضفنا الى تمسكنا بالعقيدة ومبادئها الرغبة فى العودة الى البلاد . فالصهيونية لم تولد مع هرتزل . بل ولدت فى المنفى البابلى عندما اعلن المنفيون الحداد على القدس السليبة وعلقوا آلاتهم الموسيقية على اغصان الاشجار . وكفوا عن الغناء وانقطعوا عن العزف طالما هم بعيدون عن اورشليم . لقد نفيت شعوب كثيرة من بلادها . وكان من الطبيعى ان تحن الاجيال الاولى لوطنهم الذى نفوا منه . ولكن اجتماع العقيدة الخاصة بنا مع الحنين والرغبة القوية فى العودة الذى تجلى فيه لنا الرب . هذه الرغبة التى تزايدت مع الاجيال جعلت اليهودى التائه ـ كفرد وكشعب ـ مختلفا وغير مفهوم تماما . وعلى ذلك مكروها مضطهدا .

لقد كنا دائما محتاجين لان نشرح انفسنا وحقنا فى الوجود كشعب مشتت ومقسم . وكنا محتاجين لان نشرح قبل كل شئ . الاب لابنه . والمعلم لتلاميذه . ورؤساء الطوائف لطوائفهم . اننا اكتسبنا هذا الحق بالعذاب والاضطهاد والقتل والقمع والكراهية الدائمة التى كانت من نصيبنا وقدرنا .

ومن هنا كانت حتمية تعليم العقيدة والدين اليهودى والحنين لايام المسيح المنتظر . كما كنا محتاجين ان نشرح حقنا فى الوجود ومعنى حياتنا للامم التى كنا نعيش بينها ونتنقل فيها فنشرح لهم من نحن وما عقيدتنا . ولماذا لا نندمج فيهم . واى شيطان يطاردنا باستمرار . وما الذى يوحدنا فى طوائفنا المختلفة ؟ ولماذا نتمسك فى غيرة بديننا وتعاليمه ؟

مرت اجيال واجيال على حياتنا فى المنفى . واقام الشعب اليهودى على اساس العقيدة والحنين لصهيون الذى انغرس فى وعى الشعب تراثا حضاريا وروحيا خاصة للمحافظة لزيادة المحافظة ـ على الوجود اليهودى المستقل . وانشاء اسوار حولنا ما امكن لتقوية روح اليهودى وايمانه بالله . وحنينه لصهيون . وزادت هذه القيم الحضارية والدينية عزلة الشعب اليهودى وزهوه بهذه العزلة .

كانت اهم الصفات التى ميزت اليهود خلال آلاف سنين المنفى زهوهم بعزلتهم . وكان يهود المنفى على غير المتعارف عليه لا يزهون بالبشر . وكانوا يموتون متمسكين بالعقيدة . ويقتلون ولا يتحولون . ويسيرون فى طريق الاستشهاد متمسكين بيهوديتهم فى حين ان كثيرا ما كانت طريق الهروب من اليهودية مفتوحة امامهم . وكان هذا يتطلب قدرا كبيرا من الفخر اليهودى والانسانى لدى ظهور موجة العنف الحديثة فى اوربا تلك التى حشدت فيها الغالبية الساحقة من الشعب اليهودى . وزادت ايضا كراهية اليهود . واذا كان اليهود مكروهين خلال اجيال عديدة بسبب تفردهم الدينى فانهم اصبحوا الان يواجهون مسائل من اى القوميات انتم . ولاى الشعوب ولاؤكم . وهل حنينكم لصهيون لا يتعارض مع ولائكم للشعب الذى تقيمون بينه .

ومع الزيادة لكراهية اليهود واضطهادهم فى القرن الماضى حاول جزء من اليهود كما كان يحدث فى عصر التاريخ اليهودى ـ ان يهربوا من يهوديتهم . وان يندمجوا بين الشعوب التى يقيمون فيها . وهرب كثير غيرهم من اوربا لانحاء اخرى من العالم . فى حين احيا القلة منهم الفكرة الصهيونية التى كانت موجودة دائما بصورة كامنة . واذا عرفنا الصهيونية بانها الرغبة فى العودة (لصهيون) لارض اسرائيل . فانه يمكننا ان نقول ان اليهودية " توحيد زائد صهيونية " . وان كل تاريخ اليهود فى المنفى هو تاريخ الصهيونية .

ان الصهيونية الحديثة بكافة الوانها تنادى بشعار : انشاء مأوى آمن فى ارض اسرائيل لكل يهودى يرغب فى العودة اليها او يضطر لذلك . وفى البداية لم يستطيعوا تحمل آلام الشعب اليهودى . ورفعوا صوتهم بعودة اليهود لارضهم وراوا فى هذه الطريق الحل الوحيد لضائقة الشعب اليهودى ومتاعبه . وهكذا بدأت العودة الى صهيون .

وعلى السؤال من أين أتينا ؟ نرد بقولنا من هنا من ارض اسرائيل اتينا . واننا ابناء اجدادنا الذين ولدوا فى هذه الارض . ان الفى سنة مدة طويلة . ولكنها ليست اطول من ان تستطيع ان نرد بهذا الرد فى وضوح تام وزهو كبير . لاننا خلال

على صلتنا بهذه الارض ، ولم نندمج فى حوالى مائة جيل حافظنا على فرديتنا كشعب ، كما اننا لم نذب احدا فينا . الشعوب التى عشنا بينها ، ولم نذب فيها

تدعى المزاعم الاجرامية لرجال الدعاية اللاسامية ولاسيما من المعسكر السوفييتى والعربى اننا لسنا الا امشاج شعوبليس بيننا وبين آبائنا فى ارض اسرائيل اى صلة ، وحيال هذه المزاعم نسال السؤال التالى — كم من الشعوب فى ايامنا تستطيع ان تقول عن نفسها انها تنحدر مباشرة من اجدادها منذ الفى سنة ؟ هل يستطيع الانجليز مثلا ان يقولوا فى ثقة انهم احفاد القبائل البريطانية التى قاتلت الغزاة الرومان ؟ فان عددا كبيرا من الشعوب ذابت فيها منذ الرومان من الانجلو ساكسون والدانمركيين والنرويجين والسويديين ، والنورمانديين والفرنسيين ، وهل البلجيكيون فى عصرنا هم ابناء البلجيكيين الذين قاتلوا يوليوس قيصر ، وليسوا خليطا من الفلمنكيين والللونيين والذين هم انفسهم خليطا من شعوب اخرى ؟ وهل الايرانيون هم احفاد بنى كوش ، او اخلاط من الفرس والاكراد والاذربيجانيين والاتراك والافغانيين والقبائل العربية ؟ وهل اليونانيون الحاليون هم احفاد الاغريق القدامى ؟

وهكذا يمكن ان نضيق الخناق على معظم شعوب العالم ، صغيرها وكبيرها ، وليس الغرض من ذلك تقليل قيمة اى شعب او الاستهانة بعزته وكرامته ، بل لابراز ان اليهود هم ابناء ينحدرون مباشرة من آبائنا القدامى فى هذه الارض ، وان سلسلة نسبنا المجيدة لم تنقطع منذ خراب الهيكل حتى ايامنا هذه .

حقا لقد نفينا من ارضنا وتشتتنا وتنقلنا فى ارجاء العالم كله ، وعشنا فى انواع مختلفة من المناخ والطبيعة يبلغ اختلاف الواحد عن الاخر كالمسافة بين خط الاستواء الذى وصل اليه يهود الهند والقطب الشمالى الذى يعيش بقربه اليهود فى سيبيريا وكندا ، وتشردنا وعشنا آلاف السنين بين شعوب يختلف الواحد عن الاخر بين البرتغاليين واليمنيين وبين رواد امريكا ، والبربر فى جبال اطلس ، وبين الاسكتلنديين وبين الاكراد وكان علينا ان نتكيف مع الشمس والنور ، والحرارة والبرد ، وتغيير لون جلدنا خلال آلاف السنين من التشرد ، عما كان عليه فى ارض اسرائيل القديمة ، فكما تشهد الالواح والرسوم المصرية الملونة كان كلون الشعير والقمح الناضج فى بلادنا ، ولدى عودتنا للارض جلبنا معنا كميات من الصبغيات من جميع ولا المنفى من اللون النحاسى ليهود اليمن الى البياض النقى ليهود المانيا والشمال خلال آلاف السنين التى امضيناها فى المنفى تعلمنا سبعين لغة وكونا لانفسنا بضع لغات مستقاة من لغات الشعوب التى كنا نعيش بينها ، مثل اليديش بلهجاتها المختلفة واللادينو التى وضعها يهود

اسبانيا واللهجة العربية الخاصة بيهود اليمن ، ولغة يهود دغستان ، ولغة الرجوم التى اتخذها يهود كردستان ، واللهجة المراكشية البربرية ليهود الاطلس .

حقا لقد تأثرنا كثيرا بحضارات الشعوب العديدة التى عشنا بينها وبعاداتها واساليب حياتها ، ولكن رغم ذلك لبثنا ابناء شعب واحد واحفاد يهود ارض اسرائيل القديمة ، وعندما اخذ هذا الشعب فى العودة منذ مائة سنة لارضه ، كان هو نفس الشعب الذى نفى منها .

* * *

سوف يعودون

لقد قيل فى كتاب شمعونى " .. كما ان هذا الظبى يسير لاخر العالم ويعود لمكانه ، وكذلك اسرائيل رغم تشتته فى انحاء العالم سوف يعودون ... "

لقد ولد افرايم ابراهامشفيلى الذى عاد للبلاد فى ايامنا من الاتحاد السوفييتى — ولد منذ ثلاثين سنة فى كوتايسى بجورجيا ، وهو من الطائفة اليهودية فى كوتايسى والتى يبلغ عمرها حوالى الفى سنة وأكثر من نسل ابناء ابراهيم الذين وصلوا الى جورجيا فى ايام ردستفيلى وفى عهد الملكة تامار من جبال ارمنيا والذين نفوا الى هناك من بابل فى ايام الملك صدقياهو ، ووصلوا فى عهد الملك تيجرنس بول كاتزنلسون هاجر للبلاد منذ حوالى ستين سنة وانشا كبوتسا على ضفاف الاردن — ولد فى بوبرويسك فى روسيا البيضاء . وعاش آباؤه مئات السنين فى المدن الريفية الصغيرة فى منطقة الاستيطان اليهودى فى روسيا وبولندا ، واجداده من نسل كبار الكهنة الصادقين وهاجروا فى العصور الوسطى لبولندا من المانيا حيث عاشوا مئات السنين ، وقد قتلت الحملات الصليبية معظمهم وهربت القلة شرقا ، ووصل هؤلاء الكهنة الصادقون الى بلاد الراين لفرومبزا ، وماجنتسا من ايطاليا ، وكانوا قد نقلوا الى روما مع اسرى تيتوس واسبانوس .

دكتور يوسف كوهين مجورى قاضى محكمة السلام بتل ابيب ولد فى القاهرة وقد نزلها ابوه من مواليد صنعاء فى اليمن وهو فى طريقه من اليمن لفلسطين ، وهاجرت الاسرة للقدس عشية الحرب العالمية الاولى ، وفى الحرب هاجرت الاسرة لمصر ، ثم عادت بعد انتهاء الحرب مباشرة .

وقد تعلم يوسف الصغير فى مدرسة " تحكمونى " بالقدس ، ودرس القانون فى جامعة كان بفرنسا ، وقد اقام آباؤه فى صنعاء عدة اجيال ، وقد ذكر ابراهام بن الحاخام النداف فى كتابه - بقيم يهود اليمن - لقد وجدنا ان احد اجداد يوسف هو الدكتور بينحاس بن يحيى الكاهن مغارى رحمه الله ، هو كاتب الكتاب العظيم " نور التوراة " ولدينا ادلة على ان هذه الاسرة من نسل يهويرب الكاهن الاعظم ، وكان لهم كتاب انساب والاسم يهويرب هو باللغة العربية مغارى .

لستر ابراهامسون الذى يعمل كخبير بمصنع الكترونى كبير وحديث ولد فى لوس انجلوس بامريكا ، وقد هرب اليها آباؤه من مذابح اليهود فى روسيا على ظهر سفينة صغيرة ومتداعية قادمين من اوكرانيا ، وكانوا يعملون هناك كخياطين حتى خارت قواهم ، وهو نفسه تطوع فى ايام تهريب المهاجرين غير الشرعيين لفلسطين ، وعمل كبحار فى احدى سفن المهاجرين غير الشرعيين المتداعية التى كانت تجلب اليهود لسواحل البلاد من اللاجئين من مذابح النازيين . وكان آباؤه يرتزقون من العمل كباعة متجولين ، واصحاب حانات وكتجار صغار ، بين الهولنديين والاوكرانيين ، وقد قتل الكثيرون منهم وذبحوا ، واعتقلت نساؤهم فى اضطرابات سنة ١٦٤٨ وسنة ١٦٤٩ ، وقد وصل آباؤهم لاوكرانيا قادمين من فالينسيا التى هربوا اليها من الامبراطورية الرومانية المقدسة التى وصلوا قادمين من ايطاليا التى نفوا اليها مع السبى اليهودى الذى استولى عليه تيتوس سنة ٧٠ ميلادية .

ابراهام ابراهام الذى هاجر لاسرائيل فى اوائل الخمسينات مع موجات الهجرة الكبرى ، وبنى منزله فى موشاف بنطيم فى النقب ، والذى يزرع حاليا الورود والابصال ويصدرها لاوروبا ولد فى ارنجولوم فى كوتشين فى الطرف الجنوبى لشبه القارة الهندية ، وكان آباؤه من الباعة الجائلين والتجار واصحاب الحرف فى هذه المدينة الريفية ، حيث عاشوا هناك مئات السنين ، ولديهم كتاب انساب يشهد بانهم من نسل بحارة فى الاسطول التجارى للملك سليمان وقد كانوا يخرجون فى رحلاتهم لارض اوفير بحثا عن العاج والببغاوات والذهب ، ثم يجلبونها للقدس . وفى ايام الملك اسسوا فى كوتشين مستعمرة للملاحين والتجار ، وظلوا بها عهودا طويلة حتى وصلتهم الانباء السيئة بخراب الهيكل الاول بايدى البابليين الذين دمروا قدس الاقداس ، ونفوا الملك والكهنة والشعب . وظل البحارة فى كوتشين ، وحصلوا على تصريح بالبقاء فيها حتى يمر الغضب ، ويقوم مملكة داود من جديد ، وظل اليهود فى كوتشين الفى سنة حتى اتاهم البشير ، وعادوا لاسرائيل بنسائهم واطفالهم سنة ١٩٥٤ فى السنة السابعة لقيام دولة اسرائيل .

تنيا : وهى من اسرة زفى هربت لارض اسرائيل فى ربيع سنة ١٩٤٧ على ظهر سفينة المهاجرين غير الشرعيين " حاييم ارلزوروف " ووصلت تنيا للبلاد من معسكرات الاعتقال فى قبرص بعد ان قاتلت هى والفان من زميلاتها وزملائها على ظهر السفينة الاسطول الملكى البريطانى ، الذى سد عليهم الطريق فى البحر ، وضرب الكثيرون منهم وجرحوا ، وقد وصلت تنيا لارض اسرائيل من السويد ، حيث وجدت ماوى هناك فى اواخر الحرب العالمية الثانية بعد ان كانت سجينة فى معسكرات الاحتشاد والابادة فى المانيا النازية . وقد افترست ابويها واخواتها الصغار وحوش الجستابو امام عينيها فى غابات استونيا .

وقد ولدت تنيا فى كوفنا بليتا ، وكان ابوها موشى من اسرة زفى ويعمل تاجر اخشاب ، وكان آباؤه من التجار والحاخاميين ، وقد وصل آباؤه الى ليتا قادمين من بولندا حيث هربوا الى هناك من فرنسا ، وكان اجدادهم قد بنوا مستعمرة يهودية لليهود المنفيين فى مرسيليا فى الامبراطورية الرومانية فى ايام القياصرة بعد ان نفوا من ارض اسرائيل ارض الجمال .

مسعود يفرح : هاجر لاسرائيل لدى قيام الدولة وانشأ بيته فى منطقة لاخيش ، وقد ولد فى قرية فورزازات فى جنوب جبال الاطلسى فى المغرب ، وكان آباؤه صناع احذية ، ويشتغلون بصناعة الجلد فى قريتهم التى كانت مركزا صناعيا وتجاريا لقبائل البربر ، وكان مسعود يرى من منزله الذى تحيطه اشجار النخيل ثلوج الاطلسى الازلية التى تكسو قمم الجبال العالية ، وقد وصل آباؤه الى حدود الصحراء الكبرى منذ اجيال عديدة من مراكش وتطحان وفاس ، وقد وصلوا الى هناك قادمين من مصر بالطريق الصحراوى الطويل الممتد على طول شمال افريقيا ، هربا من سيوف الرومانيين بعد ثورة باركوخفا متجهين غربا ، ووصلوا ترحالهم جنوبا حتى استقروا بين البربر .

دافيد شالتئيل وصل لارض اسرائيل فى العشرينات كرائد شاب من المانيا ، وفى البلاد نظم اليهود للدفاع عن حياتهم فى حرب الاستقلال قاد المدافعين عن القدس ، وقد ولد فى هامبورج من اسرة عريقة من رجال البنوك والتجارة الذين عاشوا فى هذه الثغرة والتجارة الواسعة اجيالا عديدة ، وقد وفدوا اليها هربا من سيف المسيحيين فى البرتغال التى هربوا اليها من فظائع محاكم التفتيش فى اسبانيا ، وقد عاش اجداده فى اسبانيا عدة اجيال ، وساهموا فى الحياة التجارية والثقافية والروحية والفكرية فى الاندلس الاسلامية الزاهرة . وقد وصلوا الى الاندلس قادمين من بابل فى اعقاب فرسان الجهاد العربى ، وكانوا قد عاشوا فى بابل منذ نفى بنوخذ نصر ابناء شالتئيل من اورشليم .

حزقيال زكاى الذى بنى بيته فى كفار ادام بالقدس ـ هاجر لاسرائيل بعد
قيام الدولة ، ولد فى جبال كردستان بين قبائل بوزانى ، وقد عاش آباؤه بين الاكراد
المزهوين بانفسهم الاحرار والمقاتلين وكانوا يشتغلون بفلاحة الارض ورعى الغنم
اوبالحرف ، وكانوا يتحدثون مع الاكراد بلغتهم ، اما فيما بينهم فكانوا يتحدثون بلغة
الترجوم ، وهى الآراميةالعتيقة التى كانت شائعة منذ اجيال عديدة على السنة آبائهم
الذين كانوا يعيشون فى شمال ارض بابل ، منذ ايام حزقيال بن بوزى النبى ، وكانوا
اذا ذكروا صهيون رددوا العبارة الواردة فى المزمور ١٣٧ " لتنسنى يمينى اذا نسيتك
وفعلا ذكروا القدس وهاجروا اليها لخلاص واحياء جبالها التى تغطى قممها الثلوج .

يوسف زنانى من بكعين فى الجليل لم يهاجر لارض اسرائيل لانه من ابناء
القلة التى لم تنزح عن ارض اسرائيل ، وقد ولد آباؤه فى بكعين وكذلك آباء آبائه
الذين عاشوا اجيالا عديدة بين عرب بكعين ، ومر عليهم غادين ورائحين الاتراك
والمماليك وفرسان تيمور لنك والصليبيون والبيزنطيون والفرس والروم ، وكان آباء آبائه
بين المتعصبين المتفانين الذين قاتلوا فى قلاع الجليل ، وسقطوا بين الساقطين .
وكان من ابنائهم من استمع الى تعاليم وحكم يهودى شاب من الجليل ولد فى الناصرة
ويدعى يسوع بن يوسف النجار .

رؤبين سديه هاجر لاسرائيل لدى قيام الدولة ، وعاش بضع سنوات مع ابويه
فى موشاف للمهاجرين فى السامرة وعندما آن الاوان انضم للمظلات ، وقد ولد فى
مدريد باسبانيا التى فر اليها ابواه هربا من سيف النازية واتخذوا منها ماوى مؤقتا
وكان شابا حسن المنظر ، طيب القلب مخلصا مجتهدا مستقيما متحمسا ، وله يدان من
ذهب ، ولم يتخذ له حرفة ، ولكن كل ما كان يفعله انه كان يحسن عمله ويعمله بكل
قلبه ، وكانت له مهنة واحدة انه قائد جماعة للمظلات .

فى سنة ١٩٦١ لدى تسريحه من الجيش تزوج من فتاته دينا ، وكان اول مستوطن
فى عرد الصغيرة التى اخذت تزدهر على صخور صحراء يهودا فى الطريق لمسادا وسدوم
حيث بنى بيته وكون اسرته .

لدى اعلان التعبيئة عشية حرب الايام الستة التحق بكتيبة فى المظلات ، واقتحم
مع كتيبة تبة الذخيرة ، وصعد مع المقاتلين التلال المقابلة لجبل الهيكل من الشرق وسقط
امام باب الاسود اسفل الحائط المقدس على ناصية الطريق التى سار فيها آباء آبائه

الى المنفى . وقد كتب رؤبين ساديه قبل موته ببضعة ايام :

من مكان ما يوم ٥/٢٥ مساء رقم شخصى ٣٤٩٥٢٨ عريف سديه رؤبين بريد
حربى ٢٦٢٣ ..

تحية الى ليوبا العزيز
منذ يومين وانا هنا مع وحدتى ، وتوجد هنا مجموعة مثلى تخدم فى الوحدة
منذ سنوات عديدة ، وهناك اشخاص اقدم واكثر خبرة وكذلك شباب ، وعلى العموم
فكلنا مدربون جيدا ، وفى لياقة لاتقل عن لياقة الجندى النظامى .

لست اعلم كيف ينتهى الامر ، يحتمل ان نعود لديارنا قريبا ، ويرتب كل شىء
بسلام ، ولكنى لاارغب ان تعرف انه ليس بيننا احد يدرك خطورة الموقف ، اما عن نفسى ،
فاننى عندما هاجرت لاسرائيل لدى قيام الدولة ، وجدت بها كل شىء ، كل مالم
احصل عليه على الاطلاق ، وانا مدين للبلاد بكل هذا ، وآمل ان اسدد دينى بطريقتى
طريقة العمل والتنمية ..

حضر الى هنا اصدقاء كانوا قد انتقلوا من مدة لوحدات اخرى اسهل بسبب
حالتهم الصحية ، وقد حضر احدهم بالجبس على ساقه وهم اصدقاء فعلا ، وقد توسلنا
ليسمحوا لهم بالانضمام للوحدة من جديد . ولما كنت عاطفيا فاننى اتاثر جدا من مثل
هذه الاعمال ، وانا اعلم انا لو كنت مكانهم لسلكت نفس السلوك ، وقصارى القول فانك
تستطيع الاعتماد علينا .

المخلص
رؤبين

هذه الصورة تجسد النظرية الصهيونية ، فهنا فقط فى هذه البلاد وجد
الشاب اليهودى المنفى التائه كل شىء كما قال " كل مالم احصل عليه على الاطلاق ،
وانا مدين لها بكل هذا " . وقد سدد رؤبين سديه دينه بدمه وحياته .

x x x

معنى وجودنا

لقد تحقق حلم انشاء دولة يهودية الذى طالما حلمنا به وقاتلنا من اجله فى الخامس من آيار سنة ١٩٤٨ ، ولكن لازالت الاخطار التى تتربص بها كثيرة ، ولم تنقطع محاربة وجودنا حتى هذا اليوم ، وهدفنا الرئيسى الان هو تامين وجود الدولة حتى لاتمحى من فوق وجه الارض ، وتستطيع الوصول مع بقية امم العالم الى ابواب القرن الحادى والعشرين وان تسهم بما يفوق المنتظر من امة صغيرة فى حل المشكلات التى تواجه الانسانية .

ولكن من لايدرك الاحساس بالانفراد الذى يعيش فيه اليهود فى دولة اسرائيل الصغيرة لن يدرك نفوسنا والدوافع التى نتخذها نبراسا يهدينا الطريق وهاديا لنا فى اعمالنا فى الماضى والحاضر . لقد قامت الدولة اليهودية خلال صراع دائم مع جيراننا العرب حول هذه الارض ، والان يقيم فيها مايقرب من ثلاثة ملايين يهودى اى مايقرب خمس عدد اليهود فى العالم فحسب ، ويعتبر يهود اسرائيل انفسهم جزءا لايتجزأ من الشعب اليهودى الراغب او المضطر للهجرة للدولة اليهودية وهى اسرائيل . وكثير من اليهود فى العالم يرغبون حاليا فى ذلك وسوف يرغبون ذلك مستقبلا واسرائيل هى وستظل املهم الوحيد . لكن وجودنا هنا وتطلعنا لاستيعاب عدد كبير آخر من اليهود فى هذه الارض يعد استفزاز حرب للعرب ، فاسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لايثير نظام الحكم فيها ولا مساحة ارضها غضب جيرانها العرب ، بل وجودها نفسه كدولة وكمجتمع يهودى ، ولديهم رغبة قوية فى ابادتها من تحت السماء ، ان الذى لايدرك هذه المشكلة التى نعيش فيها لا يستطيع ان يدرك اى عمل او عيب فى حياتنا .

ان حقنا فى الوجود ومعنى وجودنا هنا هما فى نظرنا جوهر حياتنا وحمايتها ، ان من يدرك ويشعر بقوة العاطفة والطاقة الروحية والنفسية الضخمة التى كانت مكبوتة فى نفوس اليهود دون منفذ طوال الفى سنة ، وادت الى قيام الدولة وانطلاق الجهود التى بذلناها فى انشائها ، ان من يدرك كل هذا يستطيع ان يفهم زهونا العظيم بتحقيق هدفنا ، وايضا الخوف الذى ينهش قلوبنا دائما ، ويخرجنا عن طورنا احيانا من ان جميع التضحيات والكدح ، وكل التراث الروحى والمادى وكل ماعملناه وكدسناه هنا ، وكل مانبت ونما فى ارضنا يدمر ، ويندثر وكانه لم يكن . هذا الخوف الذى نعيش

فى ظلاله يحدد لنا اعمالنا ونقائصنا فى البلاد ، وردود الفعل السيكولوجية التى تبدو غامضة ، واحيانا غير معقولة لدى اعدائنا واصدقائنا ، انهم لن يفهمونا ويفهموا ماضينا بل ولا الحاضر واماننا فى المستقبل طالما لم يسلموا بالحقيقة ان من حقنا ان نعيش هنا وان نربى اولادنا وان نعمل وان نبنى وننتج وان نحب ، وان نزاول كل مايزاوله الناس ، وانه لا يمكن ابادتنا ، واننا سنقاتل من يبغون ذلك بكل وسيلة فى ايدينا عادية وغير عادية ، ان رغبتنا فى الحياة بين الدول كدولة لها نفس الحقوق هى الان بعد ان اقمنا دولتنا اقوى دافع يوجه حياتنا ويقودها .

اننا لن نستطيع الحياة كمجتمع ودولة معقولة الا عندما يزول هذا الخوف الفظيع الذى ليس له مثيل فى العالم خوف الابادة .

x x x

بداية العودة

كيف ومتى عدنا لارضنا ؟ حقا اننا عندما نفينا وتشتتنا بين الامم ظلت فى هذه الارض جالية يهودية وتكونت طوائف يهودية خلال مئات السنين فى القدس والخليل وصفد وطبرية وكذلك فى عكا وبعض المدن والقرى فى البلاد ، ولكن الى مائة سنة مضت كان ابناء هذه الطوائف كالمنفيين على ارضهم هم . وكان آلاف اليهود يفدون للبلاد على مر الاجيال ليبكوا خراب الهيكل ، او ليموتوا ويدفنوا فى الارض المقدسة ، ولكن اسلوب حياتهم وطريقة معيشتهم وآمالهم لم تكن تختلف فى اساسها عن يهود المنفى .

لم يكن الامر العجيب فى هذه الطوائف الصغيرة ، بل فى ارض اسرائيل وفى شدة الحنين الدينى والقومى لدى يهود المنفى والذى تغذت عليه الصهيونية ، وتطلعهم للعودة الى ارض اسرائيل فى يوم ما ، واقامتها من جديد كدولة يهودية .

بدات نقطة التحول من صهيونية الحنين الى صهيونية الاعمال الموجهة لتحقيق الامنية المسيحية لشعبنا منذ حوالى مائة سنة وكانت اسبابها : زيادة اضطهاد اليهود وظهور الحركة القومية الحديثة فى العالم التى كان اليهود يعيشون فيها ، وبدا التحول عندما قرر افراد من اليهود فى البداية الا ينتظروا ايام المسيح المنتظر وان يقربوا

النهاية بالعمل بالطرق والوسائل المعقولة .

كان اول هدف للعودة لارض اسرائيل هو فلاحة الارض . وكانت فلاحة الارض في منتصف القرن الماضي غريبة على يهود المنفى في حين كانت لاتزال القطاع الاقتصادي الرئيسي الذي يعيش عليه اى شعب ، وكان عليهم ان يتعلموها من جديد ، واصبحت الزراعة وفلاحة الارض الهدف الرئيسي الذي يرمز لرغبة اليهود في العودة لارضهم .

رأى هؤلاء اليهود من سكان العواصم والمدن والمدن الريفية في المنفى في العودة الى فلاحة الارض شيئا أكثر من تغيير الحرفة فقد اعتبروها طريق العودة الى صهيون .

وقد حقق الصهيونيين بداية هذه الثورة قبل ان يطلق عليهم هذا الاسم ، بتاسيسهم منذ اكثر من مائة سنة المدرسة الزراعية في مكفا اسرائيل ، وبحرثهم الخطوط الاولى في ارض بتاح تكفا وقد عملوا هذا بانفسهم وبكل قوتهم وعزائمهم .

لا يشبه هذا الامر على الاطلاق احتلال ارض باستيطان المستوطنين فيها على مر التاريخ الانساني ، فان المستوطنين في انحاء العالم الاخرى الذين يأتون عادة في اعقاب جنود جيش الاحتلال ، او يفدون لارض غير مسكونة لا يعتبرون الزراعة مجددا فقد كانت حرفتهم دائما في المجامع الذي قدموا منه ، وهم يواصلون الاشتغال بها في الارض الجديدة .

في السبعينات من القرن الماضي في ارض اسرائيل لم يحتل ولم يغتصب اوائل الصهيونيين اى اراض ، مع انهم رغبوا في الاغتصاب ما استطاعوا لانهم كانوا ضعافا متفرقين ، لقد اشتروا باموالهم — من ارض العرب . عادة ضد رغبة الاتراك حكام البلاد ، وغالبا — اراض بور لا يستطيع اصحاب الارض العرب انفسهم او لم يكونوا يرضون فلاحتها . ان هؤلاء اليهود لم يغتصبوا الارض بل اكتسبوا وتعلموا فلاحة الارض مدركين انهم بهذه الطريقة وبالعرق والجهد يستطيعون في المستقبل البعيد ايجاد القاعدة لعودتهم للوطن .

منذ مكفا اسرائيل وبتاح تكفا اصبحت الزراعة وفلاحة الارض هما قوة الجذب والاختبار للثورة اليهودية الحديثة ودليل الانتقال من صهيونية الحنين المجردة الى صهيونية العمل . ليس هناك ما يدعو لتكرار قصة انشاء القرى اليهودية الاولى ، ومستعمرات

البيلو (1) . ومستوطنات جمعيات عشاق صهيون بانواعها ، ومستعمرات البارون ، واوائل الكيبوتسات والموشافيم ، ولا داعى لسرد قصص تعلم الطلبة وابناء المدن الفلاحة فانها محفورة في ذاكرتنا ، ولكن من الضروري ان نعود ونذكر انفسنا وجيراننا العرب بالحقيقة التي تحدد علاقاتنا بهم بانه منذ بداية الاستيطان اليهودي في البلاد حتى قيام الدولة عندما واجهنا خطر التصفية التامة لم نغتصب منهم الارض التي اقيمت عليها مستوطناتنا ومستعمراتنا منذ حوالى مائة سنة عندما وصل الى ارض اسرائيل اوائل المستوطنين اليهود لم يجدوا أرضا لا يملكها انسان ، وفي تلك الايام كان في البلاد حوالى ثلثمائة الف نسمة معظمهم من العرب ، وكما ذكرنا اشترى المستوطنون الارض باموالهم وكان بين المشترين من اليهود افراد عاديون ، وتجار اراض وعلى عادة التجار اشتروا الارض من اصحابها او من تجار الاراضى العرب ، وباعوها للاخرين وعلى مر الزمن تكونت جماعة من اليهود الذين اشتروا الارض باموال التبرعات التي جمعتها اليهودية العالمية ، وكذلك اشترى البارون روتشيلد الاراضى واسكنها للمستوطنين اليهود ، كما فعل ايضا الصندوق القومي اليهودي الذي كونته الحركة الصهيونية في بدايتها منذ اكثر من سبعين سنة ، وبدا الصندوق القومي في شراء الاراضى التي تقع في ايديه من اجل الاستيطان اليهودي ، وتدفع الثمن من القروض التي تجمع في الصناديق الملونة باللونين الازرق والابيض (شعار بني اسرائيل) هذه الصناديق التي كانت توضع في منازل اليهود في جميع انحاء المنفى لكن شراء الاراضى لم يكن الا جزءا من عملية استيطان اليهود في البلاد ، ولم يكن دائما الجزء الصعب ، والبلاد علينا ان نذكر ايضا البلاد ونذكر الاخرين بها ، لقد كانت ذات سكان قلائل ، وكانت اجزاء منها مجدبة ومستنقعات وتلال متحركة ، واقام على الاراضى التي اشتريناها اليهود الذين وصلوا للبلاد افرادا متفرقين او جماعات صغيرة ، تتالف من بضع عشرات من الاشخاص على اكثر تقدير ، ونقش الطلبة اليهود من الشبان الذين وصلوا الارض اسرائيل منذ حوالى مائة عام وكان اغلبهم من شرق اوربا ، نقشوا على علمهم الشعار " يابني يعقوب سيروا ونسير " ، وادركوا باحساسهم اكثر منهم عن ايديولوجية شاملة : ان كفاحهم العنيف لم يبدأ الا بعد ان لبوا وقدموا لارض آبائهم . وصارعوا الكل وقبل كل شئ صارعوا انفسهم ، صارعوا اجسادهم ذات العضلات الهزيلة ، التي لم تتعود

---

(1) البيلو : اسم منظمة صهيونية وهو يتكون من الاحرف الاولى لكلمات آية في التوراة تقول : " يا ابناء يعقوب سيروا فنسير " .

الى الديار واحضان الابناء ، فلاحة الارض، واسلوب الحياة الحضرية مع اغراء العودة والبيئة المعروفة والحياة السهلة ، وصارعوا المناخ القاسي الذى لم يتعودوه ، والامراض التى لم يعرفوها واولها الحمى ، وقرر هؤلاء الشبان الثائرون ان يتخذوا لانفسهم لغة جديدة لدى هجرتهم للبلاد واستيطانهم للارض رغم ما فى ذلك من صعوبة ، وراوا ان تكون هذه اللغة هى لغة آبائهم اللغة العبرية القديمة ، التى لم تعد لغة كلام منذ سبق آباؤهم للمنفى واقتصرت طوال الفى سنة على اوراق الورق وصفحات الكتب العتيقة ، وصارعوا السلطان التركى الذى كان عليهم ان يشتروا اتباعه بالرشوة والملق والخداع والنفاق ، وصارعوا العرب منذ غرسوا اوتادهم الاولى فى الارض هؤلاء العرب من سكان البلاد ، وكان صراعا مزدوجا : اولا لفهم العرب ولغتهم حتى يستطيعوا ان يتحدثوا معهم ، وان يتجروا معهم ويعيشوا بينهم وبالاضافة الى ذلك وان يستعينوا بهم ، كان على اوائل المستوطنين ان يدافعوا عن حياتهم من القتل وان يحموا ممتلكاتهم من السرقة والسطو من جيرانهم العرب . فى تلك الايام كانت السرقة والسطو امرا مالوفا فى الامبراطورية العثمانية المنحلة ، وكان قبائل البدو والرحل تشتغل بالرعى وتقوم باعمال السلب والنهب والقتل ، وكذلك كان العرب من فلاحين وحضريين يعيشون فى خوف من السرقة والسطو والنهب ، وكان الثار اسلوبا يحرص عليه الكثيرون من العرب والمسلمين ، ولكن ليس صحيحا ان العرب الذين كانوا يهاجمون المستوطنين الاوائل ومستعمراتهم كانوا يفعلون هذا عن مجرد الرغبة فى السرقة والسلب ، وربما كانت هذه هى الدوافع الرئيسية ، ولكن منذ بداية المشروع الصهيونى فى البلاد اخذ جزء من عرب البلاد الذين اطلقوا على انفسهم العرب الفلسطينيين اخذوا يقاومون بالقوة عودة اليهود للبلاد ومحاولتهم الاستيطان فيها .

ما اهمية وما ضرورة ان ننبش دوافع اللصوص والقتلة ؟ ولكن الامر فى غاية الاهمية ، لانه من الضرورى ان نعرف ان النزاع العربى اليهودى قد بدا آنذاك منذ مائة سنة .

لم تكن لدى عرب فلسطين آنذاك ايديولوجية شاملة حيال الايديولوجية الصهيونية ، التى كانت هى ايضا فجة ، وقد كانوا يعملون بالالهام ، ولكن لا شك ان ردود العرب ، تعد طبيعية بالنسبة للسكان المحليين الذين يرفضون اى جسم غريب ياتى للاستيطان وسطهم ، ويتخذون سلاح المقاومة ويكافحون هذا الجسم الغريب .

ولكن لنعد الى مستوطنينا الاوائل ، لقد استنزف صراعهم مع انفسهم وما يحيط بهم كل قوتهم تقريبا ، ولم يصمد الكثيرون منهم للتجربة ، ولم تكن لديهم القوة الجسمانية ، ولم يكن لديهم الاصرار الكافى ولا العقيدة والمثابرة لمواصلة الصراع ، وعادوا من حيث اتوا ، وتوفى كثيرون غيرهم قبل الاوان من الامراض ولا سيما الحمى ، وبعد مرور جيل فى اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين واجهت تجربة الاستيطان اليهودى خطر الانهيار الجسمانى والروحى على السواء ، وسجلت فيما بعد فى تاريخنا كمحاولة فاشلة اخرى فى تاريخ الشعب اليهودى الطويل فى العمل على تقريب النهاية .

وايضا بهذا الصدد علينا ان نعود ونكرر الحقيقة من ان المستوطنين اليهود لدى قدومهم للبلاد اشتروا الارض بصورة قانونية كل دونم منها ، بل وفوق هذا اشتروا اسوا الاراضى ، وغير القابلة للفلاحة ، لا لرغبتهم فيها ، بل لان العرب كانوا غالبا يبيعون الارض التى من هذا النوع .

تركز الزراع العرب على مر العصور فى منطقة جبال يهودا والسامرة والجليل ، وقد دمر الاهمال والجدب الذى ساد البلاد فى اعقاب موجات الغزاة - الطبيعة وجعل الفلاحون يهربون من مناطق السهل الساحلى والاودية المتاخمة للجبال ، قسرا عنهم ، بسبب الحروب ، ثم فيما بعد بسبب توزيع الاتراك للاراضى على كبار الافندية فوجدوا انفسهم قد حشدوا فى زراعة الاراضى الجبلية .

كانت التلال المتحركة على طول الساحل والتى اشتراها اليهود آنذاك اثناء انعدام وسائل الرى المجرية ، وفى ظروف الزراعة المتخلفة . والارض البور ، وكان أراضى جديرة مستنقعات تجلب الامراض والحمى ، وكذلك اراضى وادى مرج بن عامر كانت فيها الرمال المتحركة ، لم يجر فيها عمليات صرف من قبل ومتعذرة الفلاحة ، وهكذا كان الحال فى جميع المستوطنات الاولى فيما عدا القلة النادرة الشاذة ثم اصبحت الاراضى فى المناطق التى على طول الساحل فى السهول الساحلية وفى الاودية من اخصب البقاع تغل محصولات ضخمة ، حتى انه ليصعب علينا ، بل يصعب ايضا على الاجيال التى ستاتى من بعدنا ان تصدق ان الامور كانت على هذا النحو فى الماضى ، وان يد الانسان هى التى غيرت الامور ، يد المستوطن اليهودى .

كان الثمن الذى دفعه المستوطنون الاوائل ضخما جدا ، فقد مات الكثيرون

من الامراض ، وقتل الكثيرون ، ودفع الكثيرون ممن تبقوا ، واستمروا فى طريقهم دفعوا ثمنا آخر ، فقد اضطروا ان طوعا اوكرها ان يختلطوا بالعرب المحليين ، وان يتعلموا لغتهم وعاداتهم ، واخذوا يستخدمون فى مزارعهم وفى الاراضى التى اشتروها عمالا من العرب ، وكان هذا طبيعيا فى ظروف تلك الايام ، واصبح المستوطنون افندية ومستعمرين بالمفهوم التقليدى لهذه الكلمة ، فهم مستوطنون اوربيون ، وفدوا لبلاد السكان المحليين واستوطنوها بايد عاملة رخيصة ، ووجدت حياة تعاونية بين المستوطنين من اوائل اليهود والسكان العرب الذين سلموا بهذا الاستيطان الاجنبى ، وتكيفوا معه كما حدث فى الماضى طوال عهود طويلة عندما رضوا بالمستعمرات الاجنبية فى وسطهم.

اخذت هذه الحياة التعاونية بين اليهود والعرب بالاضافة الى العوامل الاخرى التى ذكرناها تعمل على ذوبان حركة الاستيطان اليهودى وانحلالها ، ولكن عندما استحكمت الازمة اتت النجدة للمستوطنات اليهودية من جانب البارون روتشيلد الذى قام بدور عظيم فى مشروع الاستيطان ربما نستطيع ان نقدره اليوم اكثر مما فى عهده ، وكان البارون رجلا سخيا ، واخذ فى اواخر القرن الماضى يغدق الاموال على المشروع وينفق الاموال على تعليم المستوطنين الطرق الحديثة فى الزراعة والادارة ، وقد اتضح اليوم بصورة لاتقبل الشك انه دون معونة البارون بالاموال ، والتدريب لما استطاع رجال الهجرة الاولى ان يصمدوا .

x x x

المشروع الصهيونى على ابواب القرن الحالى

فى اوائل القرن الحالى لدى ظهور هرتزل وبداية الحركة الصهيونية السياسية وانشاء اجهزتها السياسية (الكونجرس) والاقتصادية (خزانة الاستيطان اليهودى والصندوق القومى اليهودى) اخذت حركة العودة الى صهيون بعدا جديدا ، وليست شيئا جديدا ، واصبحت حركة سياسية يهودية عامة ، لها هدف واضح هو انشاء مأوى آمن للشعب اليهودى فى ارض اسرائيل ، وبعبارة ابسط واوضح انشاء دولة يهودية فى ارض اسرائيل — ولم يخف هرتزل هدفه هذا .

ان الادعاء الذى يقال بان العرب وام العالم لم يكونوا يعرفون هدف الصهيونيين فى ارض اسرائيل ليس صحيحا ، فقد كان هذا الهدف معروفا منذ نشر هرتزل كتابه " دولة اليهود " فى سنة ١٨٩٦ ، ولا يمكن ان يخطىء احد فى هذا ، فقد ادركت حكومات تركيا وانجلترا والمانيا وغيرها من الدول التى لجأ اليها هرتزل يطلب معونتها ادركت ادراكا تاما امنية وتطلعات هذا الرجل الذى كون حركة سياسية عالمية ، كما ادركت مايطلبه منها وهو انشاء دولة يهودية فى فلسطين او فى جزء منها .

كذلك الحركة القومية العربية التى اخذت تخرج الى النور فى دمشق واماكن اخرى فى تلك السنوات المصيرية التى ولدت فيها الصهيونية السياسية — كانت تدرك بدء ثيا النظرية الصهيونية واخذت تنمى ضدها مقاومة ايديولوجية وسياسية .

ادت ضخامة حلم هرتزل ، هذا الحلم السابق لاوانه ، والذى لم تنضج الظروف لتحقيقه آنذاك ، ادت فى اوائل القرن العشرين الى ازمات واحباطات قاسية فى الجزء الاخير من حياة هرتزل والى انخفاض فى الحركة الصهيونية .

كانت الوعود التى تلقاها هرتزل من ساسة العالم سلبية ، وبدت حركته واهدافه فى نظر واضعى السياسات العالمية كهذيان ، وقام من بين الشعب اليهودى الذى تحمس الكثيرون منه لنظرية هرتزل ، اعداء للصهيونية ، فقد اعتبرها المتدينون المتطرفون كفرا ، واعتبرها الاشتراكيون اليهود الاوائل هربا من المشكلات الحقيقية للمجتمع اليهودى المضطهد ، وفى الواقع رفض الصهيونية معظم يهود العالم سواء هؤلاء الذين ظلوا فى دولهم ولم يرتحلوا ، ام الذين هربوا من اوربا الى الدنيا الجديدة الى امريكا .

وبينما المسالة اليهودية فى مفترق الطرق — بين استيطان مخلخل فى ارض اسرائيل تحت نير الاتراك وازمة عميقة تجتاح الصهيونية السياسية ، وصل لارض اسرائيل اوائل الهجرة الثانية .

حاول هؤلاء الشبان والشابات ان يضعوا نظرية ايديولوجية صهيونية شاملة ، واتخذوا هدف الصهيونية السياسية — عودة اليهود لارضهم ، واقامة مأوى آمن فى ارض اسرائيل للشعب اليهودى ، ووضعوا نصب اعينهم هدفا ثانيا ، وهو تكوين مجتمع يهودى جديد فى ارض اسرائيل ، يقوم على اساس قيم عالمية من العدل والمساواة وحرية الانسان ويستمد قوته من النظرية الاشتراكية ، واضافوا للصهيونية بعدا جديدا

فقد اضافوا الفكرة البعث القومى التى تقوم عليها الحركة الصهيونية اعتبارها حركة لثورة اجتماعية ، فى الواقع ان اوائل المستوطنين اليهود فى السبعينات والثمانينات من القرن الماضى كانوا يريدون تغييرات اجتماعية ويدل على ذلك اتجاههم للفلاحة الارض واشتغالهم كفلاحين يضاف الى هذا انهم كانوا هم والايديولوجيين الصهيونيين الاوائل يبغون ان يكونوا فى ارض آبائهم مجتمعا يهوديا يختلف عن المجتمع الذى عاشوا فيه من قبل ، ولكن هذه الرغبة كانت فطرية جدا ، وتطلع بعضهم لتكوين مجتمع متدين مثالى فى ارض الاباء ، وتصور البعض الاخر المجتمع اليهودى على النحو الذى كانت عليه فى ايام المجمع الدينى الكبير (السنهدرين) يسوده اسلوب الحياة اليهودية كما اقرها حكماء المجمع .

كذلك هرتزل لم يكن يرى ان انشاء دولة يهودية هو مجرد مشروع سياسى بل ايضا مشروع اجتماعى ، وكان يسعى بكل قوته لكيلا تكون الدولة اليهودية كاى دولة بل دولة جميلة عادلة ، ومتسامحة ، يستطيع ان يعيش فيها اليهود وغير اليهود متسامين فى تفاهم بل ومحبة متبادلة ، ولكن هرتزل كان يعتقد ان حلمه سيتحقق باشارة يد ، بواسطة العبقرية اليهودية ، وصور لنا دولة مثالية رائعة فى كتابه الدولة القديمة الحديثة ، ولكنه لم يذكر فيه كيف يمكن تحقيق هذه الدولة عمليا .

اما فلاسفة الهجرة الثانية فقد جمعوا بين النظرية الصهيونية وبين الاشتراكية ، وقد منح مزج هاتين النظريتين الثوريتين وتسييرهما فى مجرى واحد — هؤلاء القلة من الاشخاص الذين كونوا الحركة العمالية قوة ضخمة لا تقاس اطلاقا بعددهم اتاحت لهم التغلب على المصاعب والعقبات العديدة .

ربما ادرك هؤلاء الشبان او احسوا بنوع من الالهام انه لا يكفى الدعوة لدولة مثالية وعرض اهداف سامية فحسب وانه لتحقيق اهدافهم الصهيونية الاشتراكية عليهم ان يحققوا نظريتهم بانفسهم . واختاروا ان يكونوا الحديد الذى يتلقى ضربات مطرقة الايديولوجية لدى ضربها على سندان قدر شعبهم وارضهم . لم تكن بداية هؤلاء فى ارض اسرائيل باسهل من بداية رجال " بيلو " . انهم فعلا وجدوا بضع عشرات من المستعمرات اليهودية ، ويهودا ممن يفلحون الارض ، وبداية مدن او احياء يهودية ولكن هذا كان قذى فى عين الاشتراكيين ، فقد وجدوا فى البلاد يهودا يملكون ضياعا ومزارعين وتجار بدوا فى نظرهم كاقطاعيين وبورجوازيين من النوع الذى عرفوه فى دول المنفى

وكان عليهم كاشتراكيين ان يحاربوهم ، ولكنهم كيهود وصهيونيين مضطرين ان يقطعوا معهم شوطا طويلا لبناء مجتمع ودولة يهودية ، وكانوا مع قسوة هذا المناخ يعيشون على الخبز الاسود والمياه الملوثة كما كانوا يعانون من انفصام شخصية رجال الهجرة الثانية .

وكان تبريرهم لانفسهم انهم يحتاجون لاكثر من الاستيطان فى الارض وان يفلحوا الارض . انهم يحب ايضا ان يصبحوا بروليتاريا عمالا فى القرى وفى المدن ، وان يتعودوا العمل اليدوى من عزق وجرف وقطع الاحجار ونحتها واى عمل آخر شاق فى الحقل او البناء .

كانوا يأملون بهذه الطريقة ان يصدقوا انفسهم كصهيونيين وفدوا لتعمير الصحارى ، وكعمال اشتراكيين يمدون ايديهم فى كل عمل .

ووضعوا انفسهم عمدا فى قاعدة الهرم الاقتصادى ، لان نظريتهم الاشتراكية تنص على ان بهذه الطريقة وحدها يمكن ان نقيم عالما جديدا ومجتمعا جديدا عادلا غير مبنى على الاستغلال ، ولانهم كانوا يرون انه لدى انتصاب قامتهم من فوق المحراث يستطيعون ان يرفعوا اعينهم نحو السماء لاصلاح الانسان والشعب .

ربما كان رجال موجة الهجرة الثانية اقل استعدادا من سابقيهم للتكيف مع ظروف البلاد ، لانه كانت لهم توقعات ضخمة ، ولانهم كانوا ايضا نافذى الصبر وكانوا يريدون الوصول للهدف وثبا ، وقد عاد الكثيرون منهم بل الاكثرية من حيث اتوا خائبى الرجاء ، اما الاقلية التى بقيت وصمدت اخذت تضع وسائل جديدة لبناء الصهيونية ، وقد بدوا آنذاك شاذين تماما لا فى فلسطين وحدها التى يحكمها الاتراك

بل كانوا ايضا شاذين عن زمانهم . واليوم فقط فى السبعينات نستطيع ان ندرك ضخامة الحلم الذى كان يراودهم ، لقد كانوا يدركون الاسس الاولى للحركة التعاونية الاستهلاكية والانتاجية ، والنقابة المهنية ، والمؤسسات العلاجية لجماعات العمال ، وفوق كل هذا اقامة الكيبوتس والموشاف كاسلوب من الحياة العمالية اليهودية فى ارض اسرائيل ، وكاداة فعالة وكاملة لتحقيق امانيهم الصهيونية الاشتراكية .

اضاف رجال الهجرة الثانية بعدا جديدا لايديولوجيتهم ، وهو ضرورة تكوين قوة يهودية مسلحة تدافع عن الاستيطان اليهودى وعن اليهود عامة فى ارض اسرائيل .

حقا لقد كان اليهود والسلاح على طرفي نقيض في المنفى — وان كان تاريخ اليهود الطويل في المنفى يروى لنا عن يهود شهدوا السلاح (القبائل اليهودية التي حاربت في اليمن) وقد حارب اليهود أيضا جيوشا مختلفة ، ولاسيما في العصر الحديث ، عندما اخذوا يحصلون على حقوق المواطن ، كما كانت هناك حالات ليهود اخذوا للجيش بالقوة ، كما في ايام نيقولا الاول في روسيا القيصرية ، ولكن هذه الحالات كانت شاذة فان القاعدة ان اليهود المشتغلين بالتجارة والمنعزلين في الجيتو هم ضحايا الاضطهادات وكانوا العتبة التي تطأها اقدام الجيوش النظامية او المقاتلون غير النظاميين في الدول التي يقيمون فيها ، لقد كانت حياتهم دائما معلقة ، وممتلكاتهم معرضة للنهب ، وقد انقذوا حياتهم واحيانا ممتلكاتهم باحدى طريقتين يعرفهما يهود المنفى بالفدية او التهريب وبالبحث عن مأوى امن جديد .

لم يكن مصير اليهود القلائل في ارض اسرائيل الى عهد الصهيونية الحديثة يختلف في هذا المجال عن مصير اليهود في المنفى كما لم يختلف في مجالات اخرى مثل اسلوب الحياة وموارد الرزق وما الى ذلك .

ان بعض اوائل دعاة الصهيونية مثل الرابي القلعي كانوا يحلمون بجيش يهودي ولكن المستوطنين في المستعمرات الاول الذين وجدوا فور قدومهم للبلاد انهم محتاجون لحماية انفسهم وممتلكاتهم ، اختاروا في البداية الطريق الذي كان متبعا في دول المنفى وفي الشرق الاوسط بان اشتروا لانفسهم الحماية والحراسة باستخدام حراس عرب او بدفع الفدية ومقابل الحماية للصوص ، حقا كانت هناك بداية لتنظيم حراسة يهودية ، وكان هناك حملة سلاح من اليهود الذين يقومون بحراسة المستعمرات ولكن هذه كانت حالات شاذة بصورة عامة ، والحراس من امثال ابراهام شبيرا في بتاح تكفا كانوا فريدين واحيطت اسماؤهم بهالة ، وقصص اسطورية لازالت تروى حتى اليوم .

كما ان هرتزل حلم بانشاء جيش في الدولة اليهودية ، ولكنه كان يعتقد ان الدولة اليهودية ستقوم بموافقة الدول الكبرى ، وفي ظل قانون دولي ، ولذلك انخدع اذ فكر ان اقامتها لن يصحبها صراع دموي طويل ، ولذلك فان الجيش في الدولة الخيالية كان مجرد رمز للاستقلال السياسي وليس جيشا مقاتلا . اما اليهود ذوي العضلات المفتولة والمكابيون الجدد الذين نادى بهم في دولته (في كتابه) وكان يرى فيهم اشخاصا رياضيين وليس مقاتلين .

لم يستطع اوائل الهجرة الثانية ان يسلموا بالواقع بان يعيش اليهود تحت الحماية في ارض اسرائيل ، وهذه الظاهرة هي احد الاسباب التي جعلتهم يتركون بلاد المنفى ويهاجرون الى ارض اسرائيل ، وكان رايهم في تشكيل المجتمع اليهودي في البلاد ان تكون عناصر كاي شعب طبيعي يجب ان يتكون من الفلاحين والعمال . ولم يستطيعوا ان يهضموا ان هؤلاء الزراع والعمال لا يسيرون باسلوب اي شعب سليم ولا يدافعون عن انفسهم ضد من يهاجمهم .

لم يكن لديهم — ولا يمكن ان تكون — اي نية لانشاء جيش يحارب حكام البلاد الاتراك ، انهم ارادوا ان يكونوا قوة مسلحة تلائم الظروف التي كانت تسود البلاد آنذاك قوة من الحراس المسلحين يحمون انفسهم من اللصوص المسلحين كما هو الحال في ذلك الوقت في الشرق الاوسط الجامح . ولكن الغريب ان يكون هؤلاء الحراس من اليهود ، فلا غروا ان حاكى الحراس الاوائل اساليب العرب في البداية وكذلك طرق قتالهم وطريقة ركوبهم وقوانين الحراسة وتفصيلاتها ، وتعلموا منهم تقاليد الحرب الصغيرة التي كانت تدور بين المستوطنين اليهود والعرب الذين كانوا يغيرون عليهم وكان معظمهم من اللصوص وقطاع الطرق .

x x x

شعب البلاد

في العقد الاول من القرن العشرين لدى انحلال الامبراطورية العثمانية ، وارتفاع موجة القومية الجديدة ، ازدهرت حركة القومية العربية ولاسيما في سوريا المجاورة لارض اسرائيل .

اخذت هذه الحركة الشابة تنظر بعين الريبة لاعمال اليهود في ارض اسرائيل ، واذا كان العرب قد سلموا باقامة المستعمرات اليهودية المتفرقة التي قامت في اواخر القرن التاسع عشر ، فان اعمال رجال الهجرة الثانية اثارت الريب المتزايد لدى اصحاب حركة القومية العربية ، فقد رأوا يهودا جددا لهم اهداف جديدة وغريبة جدا ، يهودا يشتغلون في حماس في اي عمل شاق وحقير ، ويدافعون عن انفسهم بايديهم .

كانت معاملة الصهيونيين الاوائل للعرب عامة وعرب فلسطين خاصة غير محددة ، وحسب الظروف ، فهم لم يستطيعوا ان يتجاهلوا ان موطنهم الذى يعودون اليه تسكنه جالية عربية منذ اجيال عديدة ، وانه يجب عليهم ان يحلوا لانفسهم مشكلة كيف يعيشون فيه سويا .

حاول الصهيونيون الاوائل القلة المتفرقون حل هذه المشكلتبان عاشوا حياة يومية تعاونية مع جيرانهم العرب مع شعب البلاد الذى وجدوه هناك ، وكان العرب الذين يسكنون فلسطين التى يحكمها الاتراك لدى بداية الهجرة الصهيونية يعيشون موزعين فى انحاء البلاد كلها ، وكان معظمهم يعيش فى المدن والقرى فى المناطق الجبلية ، اما القلة فكانت تعيش على طول الساحل وفى الاودية .

كان الصهيونيون الاوائل الذين تربوا فى احضان التوراة والاساطير الدينية والمشنا والتلمود والادب الرومانسى مثل قصة " محبة صهيون " و " ذنب السامرة " يعتقدون ان هذه الارض كانت تاوى فى العصور القديمة عندما كانت تفيض لبنا وعسلا ، من ثلاثة ملايين من السكان حتى خمسة ملايين ، وان كل تل خرب كان ذات يوم مدينة صاخبة ، وان جميع الجبال والتلال كانت مغروسة بالغابات والاحراش والبساتين وان الجبال كانت تسيل بعصير الفواكه والجبال تفيض بالخيرات ، وكانوا يعلمون ان القدس كانت عاصمة ملك عظيم يسكنها عشرات الآلاف من الاشخاص وانه كان بها معابد وقصور ، واعتقدوا انه من الطبيعى أكثر ان يكون فى هذه الارض مكان لملايين الاشخاص من يهود وعرب يعيشون معا كل تحت كرمة وتينة .

واذا كانت الطريق لتحقيق هذا الحلم هى طريق طويلة جدا ، واذا كانت الحياة اليومية قاسية جدا ، واذا كان شعب البلاد ينقض عليهم بين الحين والاخر ، فانهم تعزوا بانهم سيكونون الاوائل ، وقال الاخ لاخيه سنكون من البناة .

ماذا عن مستقبل العلاقات مع الاتراك وحكام البلاد ومع العرب ؟ وقد ردوا على انفسهم بشان هذه الاسئلة بانهم ليسوا فريدين حتى يعزفوا عن العمل اليدوى ، ولكن ليس عليهم ان يتموه وهكذا عاشوا وعملوا فى اتساق عجيب ، ويحتمل ان اى فكرة واقعية كانت ستؤدى بهم الى اليأس ومغادرة البلاد . وكان بين أوائل فلاسفة الصهيونية وايديولوجيتها اشخاص يقظون مثل احاد هاعام الذين رأوا منذ البداية

المشكلة العربية بكل ابعادها ، وكانوا على يقين من انه لا مفر من الصدام وشعب البلاد ، وحاولوا بطريقتهم ان يجدوا حلا لرغبة اليهود فى العودة لارضهم وكذلك لمشكلة العرب سكان البلاد .

وهرتزل لم يغفل هو ايضا مشكلة السكان العرب فى البلاد ولكنه كان يعتقد انه فى العالم المتنور الذى يحلم به سوف تتطور التكنولوجيا والميكنة ويسود السلام والتقدم وان هذه العملية لن تتخطى الشرق الاوسط ، وسوف يصبح مركزا دوليا للتجارة والصناعة وسيكون فيه مكان ايضا لدولة يهودية ، يعيش فيها اليهود والعرب جنبا الى جنب فى ظل علاقات من حسن الجوار ، وان هذه الدولة ستجلب الرخاء والسعادة والنهضة لا للسكان العرب وحدهم ، بل ايضا للدول العربية المجاورة .

كان هرتزل يرى فى اليهود العائدين لارضهم - وهذا طبيعى بالنسبة له ولعصره - حاملى رسالة الرجل الابيض ، الذين سيقدمون للشرق ثمار الحضارة والمدنية الغربية ، التى ستخلق تعاونا مع المدنية الشرقية وتوجد علاقات ودية فى كافة مجالات الحياة .

عندما نظر هرتزل حوله ورأى الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى - بريطانيا وفرنسا والمانيا وغيرها ترسل خيرة بنيها لتنقل النهضة لاسيا وافريقيا ، فخطرت فى نفسه فكرة ان الشعب اليهودى الذى موطنه الشرق ثم نفى منه قسرا واكتسب خير القيم وخصال الغرب هو خير من يحمل مشاعل النهضة والسلام ، واليهود ليسوا كغيرهم من الاوروبيين يفدون لارض لاتخصهم ، بل ان لهم الحق فى العودة لارضهم المفقودة .

لم يكن فى دولة هرتزل المثالية مكان لحروب عالمية او ثورات اشتراكية مخضبة بالدماء ، ولا لحركة قومية عربية متطرفة لا تسمح - عن حق من وجهة نظرها - بأن تقدم مكانا فى البلاد لاى شعب آخر ، او مكانا فى الدول العربية الحديثة التى ستقوم وتعيد لهم امجاد ماضيهم الزاهر ، ولم يكن فى دولة هرتزل المثالية مكان تاكل قلة الغرائز الشريرة ، وللشعارات التى تنادى بان ارض اليهود سقطت بالدم والنار وبالدم والنار تعود " او " دين محمد بالسيف " .

كان رجال الهجرة الثانية يختلفون عن رجال الهجرة الاولى الذين لم يضعوا لانفسهم نظرية ايديولوجية متكاملة بل كانت نظريتهم بسيطة وساذجة ويختلفون عن هرتزل الذى حل المشكلة العربية حلا مثاليا بالدولة المثالية . اما رجال الهجرة الثانية

فكانوا يبغون ان يقيموا مشروعهم على اساس نظرية صهيونية اشتراكية ، وان يتناولوا مشكلة عرب البلاد ويجدون لها حلا فى موسوعتهم الايد يولوجية .

لم يكن الحل سهلا ، وتورطوا فى المشكلة دون ان يجدوا حلا محكما وواضحا ، وكانت نظرية بيرل كاتزنلسون ودافيد بن جوريون وزملاؤهما سما فى مشكلة عرب فلسطين غامضة جدا ، يحيطها الكثير من علامات الاستفهام ، وكان منهم من يرغب — وهى رغبة طبيعية — ان يتهرب من المشكلة ، ويترك حلها للمستقبل (لا زالت هذه الرغبة فى تجاهل مسألة عرب فلسطين تلازمنا حتى هذا اليوم) انهم لم يستطيعوا ان يتجاهلوا التأثيرات اليومية للمشكلة ، لان هذا غير ممكن ، فقد كانوا يصادفونها فى كل خطوة وفى كل شبر ، فى شئون الاراضى ، والعمل ، والدفاع والمعارك الصغيرة ، ولكن رغم كل ذلك كانت تراودهم رغبة خفية بعدم التعرض لهذه المشكلة فى المجال الايد يولوجى ويحتويهم شعور بعدم الارتياح المختلط بالامل بان المسألة سوف تسوى على نحو ما وتزول من تلقاء نفسها . (صحب نظرة القوميين العرب الينا والى مشكلتنا فى البداية ميل كهذا ولكن بصورة أكثر مبالغة ، وقد آملوا هم ايضا ولكن بشكل اقل واقعية ، انه على نحو ما سوف يختفى اليهود من خريطة الشرق الاوسط وانعدم لديهم الاحساس بالواقع بصورة تفوق ما حدث لدينا) .

كان من بين رجال الهجرة الثانية من كان يامل بان العرب سوف يتركون البلاد ويرحلون بمحض ارادتهم لدول اخرى وان هذا سوف يحل المشكلة ، وكان منهم من يعتقد انه ليس هناك طريقة لانشاء دولة يهودية صهيونية اشتراكية الا طريقة الدماء والثار ، واتضح لكبار وخيار فلاسفة الصهيونية الاشتراكية انهم اذا ارادوا ان يكونوا صادقين مع انفسهم ومع نظريتهم يجب عليهم ايضا ان يجدوا حلا فى تخوم الدولة اليهودية الاشتراكية لمشكلة عرب البلاد ، وقد ادت هذه الدوافع ببعض الفلاسفة الصهيونيين الاشتراكيين فى بدايتها ان يفردوا فى نظريتهم مكانا مرموقا لرفع مكانة الفلاح والعامل العربيين اللذين يرونهما فى اسفل الدرج ، وكان من بينهم من أخذ يضع أفكارا غامضة عن الدولة والمجتمع الاشتراكى ، الذى يعيش فيه الفلاحون والعمال الى جانب الفلاحين والعمال العرب والذى سيتحول فى نهاية الامر الى دولة ثنائية القومية .

وطارد الحركة العمالية اليهودية ومؤسسيها وأقض مضجعهم هذا التناقض

بين الرغبة الشديدة المتقدة بالاحسان لشعبهم وانشاء مجتمع عادل فى أرض اسرائيل للشعب الشقى والمضطهد والذى مكانه الوحيد هو هنا ، وبين ضرورة اتباع العدالة مع عرب البلاد ، والا يستوطنوا البلاد على حسابهم ولم يخف هذا التناقض الذى يعذبهم حتى يومنا هذا .

x x x

أرض الاسباط الاثنى عشر

واجهت الصهيونية فى بدايتها مسألة اخرى كان لها تأثيرات هامة وحيوية لفهم كيف ولماذا نعيش حاليا وهى ارض اسرائيل التى تطلع اليها الصهيونيون الأول من ناحية المساحة والحدود ، ويرتبط بهذه المسألة مسألة معقدة هى مسألة الحقوق التاريخية التى تعد حتى اليوم متاهة متشعبة وصخرة خلاف بيننا وبين انفسنا وبين جيراننا العرب .

دون دخول فى متاهات غيبية الوعد الالهى لابراهيم ونسله بان يورثهم الارض التى تمتد من نهر الفرات الى نهر مصر (ونعتقد ان القصد هو احد فروع النيل ، ويكفى ان نذكر انه طول تاريخ اسرائيل الطويل فى بلاده لم يستوطن الشعب اليهودى فى هذه التخوم ، ولم يتبلور تاريخ الشعب اليهودى وحضارته .

لكن يجب ان نذكر ان ارض الاسباط الاثنى عشر هى ارض اسرائيل التاريخية التى قام فيها الشعب اليهودى وتبلورت فيها حياته ، وازدهر فيها نتاج روحه ، وبها ملك ملوكه ، وتنبأ انبياؤه ، وعنها قاتل طول ايامه ، ومنها نفى ونجد ان تخوم ارض الاسباط الاثنى عشر اقل من ذلك بكثير ، من سفوح جبال لبنان وجبل الشيخ فى الشمال وحتى البحر الاحمر وخليج العقبة وعصيون جبر فى الجنوب ومن البحر الكبير وهو البحر المتوسط وحتى الحدود الشرقية لمستوطنات قبائل رؤوبين وجاد ونصف قبيلة منشى ، اى حتى مرتفعات الجولان ، وجلعاد وباشان ، وهذه المساحات تطابق الى حد ما تخوم ارض اسرائيل الغربية وشرق الاردن فى عهد الانتداب البريطانى ، ولم يضمها

البريطانيون لانتدابهم عبثا ، فقد وضعوا نصب اعينهم حدود ارض الاسباط الاثنى عشر بصورة ما ، وفى الواقع ان هذه الارض قد مزقها على مر الاجيال الحروب والغزاة من الشمال الى الجنوب ، فغزاها الفلسطينيون والعمونيون والموابيون والادميون وغيرهم وقاتلوا اليهود بلا هوادة ، ولم يحتفظ اليهود بالبلاد كاملة مدة طويلة ، وان كانوا يحتفظون بجزء هنا وجزء هناك ، كما ادت الانقسامات بين اليهود الى تكوين ممالك كانت الوحدة تحارب الاخرى فى شراسة وضراوة ، ورغم كل ذلك كانت هى الارض التى ظل يحلم بها يهود الشتات كل ايامهم ، وأقسموا ان يعودوا ويبنوها واحتفظوا بجغرافيتها فى قلوبهم الفى سنة ، ودرسوا جبالها وأوديتها وانهارها واياما من صفحات الكتاب المقدس حتى عرفوها عن ظهر قلب ، وكانت مدنهم وقصورهم ، وقراهم وحقولهم (تعيش بين صفحاته البالية ، وتبرز لهم من بين سطوره شخصيات قضاتهم (وأنبيائهم وملوكهم ووزرائهم ومن كلماته تصدح فى قلوبهم اغانى المزامير ، كل هذا بعث فى أرض الاثنى عشر سبطا ، حيث وقعت بداية تاريخ اليهود وهناك ولد الشعب اليهودى ، وهناك عاش ، وهناك تضرج فى دمائه ، ومن هناك نفى .

فى هذه الارض ارض الاسباط الاثنى عشر عاش الاباء ، ومنها نزحوا الى مصر ، واليها قادهم موسى ، ومن اجلها قاتل يهوشع ، وبها عاش يفتاح وشمعون وجدعون وايهود ، وبها سعد شاؤل والى محاربيها هرب داود فى القدس واسس عاصمته وعليها ملك سليمان ، وهى التى مزقها يربعام ، وبها تنبأ اشعيا هو وعاموس وهوشع وارميا ، ومنها نفى الاسباط العشر ، واليها عاد عزرا ونحميا ، وبها قام ملك الحشمونائيين ، وفى انحائها انشأ هوردس القصور والحصون ، وعنها وعن مناطقها ومدنها قاتل الغيورون حربا يائسة ، ومنها ساق الرومان قوافل المنفيين والاسرى ، وبها ختمت التوراة ، وكتبت المشنا ، وبها درس التلمود الاورشليمى .

هذا هو تاريخ الارض والشعب متداخلان ، الذى لم تستطع الفا سنة من الانفصال المادى ان تمحو الاثر العميق الذى تركه الواحد فى الاخر والعهد الذى بينهما .

وعندما تضرع اليهود فى صلواتهم قائلين " العودة ياقضاتنا كسابق العهد " كانوا يقصدون القضاة فى ارض الاثنى عشر سبطا ، وعندما هتفوا : " حدود ايامنا كالعهد الماضى " كانوا يقصدون بالعهد الماضى ، ماضيهم فى ارض الاثنى عشر سبطا " .

عندما بدأ الصهيونيون الأوائل منذ حوالى قرن فى العودة الى البلاد ، لم تواجههم على الاطلاق مسألة حدودها ، فقد وضعوا نصب اعينهم أرض العهد القديم ، كل أرض الاثنى عشر سبطا ، وكان على استعداد للاستيطان فيها فى أى قطعة أرض يسمح لهم الاتراك بالنزول فيها ، ويبيعها لهم العرب وكان من الطبيعى انه لدى وصول اوائل المستوطنين الى البلاد بطريق البحر ، ان يشتروا أراضى رملية من أراضى السهل الساحلى ، واستوطنوها وأطلقوا على مستعمراتهم الاولى بتاح تكفا (باب الامل) وريشون لتسيون (الاول لصهيون) ، واشتروا أيضا اراضى صخرية شرقى الاردن وأرادوا ان يستوطنوها ، ولكنهم لم ينجحوا .

وماذا عن هرتزل ؟ ماحدود الدولة التى كان يتطلع اليها وما مساحتها ؟ لقد كان دافعه الاساسى ضائقة اليهود ، والشعور بانه اذا لم يعد اليهود الى التجمع فى دولتهم سوف تحل بهم كارثة ، ودفعه هذا الشعور الى محاولات يائسة للمسارعة بانشاء الدولة بخطوات سريعة لم يكن لدى الشعب اليهودى والعالم فى عصره استعداد لها ، ولما يئس من معونة الامبراطورية العثمانية ، حاول ان يتفاداها ، وان يحصل من البريطانيين - حكام مصر آنذاك - على امتياز بالاستيطان اليهودى جنوب ارض اسرائيل : فى منطقة العريش ، ورغم ان جغرافية الدولة اليهودية الواردة فى التوراة كانت ذات اهمية ولكن لم يفت فى عضده ان العريش تقع على مسافة مائة كيلو متر جنوب ارض الاسباط الاثنى عشر ، ولم يحل بينه وبين هدفه الكبير وهو انشاء الدولة اليهودية ، وعندما فشل هذا المشروع ، ابدى استعداده ان ينشئ دولة يهودية فى اوغندا بافريقيا - كمرحلة انتقالية - ولكنه صادف معارضة شديدة من معظم الصهيونيين الذين اثبتوا له الى اى حد ترتبط الصهيونية بصهيون ، وانه ليس هناك اى بديل لارض اسرائيل فى وعى الشعب اليهودى واحساسه ، وانها وحدها التى تجمع الطاقة الضخمة اللازمة لاطلاق الثورة اليهودية القومية .

وقد تنبأ هرتزل فى كتابه " الارض القديمة الجديدة " بانشاء دولة يهودية فى أرض اسرائيل مساحتها غير محددة تماما ، وان كان راى هو ايضا ارض الاسباط الاثنى عشر هى الاساس الجغرافى لهذه الدولة ، وقد ركز هرتزل على حشد العبقرية اليهودية والتكنولوجيا الحديثة فى ارض اسرائيل ، وتحويلها لدولة عصرية تكمل مدنها وقراها العديدة احداهما الاخرى ، ويرتفع مستواها لمستوى الدول الاوروبية الصغيرة

المتطورة والكتظة بالسكان .

شعر رجال الهجرة الثانية ان الدولة اليهودية لا يحتاج الوصول اليها للخطى السريعة ، بل ان تحقيقها يحتاج لتحديد اسلوب حياة فى داخلها واسلوبا لحياة كان فى رايهم هو الكبوتس والموشاف والاكثار من الزراعة والحرف والاكثار من العمال والحماة اليهود ، ولم تكن الصهيونية السياسية باطلة فى نظرهم ، وقد ادركوا جيدا قيمها ، ولكنهم كانوا يرون ان عليها ان تستمد قوتها من الارض ، من ميدان العمل اليومى فى أرض اسرائيل وقد اعتبروا هم أيضا ، كما فعل رجال حركة بيلو من قبل — ان ارضهم هى أرض الاسباط الاثنى عشر ، وقد غرسوا هم أيضا اوتادهم فى الجليل والوادى والجبل والسهل ، وجربوا حظهم — دون نجاح — فى حوران وباشان والجولان وجلعاد .

x x x

الحرب العالمية الاولى

عشية الحرب العالمية الاولى كان فى فلسطين أقل من مائة ألف يهودى حوالى نصفهم من الجالية القديمة — من اليهود الذين كانوا يعيشون فى البلاد قبل الصهيونية السياسية ، ولم يكن عدد القرى اليهودية يزيد عن خمسين .

لم تكن نتيجة السنوات الخمس والاربعين الاولى للمشروع الصهيونى (١٨٧٠ — ١٩١٤) كبيرة من ناحية الكم ، ولكنها كانت تعبيرا عن المزايا الاساسية للمشروع الصهيونى — فقد اصبح لليهود القلائل الذين استوطنوا البلاد ايديولوجية او بمعنى اصح بضع ايديولوجيات ، واصبح لهم هدف وطريق ، وقد وضعوا بداية وسائل التنفيذ والاساس ، وأصبح لديهم قوة ضخمة ، فهم يغرسون فى الارض شجرة تمتد جذورها فى التربة وتحطم الصخر ، وترسل براعمها تمتد نحو السماء وكان من ينظر بعين فاحصة وثاقبة لهذه الظاهرة الصهيونية لدى نشوب الحرب العالمية الاولى يدرك القوة الديناميكية الضخمة الكامنة فيها .

وفعلا كان ينظر بعين التقدير الى الجالية اليهودية فى أرض اسرائيل آلاف

الشباب اليهود فى انحاء المنفى ممن كانوا على استعداد للهجرة والانضمام لبناة البلاد الجديدة ، وكذلك نظرت اليها بعين العطف والاعتراف بالجميل الحركة الصهيونية العالمية التى كان يرأسها ناحوم سوكولوف وحاييم وايزمان وزملاؤهما ، وأدركوا انه على اكتاف هؤلاء ، وبفضل الحقائق التى خلقوها فى البلاد يستطيعون ان يطرقوا ابواب العالم وان يطالبوا بالارض لشعبهم . ولكن فى نفس الوقت اخذ زعماء الحركة القومية العربية ينظرون فى خوف وحقد الى هذا المخلوق الذى يستطيع — فى نظرهم (وقد ادرك بعضهم المسألة جيدا) ان يصبح على مر الزمن عملاقا كاسرا ، وأخذ ساسة بعض دول العالم والاستراتيجيون فيها ممن يهتمون بمنطقة الشرق الاوسط ينظرون الى هذه الظاهرة عن فضول واهتمام .

لم تتخط الحرب العالمية الاولى فلسطين والشرق الاوسط ورأى الاتراك منذ البداية فى المهاجرين اليهود والمستوطنين الجدد شوكة خبيثة فى احد جوانب امبراطوريتهم وأخذوا يطردونهم وينفونهم من البلاد ، وحاربوا الاستيطان اليهودى فى مهده .

فى بداية الحرب العالمية حاول بعض زعماء الصهيونية فى فلسطين وكذلك بعض زعماء الصهيونية العالمية السعى من اجل قضيتهم بين الاتراك والالمان ، ولكنهم ركزوا معظم جهودهم لجانب الحلفاء الانجليز والفرنسيين والامريكيين ، والى حد ما الروس ، وسرعان ما أدرك وايزمان وجابوتنسكى وزملاؤهما من قادة الصهيونية ان قوات الحلفاء سوف تحتل — ان عاجلا او آجلا — المنطقة وسوف تصبح سادتها ، وأنه يجب اجراء محادثات مع الحلفاء فى اسرع وقت ممكن .

طرد الاتراك كثيرا من يهود فلسطين فلجأوا الى مصر سرا واتخذوا لهم مأوى هناك ، وأقدم اليهود الباقين على خطوة ثورية ، فقد تطوع بضع مئات منهم بزعامة يوسف ترامبلدور للحرب الى جانب البريطانيين ، وقد الحقوا بكتيبة قادة البغال التى قاتلت ضد الاتراك فى حرب غاليبولى ، وكانت هذه كتيبة من جنود الخدمات ، ولكنها كانت رمزا للمستقبل ، وبعد تكوين قوة الحارس (هاشومير) كانت هذه هى الحلقة الثانية فى تدعيم القوة اليهودية المقاتلة ، وقد ارتدوا الملابس العسكرية للجيش البريطانى . وقاتلوا تحت العلم البريطانى ، ولكن كان لهم شعارهم ، وكان لهم شخصيتهم (هناك ظاهرة موازية لها اهميتها ، ففى تلك السنة التى تكونت فيها

كتيبة قادة البغال اليهودية في فلسطين ، وفي الدول العربية اخذ لورانس العرب ينظم اوائل الثوار العرب ضد الاتراك) ولم ينقض وقت طويل حتى أخذ زعماء الصهيونية في فلسطين يبذلون جهودا ضخمة لتكوين قوة يهودية مقاتلة في نطاق الجيش البريطاني ، تقاتل وتدخل لفلسطين عندما يحتلها الجيش البريطاني من ايدي الاتراك ، وتكونت في البلاد حركة تطوع للجيش البريطاني شملت - بعد جدل مرير - خيار الشباب والطلائع وبالاضافة الى ذلك كون قسم من ابناء الجالية اليهودية في البلاد حركة سرية اشتغلت بالتجسس لصالح البريطانيين .

وهكذا كون وايزمان وجابوتنسكى وبيرل كاتزنلسون وجولومب وبن جوريون وبن زفى الكتائب العبرية من ناحية وكون اهرونسون وزملاؤه الحركة السرية " نيلى " من ناحية اخرى ، وشعر اليهود بوضوح انه سيأتي اليوم الذي يدخل فيه البريطانيون لفلسطين وانه يتحتم عليهم ان يكونوا معهم ، وانه يجب ان تكون هذه القوة اليهودية عنصرا له قيمته في اى قرار سياسى يتصل بمستقبل فلسطين في الكتائب اليهودية وفي " نيلى " تبلورت الامانى الصهيونية وتدافع الى صفوفهما خيار ابناء الموشافيم ورجال الهجرة الثانية . كهرب تصريح بلفور الصادر في الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧ اليهودية العالمية الذى عكس اصداء نداء المسيح المنتظر ، وكان الحصول عليه هو ذروة الجهود السياسية للحركة الصهيونية برئاسة وايزمان ودهش اليهود من هذا الانجاز العظيم دون ان يتدبروا دقائق نص الوثيقة الغامضة الذى اصبح على مر الزمان صخرة الخلاف بين اليهود والبريطانيين ، وبين البريطانيين والعرب ، وبين العرب واليهود . بينما اليهود يطبلون ويزمرون من شدة فرحهم بتصريح بلفور ويفخرون به ، اخذ العرب يلتفون من خلف الخطوط التركية جسور سكة حديد الحجاز ، وينظمون صفوفهم كقوة مقاتلة شبه نظامية الى جانب البريطانيين ، على حين يحصل ملوكهم وزعماؤهم على دعوة شفوية وتحريرية من البريطانيين لاتتفق معمضمون وعد بلفور ولا تساير نصوصه والموقعين عليه . وحدث انه عند احتلال البريطانيين ودخول جيوش اللبنى لفلسطين ان دخلت معها القوات اليهودية المسلحة لشرق الاردن ، وكان العرب يعتقدون ان البريطانيين سوف يصدون دينهم ويفون بوعدهم فيمنحون العرب الاستقلال القومى في الاجزاء التى وقعت في ايديهم من الامبراطورية العثمانية . واملت الكتائب اليهودية التى كانت تحمل الشعار اليهودى وعلمهم ذوى اللونين الازرق والابيض والتى تشق في وعد بلفور ، املت في ان تكون فلسطين لليهود .

بداية الحكم العثماني

ان قصة ثلاثين عاما من الحكم البريطاني منذ ١٩١٨ وحتى ١٩٤٨ التى بدا بوعود متناقضة لليهود والعرب هى قصة آمال وخيبة آمال : وتوقعات واحباطات ، ومواجهات وصراعات لاتنقطع بين الاطراف الثلاثة : البريطانيين الذين يحكمون البلاد والذين يحاولون دون نجاح القيام بمناورات بارعة بين اليهود والعرب واليهود الذين ينهمرون على البلاد يهاجرون اليها ويبنون مستوطنات فيها احيانا ضد رغبة الحكام فهم يكافحون ضد البريطانيين والعرب - والعرب الذين يقاومون بكل قوتهم دخول اليهود للبلاد ويناضلون بكل وسيلة ضد البريطانيين واليهود على السواء .

سرعان ماتبدد امل اليهود في ان يحقق لهم تصريح بلفور ايام المسيح المنتظر على صخرة الواقع اليومى القاسية ، فقد اجتاحت العالم ثورة مابعد الحرب ، واجتذبت الثورة البولشفية في روسيا ملايين اليهود وبينهم آلاف عديدة من الشباب الذين جذبتهم انوارها الخادعة ورأوا فيها حلا لجميع مشكلات الشعب اليهودى ، ولم ينهض يهود من دول اخرى للهجرة لفلسطين ، وكان استئناف الهجرة بعد الحرب نقطة نقطة .

كما انه ظهر لليهود فجأة ان البريطانيين ولا سيما السلطة العسكرية ورجال وزارة المستعمرات لا يريدون ان يكونوا اداة في ايدى الصهيونية ، بل انهم اخذوا يتجهمون لليهود الذين يطالبون بتصريح بلفور ، وسرعان ما أبدوا العداء للقضية اليهودية .

كما ان العرب اخذوا من احداث سنة ١٩٢٠ يتصدون للاستيطان اليهودى الشاب بصورة اكثر تنظيما مما في ايام الاتراك ولأول مرة واجهت الجالية اليهودية الصغيرة في البلاد مقاومة عنيفة من القوميين العرب ، الذين لم يتحملوا مجرد وجود الصهيونية وقاوموا بكل شدة اقامة وطن قومى لليهود في فلسطين الذى اعتبروه على انه دولة يهودية .

في سنة ١٩٢٢ منى اليهود بخيبة امل اخرى ، عندما اقتطع البريطانيون شرق الارض عن فلسطين من تخوم الانتداب الذى منحته لهم عصبة الامم واقاموا فيها

امارة هاشمية ، فقد مزقوها بشكل تعسفي طبقا لمصالحهم واقتطعوا نصف الارض الموعودة د فعة واحدة ، وسلم اليهود مكرهين — لضعفهم وقلتهم بأول تقسيم لارض الاسباط الاثنى عشر .

لكن عملية بناء الجالية اليهودية استمرت داخل تخوم ارض اسرائيل الغربية وهى فلسطين الخاضعة للانتداب دون توقف رغم الاحباطات السياسية ، والاضطرابات الدموية ، وهاجر للبلاد بضعة آلاف من اليهود فى العقد الاول الذى اعقب الحرب وبينهم آلاف من الرواد الشبان المتحمسين ، واشتغل هؤلاء اليهود من رجال الهجرة الثالثة والرابعة بالزراعة والحرف ، بل وضعوا الاساس للصناعة ، وفعلوا الكثير فى ميدان انشاء المدن ، واقاموا نقط استيطان جديدة على الاراضى التى واصلوا شراءها من العرب .

فى العشرينات اخذ يهود فلسطين بمعونة اليهودية العالمية تكوين الاجهزة الاولى للدولة اليهودية المستقبلة ، فأنشأوا الوكالة اليهودية فى فلسطين كجهاز سياسى واقتصادى ، وكجهاز ادارى للحكم الذاتى والسلطة الداخلية وكنست اسرائيل واللجنة القومية .

انشأوا ايضا الهستدروت كاتحاد عام للعمال اليهود وكهيئة تضم جميع النقابات المهنية وكجهاز للتأمين العلاجى للعمال ، والتعاون الانتاجى والاستهلاكى والاستيطانى والبناء والصناعة ولمشروعات التعليم والثقافة والفنون .

كون اليهود — ايضا خفية عن الحكم البريطانى من وراء ظهره — قوة مسلحة سرية للدفاع عن حياتهم ومستوطناتهم ، وهذه القوة هى الهاجاناه التى نهلت وتغذت من " الشومير " والكتائب اليهودية فى الحرب العالمية الاولى ، واخذت تتحول الى جهاز قطرى ، وأخذ اليهود يخزنون الاسلحة ويجمعون مسدسا الى مسدس وبندقية الى بندقية ويدربون سرا الشباب فى المدن والريف .

كثر أيضا العرب الفلسطينيون " شعب البلاد " الذين اصبحوا اليوم مواطنى فلسطين ، كثروا هم أيضا فى العقد الاول للانتداب البريطانى ، وانتفعوا بحكم انهم كاليهود رعايا تحت الحكم البريطانى بمستوى اعلى من التعليم والصحة ، فقلت الوفيات بين صغار الاطفال وزاد التناسل ، كما أثرت عليهم تأثيرا كبيرا الجالية اليهودية

الحديثة الثائرة ، التى كان بينهم وبينها صراع قومى ، والتى لم يصلوا بأمانيها القومية ، فقد القى اليهود بأموال كثيرة لاصحاب الاراضى العرب ، كما استخدم اليهود آلاف العمال العرب الفنيين فى القدس والمدن المشتركة .

أدت النهضة القومية العربية والتأثيرات المباشرة وغير المباشرة للوطن القومى اليهودى والمدنية التى جلبها الحكم الاستعمارى البريطانى الى تغير كبير وسريع فى التكوين السياسى والاقتصادى والاجتماعى للعرب الفلسطينيين .

استيقظ عرب فلسطين الخاضعة للانتداب وأخذوا ينهضون من الاحباط والضعف الذى كان نصيبهم مئات السنين التى قضوها تحت حكم الامبراطورية العثمانية ، وساروا فى سبيلهم لانشاء اجهزة لهم ، وتكوين حركة مقاومة مسلحة جزئيا بهدف استئصال المشروع الصهيونى والقضاء عليه فى مهده .

احداث ١٩٢٩ — ١٩٣٦

فى أواخر العقد الاول للانتداب قام العرب بمظاهرات وهاجموا اليهود فى جميع البلاد ، وقتلوا فى وحشية الرجال والنساء والاطفال فى المدن والمستعمرات واماكن الاستيطان المنعزلة .

أثارت احداث سنة ١٩٢٩ رد فعل يهودى مسلح بحجم لم يعرف حتى ذلك الحين ، ووقف الخصمان الواحد تجاه الاخر وسلاحه فى يده ، وكان هذا ابتداء بالنضال المسلح بين الحركتين القوميتين ذوات الامانى المتعارضة ، ويخطىء من يعتبر هذه الاحداث صداما بين اليهود المساكين الذين يحاولون الدفاع عن انفسهم وبين عصابات اللصوص العرب ويكذب على اليهود والعرب على السواء ، حقا كان هناك يهود عزل قتلهم المتظاهرون العرب فى وحشية ، وامتدت أيديهم بالسلب والنهب ، ولكن معظم اليهود كانوا يدركون السير ردوا بحروب شعواء ، وكان العرب يقاتلون اليهود لا لمجرد القتل وسفك الدماء ، بل كما يحاربون الدخيل الذى اتى ليحتل مايعتبرونه أرضهم ، وواجه سادة البلاد البريطانيون حراب الحركتين القوميتين ، وكانت لديهم قوة عسكرية تفوق الطرفين معا اضعافا مضاعفة ، وقد اقروا النظام بعد طول تلكؤ وساد البلاد هدوء نسبى استمر حوالى سبع سنوات.

امارة هاشمية ، فقد مزقوها بشكل تعسفي طبقا لمصالحهم واقتطعوا نصف الارض الموعودة دفعة واحدة ، وسلم اليهود مكرهين — لضعفهم وقلتهم بأول تقسيم لارض الاسباط الاثني عشر .

لكن عملية بناء الجالية اليهودية استمرت داخل تخوم ارض اسرائيل الغربية وهي فلسطين الخاضعة للانتداب دون توقف رغم الاحباطات السياسية ، والاضطرابات الدموية ، وهاجر للبلاد بضعة آلاف من اليهود في العقد الاول الذي اعقب الحرب وبينهم آلاف من الرواد الشبان المتحمسين ، واشتغل هؤلاء اليهود من رجال الهجرة الثالثة والرابعة بالزراعة والحرف ، بل ووضعوا الاساس للصناعة ، وفعلوا الكثير في ميدان انشاء المدن ، واقاموا نقط استيطان جديدة على الاراضي التي واصلوا شراءها من العرب .

في العشرينات اخذ يهود فلسطين بمعونة اليهودية العالمية تكوين الاجهزة الاولى للدولة اليهودية المستقبلة ، فأنشأوا الوكالة اليهودية في فلسطين كجهاز سياسي واقتصادي ، وكجهاز اداري للحكم الذاتي والسلطة الداخلية وكنست اسرائيل واللجنة القومية .

انشأوا ايضا الهستدروت كاتحاد عام للعمال اليهود وكهيئة تضم جميع النقابات المهنية وكجهاز للتأمين العلاجي للعمال ، والتعاون الانتاجي والاستهلاكي والاستيطاني والبناء والصناعة ولمشروعات التعليم والثقافة والفنون .

كون اليهود — ايضا خفية عن الحكم البريطاني من وراء ظهره — قوة مسلحة سرية للدفاع عن حياتهم ومستوطناتهم ، وهذه القوة هي الهاجاناه التي نهلت وتغذت من " الشومير " والكتائب اليهودية في الحرب العالمية الاولى ، واخذت تتحول الى جهاز قطري ، وأخذ اليهود يخزنون الاسلحة ويجمعون مسدسا الى مسدس وبندقية الى بندقية ويدربون سرا الشباب في المدن والريف .

كثر أيضا العرب الفلسطينيون " شعب البلاد " الذين اصبحوا اليوم مواطني فلسطين ، كثروا هم أيضا في العقد الاول للانتداب البريطاني ، وانتفعوا بحكم انهم كاليهود رعايا تحت الحكم البريطاني بمستوى اعلى من التعليم والصحة ، فقلت الوفيات بين صغار الاطفال وزاد التناسل ، كما أثرت عليهم تأثيرا كبيرا الجالية اليهودية

الحديثة الثائرة ، التي كان بينهم وبينها صراع قومي ، والتي لم يصلوا بأمانيها القومية ، فقد القى اليهود بأموال كثيرة لاصحاب الاراضي العرب ، كما استخدم اليهود آلاف العمال العرب الفنيين في القدس والمدن المشتركة .

أدت النهضة القومية العربية والتأثيرات المباشرة وغير المباشرة للوطن القومي اليهودي والمدنية التي جلبها الحكم الاستعماري البريطاني الى تغيير كبير وسريع في التكوين السياسي والاقتصادي والاجتماعي للعرب الفلسطينيين .

استيقظ عرب فلسطين الخاضعة للانتداب وأخذوا ينهضون من الاحباط والضعف الذي كان نصيبهم مئات السنين التي قضوها تحت حكم الامبراطورية العثمانية ، وساروا في سبيلهم لانشاء اجهزة لهم ، وتكوين حركة مقاومة مسلحة جزئيا بهدف استئصال المشروع الصهيوني والقضاء عليه في مهده .

احداث ١٩٢٩ — ١٩٣٦

في أواخر العقد الاول للانتداب قام العرب بمظاهرات وهاجموا اليهود في جميع البلاد ، وقتلوا في وحشية الرجال والنساء والاطفال في المدن والمستعمرات واماكن الاستيطان المنعزلة .

أثارت احداث سنة ١٩٢٩ رد فعل يهودي مسلح بحجم لم يعرف حتى ذلك الحين ، ووقف الخصمان الواحد تجاه الاخر وسلاحه في يده ، وكان هذا ابتداء النضال المسلح بين الحركتين القوميتين ذوات الاماني المتعارضة ، ويخطيء من يعتبر هذه الاحداث صداما بين اليهود المساكين الذين يحاولون الدفاع عن انفسهم وبين عصابات اللصوص العرب ويكذب على اليهود والعرب على السواء ، حقا كان هناك يهود عزل قتلهم المتظاهرون العرب في وحشية ، وامتدت أيديهم بالسلب والنهب ، ولكن معظم اليهود كانوا يدركون السير ردوا بحرب شعواء ، وكان العرب يقاتلون اليهود لا لمجرد القتل وسفك الدماء ، بل كما يحاربون الدخيل الذي اتى ليحتل مايعتبرونه أرضهم ، وواجه سادة البلاد البريطانيون حراب الحركتين القوميتين ، وكانت لديهم قوة عسكرية تفوق الطرفين معا اضعافا مضاعفة ، وقد اقروا النظام بعد طول تلكوء وساد البلاد هدوء نسبي استمر حوالي سبع سنوات.

وفى خلال هذه السنوات حتى عام ١٩٣٦ ، وصل اليهود هجرتهم للبلاد وعلى نطاق اوسع هذه المرة لبناء الدولة وتدعيمها ، وشاهد اليهود فجأة سحبا سوداء فى الافق تقترب وتحجب سماء العالم وسماء اليهود خاصة ، فقد سطع نجم الفاشية فى اوربا وتولت النازية الحكم فى المانيا وشهرت الحرب على اليهود ، وبدأ التنكيل بيهود المانيا ، وقد ولد كل هذا خوفا فظيعا فى قلوب اليهود بعيد النظر من الخطر الذى يتربص بحياة الكثيرين من ابناء الشعب اليهودى ، واحساسا بضرورة الاسراع باقامة ملجأ آمن للشعب اليهودى فى أرض اسرائيل .

أخذ العرب الفلسطينيون من جانبهم ينظرون بغضب متزايد الى الوطن القومى اليهودى الذى أخذ يتسع كما وكيفا رغم احتجاجات البريطانيين واجراءاتهم العنيفة ، وأخذ الكثيرون من العرب الفلسطينيين كزملائهم من ابناء الحركة القومية فى الدول العربية الاخرى يرون فى هذه السحب السوداء التى تحجب الافق باب الامل لقضيتهم وأعلن موسوليني عن نفسه بانه حامى الاسلام ولا نجد ما يناسب امانى العرب المعادية لليهود والصهيونية أكثر من الشعارات الصهيونية .

فى منتصف سنة ١٩٣٦ اندلعت احداث دموية استمرت ثلاث سنوات وجلبت معها موجة من العنف بين العرب واليهود والبريطانيين ، وحاول زعماء القومية العربية ونجحوا الى حد كبير فى تجنيد الاغلبية الساحقة من الجالية العربية للمقاومة السلبية والقتال ضد اليهود والمشروع الصهيونى ، وذلك رغم الانشقاقات العديدة بينهم ، ونظم المقاتلون العرب فى عصابات ،ولكن اذا استخدمنا الفاظا أخرى يمكننا ان نقول انهم كانوا مقاتلى ثورة شعبية بكل سماتها ،فاستمر الاضراب العام مع الاستعداد للتضحية وحرب العصابات ، ويمكن ان نعتبر الشيخ قاسم وغيره من زعماء العصابات على انهم مجرد لصوص ،ولكن لم يعد الان اى داع للتقليل من روح القتال لدى هؤلاء العرب ، لقد قتلونا فى وحشية ،ونحن رددنا بحرب شعواء ، ودافعنا فى بطولة رائعة ، ولم ندعهم يخربون نقطة استيطان واحدة فى تلك الايام الفظيعة الضارية .

فى سنة ١٩٣٦ كانت الجالية اليهودية أكثر استعدادا للقتال منها فى الماضى وكانت مزودة بأسلحة أكثر للدفاع عن نفسها ،بل ولتكيل الصاع صاعين ، وقد نظمت

الهاجاناه صفوفها فى السنوات الهادئة التى سبقت احداث سنة ١٩٣٦ ،ونمت وأصبحت قوة شعبية سرية ، وقد راى البريطانيون ان الثورة العربية تهدد حكمهم ، ومركزهم فى هذا الجزء من العالم ، الذى ارتفعت اهميته ازاء التطورات فى العالم وخطر اندلاع حرب عالمية جديدة واخذ البريطانيون يلقون بقوات مقاتلة ضخمة لاخماد هذه الثورة ، وينبغى ان نشير هنا الى ان الاحتياجات الامبريالية كانت فى نظرهم اهم من حماية المشروع الصهيونى ، الذى تجهموا له .

كانت النتيجة فى ختام السنوات الثلاث (١٩٣٦ - ١٩٣٩) أخمدت الثورة بيد حديدية ، واخذ البريطانيون يحشدون قوات ضخمة فى الشرق الاوسط بصفة عامة وفى فلسطين بصفة خاصة استعدادا للمستقبل ،وتبلورت القوة اليهودية ، واستمرت مشروعات البناء والاستيطان فى أثناء الاحداث ، واستمر اليهود يصلون للبلاد ، وكان جزء منهم يأتى بصورة غير شرعية وضد رغبة البريطانيين .

رغم اخماد البريطانيين للقوة العسكرية للعرب الفلسطينيين وكسر شوكتهم امام اليهود فان الفلسطينيين لم يسلموا بهذا الوضع ،واخذ عداؤهم يزداد مقام الطرفان اليهود والعرب بدفن موتاهم وأقسم كل منهما ان يواصل الكفاح ،وأخذ حاجز الكراهية الذى يفصل بينهما يرتفع ، واذا كان العرب فى الماضى يعتقدون ان اليهود فى فلسطين سيظلون دائما اقلية قومية ،ويمكن معاملتهم بتسامح بوصفهم حكام المستقبل فانهم قد ادركوا الان جيدا ان اليهود لن يهدأوا ولن يستريحوا حتى يصلوا لهدفهم بانشاء دولتهم فى فلسطين واذا كان زعماء اليهود اعتقدوا بانه يمكنهم تسوية امورهم مع العرب ، وبنوا احلامهم على دولة ثنائية القومية فان معظمهم قد ادرك الان انهم فى طريقهم للهدف وهو الدولة اليهودية ، ينتظرهم صراع دموى لاهوادة فيه مع العرب الفلسطينيين ومع الشعوب العربية ، واخذ بعض زعماء الجالية اليهودية فى البلاد . وزعماء الصهيونية يدلون برأيهم فى المستقبل ويحاولون الوصول الى حل يؤدى لاستقلال اليهود فى فلسطين دون حتمية سفك دماء يهودية وعربية أخرى .

لم يعد احد منهم يرى فى العرب الفلسطينيين شعب الارض ،من قاطعى الاشجار والحطابين والذين يقومون بضخ المياه ،وادركوا ان قضيتهم محركة قومية عربية شرعية كحركتنا مع شعب يرغب فى الوصول فى نفس الارض لاستقلال قومى ودولة تخصه . وأخذوا يرون الحركة القومية العربية فى شمولها ،وطريقها التاريخى ،وادركوا ان الدولة

اليهودية التى حلموا بها وقاتلوا من اجلها فى احضان الانتداب البريطانى لن تهدأ فى المستقبل ،بل ستحيط بها الدول العربية المستقلة والتى ستضطر لمصارعتها وقتالها وفى نهاية الامر سوف تعيش .

وأحسوا انه سوف يأتى يوم ليس ببعيد عندما تحل بالشعب اليهودى فى المنفى نكبة فظيعة ، وانه يجب ان تكون مفاتيح ابواب الهجرة للبلاد كلها او جزء منها ، والتى سيلجأ اليها ضحايا هذه النكبة — فى أيدى اليهود انفسهم .

يئس أيضا القادة البريطانيون ، او على الاقل جزء منهم من ايجاد حل يشبع الذئب العربى الذى يشعرون بأنيابه فى لحمهم ،ورأوا ان الحمل اليهودى الذى أصبح فى نظرهم كبشا نطاحا لا يمكن افتراسه .

مشروع التقسيم

كنتيجة لاحداث سنة ١٩٣٦ والواقع الذى نجم فى اعقابها ، ولد مشروع التقسيم الذى وضعته لجنة بيل ، والذى يقضى بتقسيم فلسطين لقسمين : القسم الاول ويشمل الجليل والجزء الاوسط من السهل الساحلى وتقوم فيه الدولة اليهودية ، وتقام دولة عربية فى سائر فلسطين ، وتدول القدس تحت رعاية بريطانيا .

انقسم زعماء اليهود فى آرائهم ، فقد قبل فريق منهم وعلى رأسهم وايزمان وبن جوريون مبدأ التقسيم دون اقرار للحدود الموضوعة والخرائط التى وضعها رجال لجنة بيل ،لانهم كانوا يرون ان فلسطين التى يدعيها شعبان لا نفسهما وكل منهما يدعى انها كلها ملك له يجب تقسيمها بينهما .

وقد أدرك هؤلاء الزعماء بصورة لا تقل عن معارضيهم ضخامة التنازل عن الحقوق التاريخية للشعب اليهودى عن جزء من أرض الاسباط الاثنى عشر ، فقد كانوا مثل غيرهم يحنون لشرق الاردن ولها فى انفسهم مكانة كبرى فهى ارض ابناء قبيلة رؤوبين وجاد ونصف قبيلة منشى التى انتزعت منهم فى العشرينات ، اما عن جبال يهودا والسامرة ، فانهم كانوا على استعداد للتخلى عنها مقابل اقامة دولة يهودية مستقلة ، وتسليم

حركة القومية العربية بقيامها ،انهم لم يكونوا على استعداد للتخلى عن الحقوق التاريخية لشعبهم ،بل عن تحقيق جزء من هذه الحقوق فى جزء من الارض الموعودة التى لسوء حظ الشعب اليهودى وجد فيها سكانا من العرب يدعونها لانفسهم .

كان لمؤيدى مشروع التقسيم دافع آخر ،ربما كان أشد قوة ،وهو انه لدى قيام دولة اليهود يحصل اليهود على مفتاح باب الهجرة ، وكان فتح ابواب البلاد آنذاك لملايين اليهود اهم من اى مبدأ آخر بما فى ذلك مبدأ التحقيق الكامل للحقوق التاريخية العادة كاملة على البلاد ،عشية الايام الفظيعة وما توقعوه احكام لغلاق ابواب الهجرة .

من ناحية اخرى كان معارضوهم يرون فى تقسيم البلاد نكبة ،اذ انهم كانوا يرون ان الذى يسلم بمبدأ التقسيم سوف يوافق تحت ضغط الواقع القاسى على تقسيم أسوأ ، حتى ينتهى الامر بجيتو يهودى على سواحل البحر المتوسط ، كما انهم كانوا يرون ان حدود الدولة اليهودية المقترحة فى جزء من فلسطين الواقعة غرب الارض لا يمكن حمايتها . وكانت نقطة الانطلاق لديهم ان العرب لن يوافقوا أيضا على دولة يهودية صغيرة فى جزء من فلسطين ، وانهم ان عاجلا او آجلا سوف ينقضون عليها لابادتها ، وأن الدولة صغيرة المساحة التى ينقصها العمق الاستراتيجى لا تستطيع ان تحمى نفسها .

واعتبروا مؤيدى مشروع التقسيم اشخاصا ضلوا الطريق ،وسوف يلحقون نكبة بالمشروع الصهيونى .

كان رد زعماء عرب فلسطين والدول العربية على مشروع التقسيم سلبيا وقاطعا فانهم لم ينخدعوا بالالفاظ والعبارات مثل " الوطن القومى اليهودى " وكانوا يدركون دائما المغزى الحقيقى لهدف الصهيونية ، ولكن عندما ورد فى وثيقة بريطانية رسمية فى تقرير لجنة بيل عبارة دولة يهودية كان هذا بالنسبة لهم يوما مريرا وعبوسا قمطريرا فرفضوا ان يستمعوا على الاطلاق لمبدأ التقسيم وعن المساواة فى الحقوق للشعبين وللحركتين القوميتين ،وكفروا بمبدأ التقسيم من اساسه وقالوا :" ان البلاد بلادنا ويريد المغتصبون الغزاة ان يفعلوا بها كما لو كانت ملكهم ، ليس هناك شعب يهودى له اى حقوق فى هذه البلاد ، ومكان الغزاة فى الخارج " .

ادى رد فعل العرب وعدم رغبتهم فى اى اتفاق الى تقوية مركز معارضى التقسيم من بين اليهود الذين قالوا : " ليس هناك من نتفق معه " . وكذلك اعتبرت الحكومة البريطانية اقتراحات لجنة بيل مجرد توصيات ، ولم تصر عليها ، وعملت المعارضة التامة من جانب العرب والجدل بين اليهود على عدم موافقتها على مشروع التقسيم ، ونفضت يدها منه . لقد مر أكثر من ثلاثين عاما منذ ذلك الحين ، وقام جدل حاد بين صفوف الصهيونية لا زلنا نسمع اصداءه فى ظروف واحوال مختلفة تماما حتى اليوم ، ان النقاش هو حول مبدأ التقسيم وليس هناك نقاش - على الاقل بين اليهود - بالنسبة للحق التاريخى للشعب اليهودى فى أرض الاسباط الاثنى عشر ، بل حول الاستعداد للتنازل عن تحقيق جزء من هذه الحقوق التاريخية من اجل الشعب العربى الفلسطينى المجاور لتكوين دولتين للشعبين فى نفس الارض .

يجرى النقاش عادة بيننا حتى هذا اليوم ، وعندما يبدأ نقاش مفتوح وصريح مثل هذا النقاش الذى نجريه - بين زعماء العرب الفلسطينيين ويقوم من بينهم اشخاص يقولون صراحة وبشجاعة انهم على استعداد للتنازل عن تحقيق جزء من حقوقهم من اجل الشعب اليهودى المجاور بهدف تكوين دولتين لشعبين فى نفس الارض - ستكون هذه هى الخطوة الاولى نحو اتفاق حقيقى بين الشعبين .

الحرب العالمية الثانية والنضال

مع اقتراب الحرب العالمية الثانية أخذ البريطانيون يسعون لاجتذاب العرب فى الشرق الاوسط لجانبهم ، وكانوا يدركون ان افضل طعم يغرى العرب هو اصدار تصريح بليغ عن سياسة تعترض خطوات المشروع الصهيونى ، فأصدروا فى سنة ١٩٣٩ الكتاب الابيض الذى يغلق تقريبا ابواب فلسطين فى وجه المهاجرين اليهود ، وتعيد بصورة تعسفية امكانيات شراء الاراضى . أرضى الكتاب الابيض العرب الى حد ما ، ولكنه لم يجعلهم أصدقاء لبريطانيا ، ومن ناحية أخرى أثار سخط يهود فلسطين فكرهوا الحكم البريطانى فى البلاد ، وأخذ اليهود يعتبرون البريطانيين لا العرب عقبة رئيسية فى سبيل تنفيذ مشروعهم ، والذين يسدون ابواب الهجرة فى وجه اليهود ، وتخليصهم من دول المنفى التى تسير نحو الضياع والفناء .

لدى نشوب الحرب العالمية الثانية ، ووقوف بريطانيا على رأس المحاربين ضد المانيا النازية وايطاليا الفاشية تطوع شباب الجالية اليهودية فى فلسطين لهذه الحرب التى كانت أيضا دفاعا عن حياة وكيان الشعب اليهودى ، وقدمت الجالية اليهودية الصغيرة التى يبلغ عددها حوالى نصف مليون نسمة ثلاثين الف جندى متطوع للمجهود الحربى ، وقاتلوا فى صفوف الجيش البريطانى فى جميع جبهات الشرق الاوسط والصحراء الغربية واوروبا .

وفى اثناء الحرب حلت بالشعب اليهودى النكبة الكبرى ، وهلك ثلث أبنائه اى ستة ملايين على أيدى النازى .

مر منذ ذلك الحين أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وقام جيل جديد لا يعرف النكبة اليهودية الا من الوثائق والكتب ومن محاكمة ايخمان ومن قصص الناجين ، ولكن الذى لا يدرك ضخامة الضربة التى منى بها الشعب اليهودى حتى هذا اليوم بسبب هذه النكبة ، وردود الفعل التى أثارتها فينا حتى الان ، لن يدرك ما أعقبها من كفاح عنيف والثورة على البريطانيين ، وحركة الهجرة غير الشرعية وانشاء دولة اسرائيل كما انه لن يدرك أيضا ردود فعل ابناء الشعب اليهودى فى دولة اسرائيل وفى العالم كله على احداثنا المعاصرة .

ومن الجدير بالذكر أن الاشخاص الذين يتزعمون حاليا دولة اسرائيل والشعب اليهودى لا زالوا من ابناء جيل النكبة ، فقد احس بها البعض بأنفسهم ، وقاتل البعض وحاول انقاذ اخوانهم المحكوم عليهم بالابادة ، وحاولوا الاستنجاد بالانسانية وطلب معونة العالم المستنير ، ولكنهم لم يجدوا آذانا صاغية .

ويجب الا ننسى ان ذكر الاباء والامهات والاخوة والاخوات والبنين والبنات الذين لاقوا حتفهم فى نكبة اليهود لا زالت تعيش بين الاسر اليهودية فى اسرائيل والشعب اليهودى فى المنفى ، ان حقيقة اننا لا زلنا نعيش حياتنا اليومية وننجب بنين وبنات تبين فى الظاهر ، أن هذا الجرح اندمل ولم يعد يدمى ، ولكن قلب الشعب اليهودى لا زال يدمى حتى اليوم من النكبة التى حلت به ، فى المحارق والافران وحجرات الغاز ، التى لم تحرق الجثث وحدها ، بل احرقت كذلك الايمان بالانسانية وقيمها واذا كان قد نكل بنا بشر خلق على صورة الانسان ثم تحولوا الى حيوانات مفترسة همجية ، واذا كانوا قد نكلوا بنا فى منتصف القرن العشرين فى عصر المدنية التى تزهو

بقيمها العالمية ، واذا أقدموا على هذا النحو على التنكيل بأشخاص عزل وعاجزين فان النتيجة ان الانسان كالذئب مع اخيه الانسان وليس هناك ضمير ولا مدنية !

ان اليهود الذين نجوا من النكبة ، ولم يكن لهم نصيب فى معسكرات الابادة أضحوا اشخاصا ذوى نفوس مريرة لا يؤمنون بالانسانية وقيمها ، وتعلموا الدرس : " ويل للضعيف ! " هذا الدرس الذى تعلمه بأنفسهم نزلاء معسكرات الابادة ، وأضحى علامة تحذير للشعب اليهودى ، الاعتماد على الامم خطأ ، فان احدا لن يساعدك اذا لم تساعد نفسك ! كن قويا وعش !

اذا كان كيل عذاب اليهود لم يطفح بعد نكبة النازى فقد ظلت فى قلبهم شرارة الايمان والامل ، بان النصر على النازيين سيجلب لهم الحياة والخلاص لا كأفراد فحسب ، بل كشعب ، واتت السنوات التى أعقبت الحرب وأضافت ألما للعذاب ، وأتت على الذين ظلوا على قيد الحياة وبقوا فى شرق اوربا سنوات ستالين السوداء ، وأغلق البريطانيون ابواب البلاد فى وجه الذين هربوا للغرب فى طريقهم لفلسطين .

وفى المدة ١٩٤٥ – ١٩٤٧ استجمع يهود فلسطين ومعهم من تبقى من يهود النكبة الذين عاونتهم اليهودية العالمية ما تبقى من قواتهم للنضال ضد البريطانيين ، وكان النضال المسلح للجالية اليهودية ضد البريطانيين نضالا يائسا وجامحا وقاموا بتهريب الاسلحة بطرق ملتوية عن طريق الصحراء والبحر ، ولم يستطع البريطانيون الذين هزموا النازيين ان يصمدوا للمقاتلين اليهود ، فقد دفعوهم الى ركن ووضعوهم بين أحد امرين : اما هجرة اليهود لفلسطين او السير فى طريق النازية وضرب اليهود وتقتيلهم ، وفى سنة ١٩٤٧ قررت حكومة بريطانيا الجلاء عن فلسطين ، وعهدت بتقرير مصير البلاد الى منظمة الامم المتحدة التى تكونت فى ذلك الحين .

وقررت الامم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ تقسيم فلسطين لدولة يهودية وأخرى عربية وتدويل القدس ، وقد صدر هذا القرار لدوافع ترجع جزئيا لحسابات سياسية ومصالح الدول الكبرى ، وجزئيا لتأنيب الضمير لدى الشعوب والدول التى وقفت موقف المتفرج عندما أبيد الشعب اليهودى .

تلقت أغلبية اليهود فى فلسطين وفى معسكرات المهاجرين غير الشرعيين وفى دول المنفى هذا الحل بالفرح – فرحة الفقراء وفرحة المقاتلين الذين تعبت نفوسهم

من القتل ، لان العالم قرر منحهم تعويضات ، وخصهم بجزء صغير من أرضهم بفلسطين العتيقة ، يعيشون فيه وينتجون ويلعقون جراحهم ويكونون هيئة ضحايا النازى (يد فاشيم) لتخليد ذكرى القتلى وتربية ابنائهم .

عارض قرار الامم المتحدة عرب فلسطين ومعهم العرب اجمعين الذين فى تلك السنوات المصيرية للعالم وللشعب اليهودى لم يقاتلوا فى الحرب العالمية لا الى هذا الجانب ولا الى ذاك – ولذلك كثروا ودعمت قواهم ، وأصبح الكثير من الدول العربية على اعتاب التحرر والاستقلال واصبحت دولهم الغنية بالبترول عاملا سياسيا واقتصاديا من الدرجة الاولى ، وقد رفضوا مشروع تقسيم للبلاد رفضا باتا وقاطعا ، ولم يتصوروا ان الامم المتحدة وقد قررت تقسيم فلسطين ان هذا القرار سوف ينفذ ، وانهم سوف يلقون بالغزاة اليهود الى البحر .

ترعرعت حركة القومية العربية وازدهرت ، ولم يعد هناك مناص امام الانجليز والفرنسيين الذين خرجوا منهكين من الحرب ، الا ان يمنحوا معظم الدول العربية الاستقلال القومى والسياسى فى المستقبل القريب ، لم يجرب العرب العذاب الذى كان من نصيب الشعب اليهودى ، فلم تدمر له اى قرية عربية فى فلسطين حتى ذلك الحين ، ولم ينف عربى واحد ولم يكن بينهم لاجئ واحد ، ولذلك لم يدركوا وربما لم يستطيعوا ان يدركوا ولم يريدوا ان يدركوا كل ما مر باليهود فى تاريخهم الطويل عامة والنكبة اليهودية خاصة ، ولم يفهموا اليهود هذا الشعب الذى ليس شعبا ، هؤلاء اللاجئون الذين لا يملكون شيئا ، الذين يضطهدهم الجميع ويكرههم الجميع ، والقوة الضخمة الكامنة فى اليأس اليهودى فيما بعد الحرب ، وبالتأكيد لم يستطيعوا ان يدركوا كيف يتصدى ستمائة الف يهودى للعالم العربى الضخم والقوى ، وكيف يستطيعون تنفيذ التقسيم بقوة ذراعهم ، وكانوا على يقين – ولهم عذرهم فى هذا – من ان اى شعب ولا سيما البريطانيون الذين يغادرون البلاد ، كراهية لليهود وانتقاما منهم لن ينجد اليهود فى ضائقتهم ، ولن يرسل ابناءه ليسفكوا دماءهم من اجله ، ولم يدخل فى اعتبارهم قوة اليأس اليهودى ازاء التهديد بالابادة ، فقد استقبل يهود البلاد والناجون من معسكرات الابادة ومعسكرات المهاجرين غير الشرعيين رفض العرب الساخط وشعار " سنلقيهم فى البحر " بمعناه الحرفى ، وصدقوا العرب ورأوا انفسهم يواجهون مرة اخرى خطر الابادة .

وبينما البريطانيون يغادرون البلاد ، والطرفان يستعدان للنضال المسلح أخذت تزحف حرب سنة ١٩٤٨ – حرب الاستقلال .

حرب الاستقلال وانشاء الدولة

في أواخر سنة ١٩٤٧ بدأ اليهود والعرب نضالا دمويا مريرا وشرسا سرعان ماتحول الى حرب ، وعندما انتهى الانتداب البريطاني في الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ كانت هذه الحرب قد اندلعت في جميع انحاء البلاد من الجليل الى النقب ، وكانت كل نقاط الاستيطان اليهودي والعربي على جبهة النيران ، وكانت تداخل المستوطنات اليهودية والعربية كبيرا لدرجة ان جميع القرى والاحياء والضواحي والمدن القريبة من الجبهة ، ولم يكن هناك مؤخرا ، بل كانت البلاد كلها جبهة .

وكلما اقترب موعد خروج البريطانيين اشتدت الحرب ضراوة ، وأدرك اليهود ان الساعة قد اقتربت ، وسوف يواجهون وحدهم العرب الفلسطينيين والجيوش النظامية لخمس او ست او سبع دول عربية مستقلة التي تقوم بتعبئة جيوشها وتضعها في حالة تأهب واستعدادا لليوم الذي يغادر فيه البريطانيون البلاد ، فيتدخل اليها بهدف القاء اليهود الى البحر ، وتحرير فلسطين من المشروع الصهيوني وتدميره تماما .

بدأ اليهود سباقا مجنونا مع الزمن بهدف تدعيم انفسهم لليوم الفاصل في منطقة متصلة من السهل الساحلي للاستيلاء ، على ميناء ليستطيعوا ان يفرغوا به الاسلحة حين تصل من وراء البحار ، ومن الجدير بالذكر هنا ان اليهود الذين اخذ جيشهم يخرج من نطاق السرية ولم يكن لديهم الا بضعة آلاف من البنادق والمسدسات وبضع مئات من الرشاشات والهاونات الخفيفة من الانتاج المحلي ، في حين انهم يواجهون خطر تدخل الجيوش العربية النظامية المزودة بالمدرعات والمدفعية وتملك اسطولا وسلاحا جويا .

لن ينسى اليهود هذه الاشهر ماحيوا ، وهذا السباق مع الزمن وعدم التوازن الفظيع في الاسلحة في البداية مما كان له أثر عميق على سيكولوجية اليهود في جيلنا ، وأثر على كل خطوة من خطواتنا دون ان نستطيع ان نتخلص من ذكراها .

وقد بذل اليهود في شراء الاسلحة ونقلها الى البلاد في الاشهر المصيرية في بداية سنة ١٩٤٨ كل فطنتهم وحكمتهم ، والقدرة على التصرف وموا هبهم المالية

التي انعم الله عليهم بها ، وفي شهري ابريل ومايو سنة ١٩٤٨ بدا اليهود والعرب يهاجمون في ضراوة نقط الاستيطان الريفية والحضرية ويحتلون الاراضي هؤلاء من أولئك ، وهكذا نشأت مشكلة اللاجئين اليهود والعرب .

ونعود فنذكر انه حتى ذلك الحين من ١٨٧٠ حتى ١٩٤٨ طوال ثمان وسبعين سنة مرت على المشروع الصهيوني والنزاع بين اليهود والعرب ، لم يؤخذ من العرب بالقوة اى شبر من الارض ، ولم يكن هناك لاجئ عربي واحد ، ولكن لدى نشوب حرب التحرير واجهنا الاختيار الفظيع التالي ، اما ان يحتل العرب اراضينا ويدمرون مستوطناتنا او ان نحتل نحن أرض العرب والمستوطنات العربية .

وكنا نستطيع ان ندرك ماينتظرنا على أيدي العرب ، اذا لم ننتصر في هذه الحرب ونحن لا زلنا في مراحلها الاولى .

للمرة الاولى بعد حوالي الفي سنة طرد المقاتلون والمدنيون اليهود من ارضهم فقد احتل الفيلق العربي جوش عتسيون والحي اليهودي في المدينة العتيقة ، وأخذ اللاجئون اليهود من المدينة العتيقة يتدفقون الى القدس الغربية .

تهدمت جميع المستوطنات التي احتلها العرب عن آخرها ، ولم يبق حجر على حجر ، من عطاروت ونافيه يعقوب ، وريفيديم ومسئون اسحق وكفار عتسيون والحي اليهودي في المدينة العتيقة وقتل اهلها او طردوا ، وفعل اليهود أيضا المثل في المستوطنات العربية ، وجلبت هذه الحرب الضارية التي لا تعرف الرحمة الى القتل والخراب ونجم عنها اعداد من اللاجئين .

لكن لما كان لليهود اليد العليا ، واحتلوا مستوطنات عربية أكثر مما احتل العرب من المستوطنات اليهودية ، ولذلك كان من الطبيعي ان يزيد عدد العرب الذين فروا للنجاة بأنفسهم عن عدد اليهود .

ان الادعاء الذي نسمعه بين الحين والاخر بانه لدى قيام الدولة وأثناء المعارك الضارية ودوي الحرب طلب اليهود من جيرانهم العرب في عدة اماكن ان يبقوا وألا يهربوا ـ هذا الادعاء صحيح ، فقد وجهت مثل هذه الطلبات ، ولكن العرب لم يستمعوا اليها ، وهربوا من قراهم خوفا من سيوف اليهود المسلة على رؤسهم .

حقا ان الزعماء العرب بغبائهم شجعوا الهرب لوثوقهم فى يوم الحساب بعد الخامس عشر من مايو وجلاء البريطانيين حين قدوم الجيوش العربية وتبديد العصابات الصهيونية ، وعندئذ يعود الهاربون فى أعقاب الجيوش العربية الظافرة ، ويساعدونهم فى الحساب الختامى مع اليهود ، ولكن يجب الا ننسى ان العرب فروا بنسائهم وأطفالهم من نيران الحرب المستعرة ، كما يهرب اللاجئون فى جميع الحروب ، كما كان يهرب اليهود لو انتصر العرب ، ولو كان لهم مكان يفرون اليه .

ان العرب لم يدركوا انه ليس لليهود مكان يفرون اليه ، وأن اليهود قد عقدوا العزم مع انفسهم ، وانهم كانوا على استعداد ان يبذلوا حياتهم ولا يفرون مرة أخرى .

لم يدرك العرب الفلسطينيون قوة هذا العزم والتصميم ، كما لم يدركه زعماء الدول العربية وقادة جيوشها الذين تقدم فى مايو سنة ١٩٤٨ وهاجموا دولة اسرائيل التى تكونت فى ذلك اليوم ، وقدم العرب من الشمال والشرق والجنوب آلاف الجنود النظاميين على مجنزرات ودبابات ومدافع ، وفى تلك اللحظة أخذ العرب يقصفون اسرائيل من الجو والبحر ، وللمرة الاولى فى تاريخ النزاع بين اليهود والعرب حول فلسطين يقف الطرفان الواحد تجاه الاخر فى مواجهة مباشرة دون وسطاء دون مساعدة من اى دولة او ان توقفهما اى دولة ، لان الدول الكبرى فى حرب سنة ١٩٤٨ لم تكن تتدخل بعد بصورة فعلية . كانت اقامة دولة اسرائيل التى أعلنتها قيادة الجالية اليهودية وعلى رأسها بن جوريون فى ٥ آيار سنة ١٩٤٨ كانت قمة تاريخ الشعب اليهودى الطويل منذ نفى من أرضه . قمة لاتصل اليها الشعوب الا مرة واحدة فى تاريخها .

لقد تم هذا العمل التاريخى ، وكان يمكن ان ينقلب الى مأساة لو ان العرب انتصروا فى الحرب ، وكانوا يؤمنون انهم سوف ينتصرون ويتطلعون ان يعلنوا من فوق برج دبابة فى تل أبيب بعد ان تحتلها جيوشهم وتدمرها ، عن تصفية الدولة اليهودية الوليدة ، وانها وئدت فى مهدها ، وعن تحرير فلسطين جميعها . وقد منع هذه المأساة بضعة آلاف من المقاتلين اليهود بأسلحتهم الخفيفة ، ويمكن ان نقتبس هنا أقوال ويلنجتون فنقول انه فى مايو سنة ١٩٤٨ كان هناك خيط رفيع واحمر جدا من اليهود البواسل الذين انقذوا دولة اسرائيل .

استمرت الحرب بين الجيش الاسرائيلى الوليد الذى تمخضت عنه الهاجاناه أثناء الصراع على الدولة ، واستوعب فى صفوفه بعد عذاب منظمتى الارجون زفاى لئومى (المنظمة العسكرية القومية) ولحى (المحاربين عن حرية اسرائيل) وبين الجيوش العربية حوالى ثمانية أشهر ، وفى نهايتها بعد انتصار الجيش الاسرائيلى ، وقعت فى أوائل سنة ١٩٤٩ اتفاقيات الهدنة بين اسرائيل والدول العربية المعتدية .

وقد أدرك اليهود أثناء سير الحرب - اذا كانوا لا زالوا فى حاجة الى برهان آخر - ماينتظرهم ومشروعهم على أيدى الجيوش العربية النظامية ، فقد احتل الجيش المصرى القرى اليهودية التى فى طريقه ودمرها عن آخرها ، ولم يمكن صد الجيش المصرى الا بجهود جبارة على مسافة حوالى ثلاثين كيلومترا جنوبى تل أبيب ، ونجح الفيلق العربى الاردنى فى محاصرة حوالى مائة ألف يهودى فى القدس ، وأخذ يقصفهم بلا هوادة وأسقط منهم مئات الضحايا - منهم الاطفال والنساء والشيوخ ، ونجح تقريبا فى اماتة أهالى المدينة من الجوع والعطش . كما نجح الجيش السورى فى احتلال بعض القرى اليهودية فى شمال البلاد وقتل اهلها من المقاتلين والمدنيين على السواء . وكان الثمن الذى دفعته الجيوش العربية لقاء نزهة التى رغبوا فى القيام بها لتل أبيب غاليا جدا ، ولكن الثمن الذى دفعه عرب فلسطين كان أغلى أضعافا مضاعفة ، فمع الجيوش العربية المتقهقرة تحت وطأة الجيش الاسرائيلى هرب ايضا مئات الالوف من عرب فلسطين واضحوا لاجئين .

انتهت الحرب ، ووقعت اتفاقيات الهدنة ، وقامت دولة اسرائيل فى التخوم التى احتفظت بها حوالى ثمان عشرة سنة حتى حرب الايام الستة ، وكانت هذه التخوم اكبر مما أوصت به الامم المتحدة ، فان مشروع تقسيم الامم المتحدة لم يكن يتضمن الا جزء من الجليل فى تخوم الدولة اليهودية ، ولكنا وجدنا انه بحرب سنة ١٩٤٨ دخل الجليل بأكمله تقريبا فى تخوم الدولة ، وتوسع الشريط الساحلى شرقا وجنوبا ، وأصبح النقب كله تقريبا فى أيدى اسرائيل ، واحتلت اسرائيل اراضى ومناطق كانت فى أيدى العرب ، وأصبحت الان خالية من السكان بعد ان فر اهلها ، وأضحوا لاجئين فى الدول العربية المجاورة .

من الجدير بالذكر ان الحرب بين اليهود والعرب لم تكن على الاطلاق على الحدود

التى اقترحتها الامم المتحدة ، بل على قيام الدولة فى حد ذاته ، ولم تقدم الامم المتحدة ولا أية دولة من الدول التى اقترعت من أجل مشروع التقسيم طبقا لحدود الامم المتحدة اى مساعدة لاسرائيل صارت القدس اليهودية جزءا من جيب دولى ، وافق اليهود على قيامها كما وافقوا على مشروع التقسيم كله ، وأصبحت عرضة لان تسقط فى أى لحظة فى أيدى الفيلق العربى الاردنى ، ولم يحرك احد فى العالم اصبعا لمعونتها ، وساعد اليهود انفسهم ، ونجحوا فى ان يخلقوا بالقوة ممرا بين السهل والقدس الجديدة فى حين نجح العرب فى الصمود فى القدس العتيقة الشرقية وايجاد اتصال مع سائر اجزاء الضفة الغربية التى ظلت فى أيدى الفيلق العربى وضمت الى الاردن ، واحتفظ كل جانب بالاراضى التى استطاع احتلالها ، فالسيف هو الذى قرر حدود سنة ١٩٤٨ .

ان اليهود الذين حلموا بان تقوم دولتهم بالطرق السلمية ، بطريق شراء دونم من الارض ثم دونم آخر من الاراضى المقفرة غير المسكونة ، وبناء قرى ومدن بالكفاح والمال وكان على استعداد للبحث عن طريق للتراضى بالطرق السلمية مع جيرانهم عرب البلاد واقتسام البلاد معهم ، واقامة دولة طبقا لقرار امم العالم ، ان هؤلاء اليهود قد وصلوا الان لدولة خاصة بهم ، بالطريق الروتينية للفظيعة التى حصلت بها اغلب الشعوب فى التاريخ على دولهم — بالدم والنار .

اللاجئون اليهود واللاجئون العرب

كان قيام دولة اسرائيل حدثا حاسما للشعبين ، ولم يفرح اليهود بانتصارهم وكيف يمكنهم ان يفرحوا فى الوقت الذى يبكون فيه ملايين القتلى فى أوربا وآلاف الشهداء الذين سقطوا فى حرب الاستقلال ، وأخذ العرب يعيشون مأساتهم الفظيعة ، التى ظلت تطاردهم ككابوس حتى هذا اليوم . وسقط المئات بل الالوف منهم بحد السيف ، ووجد مئات الالوف من اللاجئين انفسهم تائهين فى الدول العربية لا يملكون شروى نقير ، وكان أكثر ما آلمهم الاعتراف بضرب اليهود الاقزام الانذال السفلة لهم ، هؤلاء اليهود الذين قالوا عنهم للعالم : اتركونا معهم وجها لوجه ، وسوف نريهم وطأة ذراعنا ، وكانت الضربة التى لحقت بكرامتهم واعتزازهم القومى اقسى عليهم من ان يتحملوها .

لدى انتهاء حرب التحرير نجم واقع جديد ، فان الصهيونية حققت بغيتها

وبعد قيام الدولة تستطيع الان ان تبدأ فى تحقيق هدفها الاساسى وهى ان تكون مأوى مفتوحا وآمنا لكل يهودى يبغى او يضطر للهجرة اليها ، وكانت الدولة صغيرة فمساحتها لاتزيد عن حوالى ٢٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع ، وحدودها طويلة متعرجة تعسفية ومليئة بنقاط الضعف ، وكان أضعفها العنق الرقيق والدقيق فى المنطقة الساحلية والذى لم يكن يزيد عرضه فى عدة اماكن عن ١٥ كيلو مترا فحسب ، وكان عاصمة الدولة الجديدة — القدس — تنقسم الى شطرين شطر فى يد الاردن وشطر فى يد اسرائيل .

لدى قيام الدولة كان سكانها اليهود قليلين وجريحين ، وكانت خزانتها خاوية ، ومستودعاتها خالية من المواد الغذائية ، ولكنها عقدت العزم على ان تعالج فورا مشكلة اللاجئين اليهود ، الذين انشئت الدولة من اجلهم .

نجم فى فلسطين المقسمة فى ١٩٤٨ — ١٩٤٩ مشكلتان خطرتان تتعلقان باللاجئين هما : مشكلة اللاجئين العرب الذين تكدس معظمهم فى ظروف فظيعة فى الضفة الغربية التى ضمها الهاشميون للاردن ، وفى قطاع غزة الذى سيطر عليه المصريون ، ومشكلة اللاجئين اليهود الذين ينتظر الآلاف منهم فى معسكرات الاحتشاد فى قبرص ومعسكرات غرب أوربا اللحظة التى يستطيعون فيها الوصول للبلاد ، والان لدى قيام الدولة انضم اليهم آلاف ومئات الالاف من اللاجئين المنتظرين من يهود الدول العربية ، الذين أصبحوا فى الاراضى العربية بعد انتصار اليهود كالواقفين على بركان وقد ولوا وجوههم شطر اسرائيل .

فتحت اسرائيل ابوابها على مصراعيها للاجئين من الشعب اليهودى ووصل لسواحل البلاد مئات الالاف من المهاجرين اليهود منهم بقايا نكبة النازية والناجون من اوشفتس وبرجن بلزن وميدانك وتربلنكا ، ثم أخذ يفد مئات الالوف من يهود الدول العربية ، فاجتاز خمسون ألف يهودى فى اليمن مئات الكيلو مترات على الاقدام وفى قوافل من الجمال حتى وصلوا لمطار عدن ، ومن هناك استقلوا الطائرات لاسرائيل ، اما يهود مصر البالغ عددهم خمسون ألفا فقد لاقوا الامرين على يد السلطات المصرية واضطهدوا وسجنوا فهربوا ووصلوا هم أيضا لاسرائيل ، ووصل للبلاد عشرون ألف يهودى من سوريا ولبنان وحوالى ربع مليون يهودى من المغرب بطرق ملتوية برا وبحرا ، وكذلك خمسون ألف يهودى ليبى وكذلك حوالى خمسين ألفا من الجزائر وتونس ، وعلى هذا النحو تضاعف سكان اسرائيل خلال بضع سنوات ووصل عدد المهاجرين الجدد لاسرائيل قبل ان ينتهى

العقد الاول لقيامها حوالى مليون نسمة منهم حوالى ٤٠ ٪ من اوربا ، أغلبهم من لاجئ نكبة النازى ، وحوالى ٦٠ ٪ من اللاجئين المعدمين من الدول العربية .

اذا قارنا مشكلة اللاجئين اليهود الذين هاجروا لاسرائيل منذ قيام الدولة ومشكلة اللاجئين العرب الذين فروا منها يمكن ان نعتبر ماحدث كان تبادلا للسكان كما حدث ويحدث فى جميع انحاء العالم اثناء الحروب وبعدها ، او كجزء من الترتيبات بين الدول ، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك فى التاريخ فى الماضى والحاضر ، وكانت النسبة هنا ١ : ١ أى انه مقابل كل لاجئ عربى فلسطينى فر لاحدى الدول العربية ، وصل منها لاجئ يهودى . اما عن الممتلكات فقد اجريت احصائيات وتقديرات للممتلكات التى خلفها اللاجئون العرب فى اسرائيل ، ولكن الى الان لم يجر تقديرات للممتلكات التى خلفها اليهود الذين هاجروا لاسرائيل من الدول العربية والتى صادرت معظمها السلطات العربية .

بصورة مبسطة يمكننا ان نقول ان دولة اسرائيل الصغيرة التى تبلغ مساحتها عشرين ألف كيلو مترا مربعا استوعبت من هذا بفضل مليون مهاجر جديد ، أغلبهم لاجئون ، وانها تمكنت من هذا بفضل تبرعات اليهودية العالمية ومعونة الاموال الدولية ، فلماذا لاتفعل الدول العربية مثل هذا ومساحتها تبلغ اضعاف مساحة اسرائيل مئات المرات ، ومعظمها قليل السكان ، ولكنها غنية بالموارد الطبيعية ، واذا كانت ترغب حقا فى تقديم المعونة لاخوانهم العرب الفلسطينيين ، فلن يصعب عليهم رصد الاموال اللازمة ، وايجاد اماكن عمل ومأوى لحوالى مليون عربى لاجئ واصلاح احوالهم ، لكن اصحاب هذه الادعاءات لم يدركوا عمق الاصابة العاطفية ، وقوة الضربة التى لحقت بالكرامة القومية العربية ، وشعور العرب عامة بالرغبة فى الثار والعرب الفلسطينيين خاصة ، ولم يدخلوا فى اعتبارهم ان العرب يتصورون ان اسرائيل دولة صغيرة وضعيفة قامت منذ مدة وجيزة ، وسوف تهزم ان عاجلا او آجلا فى جولة تالية يعود بعدها اللاجئون الى ديارهم .

وهكذا أخذ قادة العرب وحكامهم يتخذون من اللاجئين الفلسطينيين أداة سياسية سلاحا سيكلوجيا قويا فى حربهم ضد اسرائيل ويحتفظون بهم ويجمدونهم فى معسكرات تثير الشفقة حول الحدود الجديدة ، ويثيرون فى قلوبهم مشاعر الاحباط والكراهية والانتقام فى الخمسينات أخذت اسرائيل فى تنفيذ مشروعات استيطان كبرى وتوطين

المهاجرين الجدد ، وبنيت عشرات المدن الجديدة ، وانشئت مئات القرى الجديدة ، جزء منها على أراضى اللاجئين العرب وجزء على أراض صخرية وأراضى بور ، وتلال صحراوية لم تستصلح أبدا ، وحفرت آلاف الابار ، ومدت آلاف الكيلو مترات من انابيب المياه ، وتأسست مئات المصانع الجديدة وأضحت دولة اسرائيل بفعل الهجرة والصناعة دولة يهودية بالفعل ، وبقى فيها حوالى ١٠ ٪ من العرب الفلسطينيين الذين لم يهربوا ولم يتحولوا الى لاجئين ، وانما حصلوا على الرعوية الاسرائيلية ومعظمهم فى الجليل وأخذوا يندمجون فى الدولة اليهودية ، لا عن حب ولكن تسليما بالامر الواقع وبقدرهم وذلك بعد مشاكل وعذاب وأخذ ورد .

لدى قيام الدولة تولى أمورها رجال الهجرة الثانية والثالثة وعلى رأسهم دافيد بن جوريون ، وحملوا على اكتافهم مسئولية قيام الدولة ونهوضها ، تلك الدولة التى انشأوها بأيديهم ، وبعصارة حياتهم ، وبذلوا كل ما فى وسعهم وظفروا طفرات واسعة فى كل مجال من مجالات الحياة .

لدى قيام الدولة كانت هذه القيادة فى أوج نشاطها وقوتها واستطاعت حقا فى حياتها ان تحقق الحلم الصهيونى ، بخلق دولة يهودية مفتوحة لاستيعاب المهاجرين ، وظل يطاردهم طول الوقت هذا الكابوس الذى أورثوه للجيل التالى ، وهو ان هذا المخلوق الصغير اللين يمكن ان يهلك فى اى لحظة ، وأدركوا من تجربتهم الطويلة ان استمرار الوجود المادى لاسرائيل يتوقف على قوتها وحكمتها ، وقد بذلوا كل قوتهم فى تعزيز قوة الجيش ، وخصصوا كل موارد الدولة والشعب اليهودى للامن وكان هذا كل همهم .

لم يستطع العرب تحمل عار وهوان الهزيمة التى منوا بها فى سنة ١٩٤٨ ، وأضحى اللاجئون العرب شاهدا يذكرهم بما حل بهم وأخذوا يبحثون عن تفسير يفسرون به المصيبة التى نزلت بهم وكبش فداء يلقون عليه جريرة ذلك ، ووجدوا بغيتهم فى القصص المزعومة عن الدول الاستعمارية الكبرى التى عاونت اليهود بالجنود والاسلحة والمال ، لانه يريح نفوسهم أكثر ان يكونوا خصوما لامبراطوريات عظيمة ليس اليهود الا اداة فى يدها ، وان تحل بهم الهزيمة على ايديها عن ان يهزمهم القلة من اليهود (أدى خداع النفس هذا الى خطأ فى تقدير قوتهم الذاتية وقوة اسرائيل الحقيقية ، وكان هذا من عوامل هزائمهم التالية) وسرعان ماوجد العرب كبش فداء من ملوك ورؤساء الدول العربية

التى قاتلت اسرائيل وبعد الحرب ببضع سنوات عزل فاروق ملك مصر ، وقتل او عزل سلسلة من الرؤساء السوريين الواحد بعد الاخر ، وقتل ملك العراق ، وفى منتصف الخمسينات اصبح فى مقدور العربان يقولوا لانفسهم ان قادتهم السابقين كانوا خائنين ، وان حكمهم كان فاسدا ، ولم يعدوا الجيش لمحاربة اليهود . وبدلا من شراء الاسلحة وضعوا الاموال فى جيوبهم ،والان وقد عزلناهم وأصبح على رأسنا قادة جدد لم يوقعوا بأيديهم اتفاقيات الهدنة مع اسرائيل ، وليسوا مسئولين عن الهزيمة ، فلنعبئ كل قوتنا للجولة الثانية ، ولنكرس كل جهودنا لتكوين جيش حديث وقوى ، وعندما يحين اليوم نضرب اسرائيل وندمرها " فى منتصف الخمسينات تفاقم التوتر بين اسرائيل وجاراتها وبدأ الجانبان سباق التسلح .

وأخذ اللاجئون الفلسطينيون فى تكوين المنظمات الفدائية فى معسكراتهم فى مصر والاردن وسوريا بمعاونة الجيوش العربية النظامية ، للقيام بعمليات حربية صغيرة ضد اسرائيل وتخصص رجالها فى التسلل الى المستوطنات اليهودية ،وقتل المدنيين بالالغام والكمائن ، وحاولوا - ونجحوا الى حد ما - فى زعزعة الامن داخل اسرائيل ، بل وتمكنوا فى بعض المناطق من شل الحياة العادية ، وردت اسرائيل بعمليات انتقامية من وراء الحدود وانزلت ضرباتها بالاماكن التى يهجم منها الفدائيون وهكذا بدأت الدائرة المغلقة العين بالعين والسن بالسن " وأغلق حكام مصر الجدد بقيادة عبد الناصر مضايق تيران ، ومنع مرور سفن اسرائيل وطائراتها للبحر الاحمر وافريقيا وآسيا وقام عبد الناصر بتوحيد مصر وسوريا وأنشأ الجمهورية العربية الموحدة ، ولم يخف هدفها الرئيسى لحظة واحدة ، وهو ابادة اسرائيل . شعرت اسرائيل بحبل المشنقة يضيق حول رقبتها ،وقامت بتحذير مصر عدة مرات ، وطلبت منها ان تكف عن التستر على الفدائيين ، وأن تعود لفتح مضايق تيران ، ولكن وجدنا ان الرد على هذا كان زيادة موجة القتل والاعمال التخريبية .

من حرب سيناء سنة ١٩٥٦ - الى حرب الايام الستة سنة ١٩٦٧

فى سنة ١٩٥٦ قررت حكومة اسرائيل القيام بعملية عسكرية بهدف تصفية قواعد الفدائيين فى قطاع غزة وسيناء ،وضرب الجيش المصرى ضربة قاسية .

تصادف فى ذلك الوقت ان كان للبريطانيين والفرنسيين دوافعهم للنيل من عبد الناصر لاكراهه على التراجع عن تأميم قناة السويس فأخذوا يعدون وينسقون مع اسرائيل عملية مشتركة ، وانتهت حملة سيناء التى قامت بها اسرائيل فى اكتوبر سنة ١٩٥٦ بنصر عسكرى رائع ، وغمرت قوات الجيش الاسرائيلى اراضى سيناء ووصلت الى قرب قناة السويس، انتهت العملية البريطانية الفرنسية " موسكتير " والتى كان هدفها احتلال القناة بخذلان ذريع ، فان البريطانيين والفرنسيين لم يستشيروا امريكا فى هذه العملية ، ورأى السوفييت فيها فرصة ذهبية للتسلل للشرق الاوسط ،فأرسلوا انذاراتهم للدول المتحالفة وأدى ذلك الى ذعر الانجليز الذين أوقفوا العملية وهى لا تزال فى مهدها وسرعان ماتفككت الجهود الحربية الانجليزية الفرنسية ، وانسحبت قواتهما من بور سعيد ووصلت قوات الامم المتحدة للقناة .

وقعت اسرائيل آنذاك تحت ضغط قوى - امريكى وروسى ودولى - واضطرت للموافقة على الانسحاب من سيناء وقطاع غزة ، مقابل وعود دولية غامضة بان تظل مضايق تيران مفتوحة على الدوام امام السفن الاسرائيلية ، ووضع قوات من الامم المتحدة فى شرم الشيخ وسيناء ، وقطاع غزة وتفصل بينها وبين اعدائها .

واستطاع عبد الناصر بذكاء وحذق بجمعه بين الحملة الاسرائيلية والعملية العسكرية البريطانية الفرنسية ان يحول الهزيمة العسكرية التى منى بها على يد اسرائيل فى سيناء الى نصر سيكولوجى ، وأن يظهر نفسه امام شعبه والعالم الغربى كما لو كان قد نجح فى التغلب على دولتين استعماريتين كبيرين وعلى اسرائيل فى وقت واحد .

استمر تأثير هذا النصر السيكلوجى لعبد الناصر عشر سنوات فى نفوس العرب، ولم تنل حملة سيناء من كرامتهم القومية .

بدأ عبد الناصر نفسه وزملاؤه يصدقون انهم فعلا انتصروا على الجميع بما فى ذلك الاسرائيليين ، وانهم اذا قووا جيشهم يستطيعون القيام بجولة ثالثة وحاسمة يلقون فيها باليهود الى البحر .

ادهى من هذا ان العرب استخدموا حملة سيناء كدليل على ان اسرائيل لها نوايا توسعية ، وتبغى احتلال أراضى عربية أخرى .

وقد وجد الادعاء بان اسرائيل دولة توسعية ، ولا حدود لرغبتها فى التوسع ، وان هذا هو القوة الدافعة لاعمالها – وجد آذانا صاغية بين العرب منذ بداية المشروع الصهيونى ، وقد رأوا فى موافقة اليهود مرتين على تقسيم البلاد مجرد مناورة فى سبيل تحقيق اهدافهم الحقيقية ، واحتلال أكبر قدر ممكن من الاراضى العربية ، واستعمان العرب بشعارات الاحزاب ذات الايديولوجيات المتطرفة فى اسرائيل ، وأثبتوا ان اليهود ينوون احتلال فلسطين بأكملها ، وشرق الاردن ، وانهم ينوون الوصول الى الفرات والنيل ، وأذاعوا على الجماهير قصة الخريطة المعلقة فى الكنيست ، وقد رسمت عليها حدود الامبراطورية اليهودية الضخمة التى سوف تتكون .

لم تجد كافة التأكيدات الاسرائيلية من فوق جميع المنصات الدولية ، وبكل طرق الاعلام بان اسرائيل تريد ، وعلى استعدادها للاكتفاء دائما بحدود اتفاقيات الهدنة لسنة ١٩٤٩ كحدود نهائية بشرط واحد ، هو أن تعترف الدول العربية بها ، وأن توقع معاهدة اسلام بين الدول العربية واسرائيل طبقا لها .

شكل استمرار مشروعات التنمية الزراعية والحضرية باسرائيل واستيعاب مئات الآلاف من المهاجرين الجدد بعد حرب ١٩٥٦ – دليلا جديدا فى نظر العرب على ان اسرائيل الصغيرة أخذت تكتظ بجماهير اليهود ، وانهم ان عاجلا أو اجلا سوف ينفجرون للتوسع فى مساحات جديدة ، ولم تجد التفسيرات المتكررة من اسرائيل بانها لاتحتاج لدونم واحد لتهجير ملايين اليهود ، لان نصفها حتما غير مسكون على الاطلاق وانها تستوعب المهاجرين بالتكنولوجيا الحديثة وبطرق لاتستلزم أراضى جديدة .

فى منتصف الستينات كان عدد سكان اسرائيل قد بلغ مليونين ونصف مليون نسمة ولم تفتر بعد كراهية الشعوب العربية وقادتها ولم تهدأ رغبتهم فى الثأر ، ولم تنقشع شكوكهم فى نوايا اسرائيل التوسعية ، بل على العكس زادت الكراهية والرغبة فى الثأر والريبة لدى الجيل الجديد من القادة الشبان العرب الفلسطينيين الذين رأوا فى ابادة دولة اسرائيل الحل الوحيد والنهائى لمشكلتهم .

لم تقف اسرائيل كما ينبغى على عمق مشاعر العرب عامة والفلسطينيين خاصة ، فقد أدى بها سنوات الهدوء النسبى على الحدود من أواخر الخمسينات حتى منتصف ١٩٦٧ الى ان تسمح لنفسها بالتخفيف من التزمت العسكرى ، ورفع مستوى معيشة السكان الى

حد الكماليات ، والانغماس فى خصومات وانشقاقات سياسية عنيفة ، والاستسلام لتجارب اقتصادية للعمل على الانكماش الاقتصادى مما أدى الى بطالة زائدة .

وكان استئناف نشاط الفدائيين والفتح فى منتصف الستينات على حدود اسرائيل وداخلها ، مفاجأة لها ، ولم تقدر اسرائيل أيضا كما ينبغى عمق التغلغل السوفييتى فى الدول العربية .

ان صفقات الاسلحة الاولى بين مصر والاتحاد السوفييتى تمت فى منتصف الخمسينات ، وفى حملة سيناء سنة ١٩٥٦ كان جزء من الجيش المصرى مجهزا باسلحة سوفيتية حديثة ، وكان من الطبيعى ان يسعى الاتحاد السوفييتى للتسلل للفراغ الذى نجم عن تخلى البريطانيين والفرنسيين المبغوضين عن مستعمراتهم فى الشرق الاوسط ، وان تستغل النزاع العربى – الاسرائيلى لصالحها وتبدو كمدافعة عن القضية العربية ، وكان أغلب الظن انه بالنظر نظرة واقعية الى ميزان القوى الحقيقى بين الدول العربية واسرائيل ينتظر من الاتحاد السوفييتى ان يكون عامل تهدئة وانه لن يسمح أو على الاقل لن يشير على الدول العربية وعلى راسها مصر بالتردى الى صدام عسكرى حاسم مع اسرائيل .

وكان من الواضح ان على السوفييت ان يروا انه اذا هزم العرب فى معركة سوف تهتز مكانتهم هم ، واذا انتصروا ودمروا دولة اسرائيل بمعونة الاسلحة السوفيتية سوف يقف ايضا الاتحاد السوفييتى متهما بقتل شعب وتهتز شخصيته كحام للشعوب الضعيفة ، ولن يلجأوا اليه كما ان تقديرات اسرائيل فى سنة ١٩٦٧ كانت ان الدول العربية ومصر على راسها لم تصل الى درجة الاستعداد لشن حرب شاملة ، فقد تطورت مصر فى حرب منحوسة فى اليمن ، وظهر ان جيشها لا زال عاجزا عن منازلة حتى القوات غير النظامية المجهزة بأسلحة بدائية ، كما اعتقدت اسرائيل ان عبد الناصر يعلم حقيقة الهزيمة التى منى بها جيشه فى سيناء فى سنة ١٩٥٦ ، وانه هو نفسه على الاقل لم تسكره خمر دعايته الناجحة التى حولت هزيمته لنصر .

ولكن اسرائيل لم تدخل فى حسبانها العامل العربى الفلسطينى ، ولم تقف على عمق الثورة التى تجتاح الجيل الشاب من اللاجئين الفلسطينيين الذى أصبح تحت رعاية الدول العربية شعلة الشرق الاوسط ورأى هؤلاء الفلسطينيون ان حركات التحرير العربية وغيرها ، التى تتخذ سلاح الارهاب وحرب العصابات تسير من قوة الى قوة ومن نجاح الى نجاح وأخيرا تنجح فى تحرير بلادها ، وشاهدوا انتصار جبهة التحرير

الجزائرية (دون ادراك ان الجبهة كانت تحارب جيشا أرسلته الدول الام التى أكلتها النازعات وانهكتها الحروب) ، وأعجبوا بانتصار كاسترو (دون ان يروا ان كوبا حدثت فيها ثورة اجتماعية داخلية وليست حربا بين شعب وشعب) وأعجبوا اعجابا شديدا بطرق قتال الفتكونج ونجاحهم (مع تجاهل الحقيقة من انه فى فيتنام حدث صراع بين اسلوبين اجتماعيين وبين دولتين كبريين تستغلان كل بطريقتها نصف نفس الشعب) .

سار العرب الفلسطينيون فى هذا التيار وكونوا الفتح وبعض حركات التحرير الاخرى طبقا للنماذج التى كانت موجودة آنذاك فى أجزاء مختلفة من العالم ، وكان هدف منظماتهم هدم اسرائيل ، واقامة فلسطين العربية على انقاضها ، وهذا بوساطة الاعمال الارهابية فى داخل اسرائيل واجتذاب الدول العربية لمعمعة الصراع مع اسرائيل ، وبادراكهم مسبقا ان اسرائيل سوف ترد على كل عملية عسكرية للدول العربية ، فقد املوا واعتقدوا انه سوف يقع فى نهاية الامر صدامات مسلحة على حدود المواجهة الشاملة بين الجيوش العربية واسرائيل .

رأى هؤلاء الشبان الفلسطينيون فى الثورة الفلسطينية وتكوين حركة حرب عصابات تقاتل اسرائيل بلا هوادة ودون شفقة السبيل الوحيد للعودة لوطنهم ومحو دولة اليهود من الخريطة .

وأخذوا فى منتصف الخمسينات فى تنفيذ خططهم ونجحوا فى تصعيد عمليات الارهاب على حدود اسرائيل وفى داخلها ، وأفلحوا فى اجتذاب سوريا المتطرفة لعمليات عسكرية متزايدة ، وعقدوا حسابهم على ان تؤدى العمليات الانتقامية الاسرائيلية الى تصعيد متزايد .

حرب الايام الستة

اختار العرب الفلسطينيون مصر لمهمة ضخمة ليست فى مقدورها وهكذا دون تخطيط ودون تفكير مسبق من اى جانب عدا " فتح " ساد توتر عظيم فى مايو سنة ١٩٦٧ بين الدول العربية واسرائيل ، وزاد خطر الصدام العسكرى بينهما ، وخلال بضعة أيام وقفت جيوش عربية ضخمة وجيش اسرائيل متأهبة للحرب الواحد منها امام الاخر ، ونجح

عبد الناصر فى ابعاد قوات الامم المتحدة من سيناء وان يسير معظم جيشه لحدود اسرائيل ، وأسكره هذا النصر السهل ، فسد مضايق تيران ، ولم تكن هذه العملية تتطلب أكثر من طرد بضع مئات من جنود الامم المتحدة من شرم الشيخ . وقد نجح فيها أيضا بسهولة ، وأعلن عن يوم الحساب مع اسرائيل الذى اخذ يقترب ، وعن هدم اسرائيل الذى سيعقب ذلك واجتاحت العرب عاصفة ضخمة ، وانساقت الاردن ومليكها الى معمعة الحرب ، وشعرت سوريا انها قطب رقصة الموت التى أخذت تدور حول اسرائيل ، كما انضمت سائر الدول العربية وقد اعتقدت ان يوم الثأر قد حل وان دولة اسرائيل سوف تفنى ، ويستأصل السرطان الصهيونى من جسم العالم العربى ، وسوف يلقى باليهود الى البحر .

كان هذا هو الوضع عشية الحرب ولم يستخدم السوفييت نفوذهم لتهدئة الحالة ، بل بالعكس غرسوا فى قلوب العرب سرا وعلانية الامل بان الاتحاد السوفييتى سوف يساعد العرب حتى النهاية ، ووقفت امريكا ودول الغرب الاخرى موقف المتفرج واكتفت بالاعراب عن الاسف والتعاطف ، وظلت اسرائيل وحدها امام الجيوش العربية ، لم يدرك العرب (لم تكن هذه هى المرة الاولى التى يؤدى فيها عجزهم عن الفهم الى هزيمتهم) رد فعل يهود اسرائيل واليهودية العالمية على تهديداتهم فقد رأى اليهود انفسهم كما فى حرب ١٩٤٨ مقضيا عليهم بالفناء ، واستقبلوا تهديدات العرب بكل جدية ، وبما تنطوى عليه من فظاعة .

لم يدرك العرب ضخامة العاصفة النفسية التى أثارتها تهديداتهم بين الشعب اليهودى بأجمعه ، الذى لم تمض الا مدة قصيرة على نكبة النازى التى حلت به ، وان سكان اسرائيل البالغ عددهم مليونان ونصف مليون متمسكون بأرضهم ، ويحبونها ، كما يحب ابناء اى شعب آخر موطنهم وربما أكثر ، وانهم على استعداد للدفاع عنها والموت من اجلها .

يظهر ان الانقسامات والخصومات وحملات التشهير المتبادلة والنقد الصحفى المرير لبعض ظواهر حياتنا ، والجدل العام الصريح والمفتوح بدت فى نظر العرب وربما كذلك فى نظر السوفييت كعلامات ضعف داخلى فى اسرائيل ، ولم يحسبوا حساب قوة جيشها وقواتها الاحتياطية الضخمة حتى على النطاق العالمى والتى تستطيع اسرائيل ان تلقى بها خلال ساعات معدودة الى حلبة القتال .

كان على أقرب جيران اسرائيل العرب ـ الفلسطينيين والاردنيين والسوريين والمصريين ان يدركوا من تجارب الماضى بعض هذه الحقائق الاساسية ، وأن يقدروا قوة القبضة الفولاذية التى تقف امامهم ، ولكنهم فى مايو سنة ١٩٦٧ نسوا دروس سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ المريرة ، واستولى على العرب جنون الثأر من اسرائيل ، ولم تكن هناك قوة فى العالم تستطيع تهدئتهم وتخفف حماسهم ومنع الحرب.

فى الخامس من يونيو عندما شعرت اسرائيل بحبل المشنقة يضيق حول عنقها أطلقت قبضتها المتأهبة ، وأخذ الجيش الاسرائيلى يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة يتقدم بقوة هائلة ومدمرة جيوش مصر والاردن وسوريا التى كانت تقف فى طريقه ، واحتل خلال ستة أيام سيناء كلها حتى قناة السويس ، والضفة الغربية جميعها ، ومرتفعات الجولان .

واستولى الذهول على المقهورين الظافرين على السواء بعد حرب السادس من يونيو ، من جسامة الهزيمة وضخامة النصر ، واستولى الذهول على العالم كله ، حتى هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بقوة اسرائيل لم يتوقعوا هذا النصر الضخم ، وكذلك لم يتوقع من كان يؤمن بقوة العرب مثل السوفييت وغيرهم لم يتوقعوا هذه الهزيمة الجسيمة وعندما أعلن وقف اطلاق النار . وبعد ان دفن العرب واليهود شهداءهم ، واجه الجانبان وضعا جديدا تماما وخريطة جديدة للشرق الاوسط ، كما اصبح النزاع العربى ـ اليهودى منذ تلك اللحظة مركز توتر دولى وخطر على السلام العالمى .

اقتنع الجانبان كل بطريقته ان مفتاح ادراك الوضع الجديد ان مخاوفهم وريبهم قد تحققت تماما ، وانه اذا كان اليهود يحتاجون لدليل قاطع على ان نية العرب ابادتهم ، فقد قدم لهم العرب هذا الدليل بصورة مقنعة ، ويمكن ان نملأ مجلدات بتصريحات علنية قاطعة للعرب عن نواياهم لتصفية اسرائيل ، ولن ينسى يهود اسرائيل على مر الزمن تصريحات زعماء العرب الواضحة وخطبهم الحماسية ، وحماس الجماهير العربية المتعطشة للدماء التى ظهرت على شاشات التلفزيون ودور السينما فى البلاد وفى العالم .

نقشت فظاعة هذه الايام بحروف من نار فى نفوس يهود العالم ، بانهم كانوا يخشون أكثر من يهود اسرائيل ـ الذين كانوا يدركون قوتهم الفعلية ويشعرون بخطورة قرارهم بالفوز ـ ان يأتيهم فى ليلة حالكة نبأ تدمير دولة اسرائيل ، وخراب

الهيكل الثالث ، وهلاك بنى اسرائيل او تشتيتهم بين امم العالم .

بعثت ذكرى النكبة التى حلت بيهود اوربا ، وهبط ظلها على العالم ، ومن هنا كان رد الفعل الرائع ، والتعاطف التام مع اسرائيل من جميع يهود العالم ، من صهيونيين وغير صهيونيين ، متدينين وعلمانيين من ذوى الوعى القومى او المنادين بالاندماج فى الشعوب . وقد أدرك الجميع أكثر منهم فى حرب التحرير ، بأن تهديد العرب بابادة اسرائيل هو تهديد مباشر لجميع الشعب اليهودى ولكل فرد فيه ، واذا كان هناك ضرورة لكى نثبت لانفسنا وللعالم أجمع أننا شعب واحد ، فقد كان أبلغ دليل على ذلك هو موجات العطف والمحبة والرعاية والمعونة التى انهالت علينا بعد النصر واصداء الزهو والفخر .

قدم نصر الجيش الاسرائيلى الرائع الذى استطاع ان يحتل أراضى تبلغ مساحتها ثلاثة أمثال اسرائيل قدم الدليل للعرب دليلا دامغا على ان ريبتهم فى مطامع اسرائيل التوسعية فى محلها ، ولم تجد مزاعم اسرائيل بان هذه حرب وقائية وحرب دفاعية ، وانها لو لم ترسل جيوشها لاراضى اعدائها لعبر الاعداء حدودها المكشوفة خلال ساعات أو أيام ، وحاولوا تدميرها ، ولم تجد تفسيرات اسرائيل بانه فى الخامس من يونيو يوم نشوب الحرب ضد مصر ، طلبت اسرائيل من ملك الاردن الا يفتح النيران فى الجبهة الشرقية ووعدته بألا يقع لمملكته اى شر .

لم يجد كل هذا ، فقد كان على العرب ان يفسروا ضخامة هزائمهم بشىء ما ، وحاولوا اقناع انفسهم انهم لم يكونوا يقصدون اى شىء وأن جيوشهم لم تكن تنوى مهاجمة اسرائيل على الاطلاق ، وأن المناورات التى قاموا بها لم تكن الا استعراضا ، وأن تصريحاتهم لم تكن الا خطبا حماسية ، وقنابل لفظية ، وحاولوا اقناع انفسهم ، وحاولوا ان يقنعوا انفسهم بان اسرائيل هى التى استغلت الموقف وشنت عليهم هجوما مفاجئا للاحتلال والتوسع ، ولم يكن هذا التفسير الا نوعا من اقناع الذات وايجاد ساتر سيكولوجى للواقع العارى الذى لا يبغى العرب ان يروه .

كما ان العرل المقهورين لم يستطيعوا هذه المرة كما فعلوا فى سنة ١٩٥٦ والى حد ما فى سنة ١٩٤٨ ان يدعوا ان قوات اجنبية ـ امريكية وانجليزية وفرنسية ـ قاتلت الى جانب اليهود الجبناء ، فقد كانت هذه المرة حرب شعب اتخذ قراره بنفسه ان يضع قدره فى كفة ، وحمل السلاح دون ان يستشير اصدقاءه ، ودون ان يطلب أحد ان يرسل لمعونته ولو جنديا واحدا .

الاعمال الارهابية وحرب الاستنزاف

كانت منظمات المقاومة الفلسطينية اول من افاق من صدمة الهزيمة ، وكان اسهل عليهم من غيرهم ان يفسروا لانفسهم الموقف ، فانهم هم الذين دفعوا بالدول العربية الى الصدام العسكرى والان يستطيعون ان يقولوا لها : لقد رأيتم بأنفسكم ان كلامنا كان حقا بان الاسرائيليين لهم نوايا توسعية ، وانهم لا يرغبون فى احتلال أرضنا فحسب ، بل ان هذا ليس الا البداية ، لان الاسرائيليين لم يبلغوا بعد كل امانيهم وهم ينوون احتلال أراض أخرى ، ولن يرتاحوا او يهدأوا حتى يحتلوا دمشق وعمان والقاهرة ، ولن يلقوا سلاحهم حتى يصلوا الى الفرات والنيل ويملون من هناك سلامهم على العالم العربى .

كما اعتقد زعماء المنظمات الفلسطينية انه قد سنحت لهم الان فرصة ذهبية للقيام بحرب عصابات حقيقية فى اسرائيل وتخريبها من الداخل ، وآملوا ان يستطيعوا الان ان ينظموا حربا مثالية ضد محتليهم ، وتكوين حركة مقاومة سرية مسلحة تقوم على أساس شعب عربى تسيطر عليه قوة اجنبية ، يعاونه آلاف العرب الاسرائيليين ومليون فلسطينى أصبحوا الان تحت الاحتلال الاسرائيلى . وتقاتل اسرائيل بمعونة الدول العربية حرب عصابات وحرب فدائية ، والا تدع لها راحة ، وان تنهال عليها بالارهاب الشخصى والجماعى ، وان يسمحوا حياة اهلها ، وأن يرعبوا المهاجرين الجدد والسائحين حتى يمنعوهم من الحضور للبلاد . كما رأت المنظمات الفلسطينية ان عليها ان تقاتل اليهود اينما كانوا ، لان اليهود انفسهم قد اثبتوا انهم جميعا صهيونيون ، ولذلك يجب ضربهم فى أى مكان من العالم بضرب المنظمات الصهيونية وسفارات اسرائيل ومؤسساتها فى الخارج ، وكذلك فى الجو والبحر .

فى السنوات الثلاث الاولى التى أعقبت حرب الايام الستة نهضت المنظمات الفلسطينية وعلى رأسها " فتح " نهضة عظيمة ، ونمت نموا كبيرا وجندت آلاف الشباب من بنى شعبهم ، وحصلوا على معونة كبيرة الحجم من الاموال والاسلحة من الدول العربية ، ونجحوا فى اقناع جزء كبير من الرأى العام العالمى بانهم ليسوا الا حركة تحرير ، ليس فى نيتها ابادة يهود اسرائيل بل ان ينشئوا بها دولة فلسطينية

ديموقراطية متعددة القوميات يعيش فيها اليهود والعرب جنبا الى جنب ، بل ونجحوا ايضا فى زيادة العمليات الارهابية بين الاهالى اليهود وفى نسف الاسواق والمطاعم والاضرار بالمواصلات الجوية والتنكيل بأهالى مستعمرات الحدود بنصب الكمائن وبث الالغام ، وشن الغارات بالكاتيوشا ، ودفعوا فى سبيل هذا ثمنا غاليا من ارواحهم ودمائهم وأسقطوا مئات الضحايا من الاسرائيليين بين قتلى وجرحى ، وقد جعلتهم هذه العمليات فى نظر العرب متقمصين جسورين ومقاتلين بواسل ، أعادوا للعرب كرامتهم القومية واعتقدوا لبرهة قصيرة ان عملياتهم أوصلتهم لاعتاب هدفهم .

لم يمض زمن طويل – سنة وبعض السنة – حتى أخذت الدول العربية تفيق وتضع لنفسها عقيدة قتالية ضد اسرائيل الظافرة ، وبلوروا نظرية الرفض الثلاثة التى وضعت فى الخرطوم والتى تنص على ألا مفاوضات والا اعتراف وألا سلام مع اسرائيل ، وكان اعلان هذا الرفض الكلامى فيه تنفيس عن الدول العربية ، وقالت : اننا حقا هزمنا فى القتال ولكنا لم نخسر الحرب ، وسوف ننهض ونضرب اليهود ، ونستعيد أرضنا وكرامتنا .

كانت مصر فى عهد عبد الناصر هى أول من اتخذ طريقة قتالية جديدة تلائم الواقع الجديد وهى طريقة حرب الاستنزاف . كان اساس هذه الطريقة هو : " ان ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة " ، ولما لم يكن لدى المصريين القوة الكافية للهجوم واسترداد الاراضى ، وتحريرها من ايدى المحتل ، فخطر لهم ان يضربوا الجيش الاسرائيلى فى أضعف الاماكن ، وحيث يوجد لهم اقوى المواقع فى منطقة القناة ، وخيل اليهم انهم يستطيعون ان يحشدوا هناك قوة ضخمة ثابتة لا سيما من المدفعية والهاونات تضرب جنود اسرائيل القلائل الذين يعسكرون على القناة ، ويستنزفونهم بالقصف المستمر ويدمرون مواقعهم القليلة الجنود ، ويستأصلونهم من القناة ، وبهذه الطريقة يفوزون بنصر استراتيجى وسيكولوجى من الدرجة الاولى وبعد هذا يستطيعون ان يتقدموا بقوتهم هذه حتى تحقيق هدفهم النهائى .

شن المصريون حرب استنزاف ، ونجحوا فعلا – بثمن فادح جدا – ان يلحقوا أضرارا بمواقع الجيش الاسرائيلى فى منطقة القناة ، وأن يهدروا دماء جنودنا ، وبدا لعبد الناصر – لبرهة قصيرة – انه اختار طريقة القتال السليمة .

لما رأت سوريا والاردن ان المنظمات الفلسطينية قد نجحت فى عملياتها ، وان

المصريين فتحوا النيران ، أخذت كل منهما بطريقتها تعمل بكل قوتها على قصف مواقع الجيش الاسرائيلى ومستعمرات الحدود ، وتقدم المعونة لمنظمات المقاومة الفلسطينية .

أصيب الاتحاد السوفييتى بذهول من انتصار اسرائيل ، وأعادت تقدير الموقف من جديد فور حرب الايام الستة ، وحاولت بكل مافى استطاعتها ان تستغل نكسة العرب لصالحها ، وكذلك هزيمة عبد الناصر ، واتخاذ ضعف العرب مصدر قوة لها ، وللسيطرة عليهم .

زاد الاتحاد السوفييتى دعايته المعادية لاسرائيل ، وظهر فوق كل منبر كحامى العرب ، وأرسل الكثير من الخبراء والعسكريين لمصر وسوريا ، وأمدتهما من جديد بالكثير من المعدات الحربية والاسلحة الحديثة ، لرفع معنوياتها ، ولزيادة اعتماد جيوشهما وحكومتيهما على السوفييت ، ونجح الاتحاد السوفييتى خلال ثلاث أو اربع سنوات فى مستعمراتها الجديدة ، بل أكثر مما توقع ، وألحقت بفلكها سبعا من الدول العربية المستقلة الاربعة عشر ، وقد التصقت به أكثر مصر وسوريا ، وزاد اعتمادها عليه أكثر من غيرهما ، وحقق الاتحاد السوفييتى بمعونة النزاع العربى الاسرائيلى ونكسة العرب حلم اجيال القياصرة الروس فى الوصول الى المياه الدافئة مياه البحر المتوسط واتخاذ الشرق الاوسط منطلقا لافريقيا والمحيط الهندى .

واجهت اسرائيل فى السنوات الاولى التى أعقبت حرب الايام الستة حرب ارهاب وحرب عصابات فى داخلها وفى الاراضى التى تحتلها ، وحرب استنزاف ثابتة على حدود وقف النيران من جميع نواحيها .

كانت كل صورة من صور القتال هذه جديدة على اسرائيل ، حقا تعرضت اسرائيل لعمليات القتل والارهاب والتخريب منذ قيامها (بل تعرض لها أيضا المستوطنون اليهود الاوائل فى فلسطين منذ بداية النزاع اليهودى العربى منذ مائة عام) ولكن بعد حرب الايام الستة اتخذت طرق ارهابية عصرية أكثر تقدما وأكثر خطرا .

دون أن نتعرض فى هذه المرحلة لمشكلة الاراضى والفلسطينيين نجد هناك اتفاقا فى الرأى بين يهود اسرائيل ازاء حتمية محاربة الحركات التخريبية (أو كما تطلق على نفسها حركات المقاومة او الفدائيين) بكافة الوسائل والاسلحة ، وكل القوة التى تتطلبها هذه الحرب . وكان الذى فرض صورة هذه الحرب الوحشية هى الحركات

الارهابية نفسها ، فان رجال المقاومة لايتورعون عن أى وسيلة فى هذه الحرب ، فهم لايميزون بين المدنيين والجنود ، بل بالعكس فانهم يخشون الاحتكاك المباشر بالمقاتلين ويفضلون ضرب المدنيين والنساء والاطفال ، ويختلطون ، ويعملون دون ملابس عسكرية فى كنف الظلام ، يضربون ويهربون ، يتطلعون ان يعم الفزع منهم كل مكان وكل ساعة ، وليس لهم خطوط جبهة ولا حدود .

كان للارهابيين ورجال العصابات الفلسطينيين عدد من المزايا لم يحظ بها الا القليل من حركات حرب العصابات من قواعد فى جميع الدول العربية التى تحيط باسرائيل تستطيع ان تنطلق منها فى اى وقت وان تهرب اليها فى اى ساعة ، وقد حصلوا على معونة مالية ضخمة ومعدات وأسلحة من كافة الانواع ، كما تلقوا تدريبات ومشورات من الدول العربية ، ومن الدول الشيوعية وخبراء حرب العصابات والصاعقة الشيوعيين والثوريين بانواعهم ومعونة المرتزقة بانواعهم .

وضعت اسرائيل طرقا لمقابلة طريقة القتال هذه ومنها القديم المجرب من عشرات السنين فى مكافحة العصابات ومنها الجديد والحديث جدا .

واخطأ المقاتلون الفلسطينيون الذين كان يجب ان يعرفوا يهود اسرائيل افضل من غيرهم من العرب — اخطأوا خطأ فادحا بنقلهم طرق وقوالب حرب العصابات التى اتبعت ولازالت متبعة الان فى دول اخرى وفى ظروف مغايرة تماما .

نسى رجال حرب العصابات العرب ان يهود اسرائيل هم أنفسهم مقاتلو حرب عصابات ، وذوو خبرة كبيرة فى حركات المقاومة السرية والقتال السرى ، وقد اكتسبوا هذه الخبرة خلال عشرات السنين من حياتهم فى فلسطين والعالم اجمع ، وانه الى سنوات معدودة كان سلاح حرب العصابات هو السلاح التقليدى للمقاتلين اليهود ، وانهم كانوا دائما قلة امام كثرة حتى قيام دولة اسرائيل ، وان منظمات الشومير والهاجاناه والارجون ، ولحى كانت تحارب حرب عصابات نموذجية ضد الاتراك والعرب والانجليز .

كما ان اليهود قاتلوا منذ عهد قريب حرب عصابات يائسة فى المنفى وانشأوا حركات مقاومة سرية وحركات مقاومة مسلحة ضد الالمان الم تكن ثورات اليهود فى جيتو اوربا وحرب عصابات اليهود فى اوربا حرب عصابات ؟ الم تكن عملية تهريب المهاجرين من اوربا الى فلسطين عملية مقاومة سرية على نطاق دولى ؟

كما ان حرب سنة ١٩٤٨ كانت تتميز بالكثير من سمات حرب العصابات ، كما

ان العمليات الانتقامية التى قام بها اليهود الاسرائيليون بعد قيام الدولة كانت تقوم على أساس حرب العصابات والعمليات الصغيرة التى تجرى وراء خطوط العدو .

وبصورة يمكننا القول ان وضع اسرائيل كدولة صغيرة تجاه عالم عربى معاد يطوقها من كل جانب ويهدده بابتلاعها يفرض عليها حياة حرب العصابات ، واذا وصفناها بانها الجمع بين الفطنة والتصرف والدهاء ، والمفاجأة من القلة تجاه الكثرة ، نستطيع ان ندرك ضخامة خبرة الجيش الاسرائيلى فى هذه الحرب . تجاهل المقاتلون الفلسطينيون أيضا ان الاسرائيليين ليسوا امريكيين او أوربيين يسيطرون على دولة أجنبية بعيدة يجهلون عادات الاهالى المحليين ولم يسمعوا لغتهم ولهجاتهم ، ولم يسلكوا الطرق والسبل التى تدور فيها حرب العصابات ، كان عليهم ان يعلموا ان معرفة البلاد هى هواية قومية لدى الاسرائيليين ، وانهم يعرفون جبال البلاد ووديانها وسهلها واودغالها وكهوفها وأسرارها كما يعرفون راحة أيديهم ، وانهم يعرفون الاهالى العرب ولغتهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم ودقائق دقائقهم .

عندما بدأ المقاتلون الفلسطينيون وعلى رأسهم رجال فتح عملياتهم التخريبية والارهابية أرسلت لهم اسرائيل جيشها وبوليسها ومخابراتها فوضعوا متعاونين طريقة قتال ضد حرب العصابات اساسها تدمير جماعات المخربين فى مبدأ تكوينها ، وقطع هذه الجماعات عن الاهالى العرب فى المناطق المحيطة باتهام الاهالى واحيانا بقسوة وحشية أن الاسرائيليين لن يكتفوا على استخدام القرى والمدن العربية مأوى وقاعدة للمقاتلين الفلسطينيين ، ثم مطاردة جماعات المخربين باستخدام جميع وسائل النقل والمواصلات السريعة بما فى ذلك طائرات الهليكوبتر ، وتوجيه ضربات مضادة من رجال الصاعقة الاسرائيليين من وراء الحدود ، والحاق اضرار جسيمة بقواعد المخربين فى أعماق مؤخرتهم ، وبث الرعب بين المقاتلين الفلسطينيين ، بافهامهم ان يد المقاتلين الاسرائيليين سوف تدركهم اينما كانوا ، بكشف خلايا الارهاب فى الخارج وخنقها وهى فى مهدها ، وبث العملاء بين صفوف المنظمات التخريبية ، وسد الحدود سدا محكما بالاجهزة الالكترونية وغيرها ، لمنع عبور المخربين العرب ، ودراسة الاتصالات الداخلية بين المستويات المختلفة للمنظمات الفلسطينية ، واستخدام الحرب النفسية بكل انواعها وألوانها واستخدمت اسرائيل كل هذه الوسائل وكثير غيرها ، وبعضها سرى جدا فى هذه الجبهة الهجية .

كما حذرت اسرائيل الدول العربية التى تنطلق منها جماعات المخربين الفلسطينيين ، واعتبرتها مسئولة عن هذه العمليات ، ولما لم تجد هذه التحذيرات عبر جيشها عدة مرات حدود وقف اطلاق النار والحق ضربات قاسية بقواعد المخربين فى الدول المجاورة .

نجحت الحرب الاسرائيلية ، وان كان نجاحا غير تام احيانا فى تحقيق الهدف الاساسى ، فقتل فى العمليات المضادة للارهاب عدد كبير من المقاتلين الفلسطينيين وعزل الاهالى الفلسطينيين فى المناطق المحتلة تماما عن المخربين ، وبدلا من ان يجعلوا حياة الاسرائيليين لاتحتمل أصبحت حياتهم هم لا تطاق .

كان رد الفعل لدى زعماء حركات المقاومة الفلسطينية على هذا الفشل ان صبوا غضبها على حكام بعض الدول العربية ونظام الحكم فيها ، ولا سيما ضد الاردن ، والتى وجدوا فيها المأوى والقواعد ، ولكنهم اعتبروها خائنة للقضية العربية ، وأنشأوا فيها المستعمرات مثل أرض فتح فى لبنان .

ووجهوا طاقاتهم الهجية التى لم تحقق هدفها فى اسرائيل نحو الداخل لمحاربة الاهالى العرب .

وركز الفلسطينيون نشاطهم فى الاردن ، وأثاروا غضب الحكام والجيش الذى وجه اليهم ضربات قاسية ووحشية ، وكذلك فى الدول العربية الاخرى لم تسمح لهم السلطات بان يرفعوا رؤسهم ، وفرضوا عليهم رقابة ، ورغم الدعايات العربية التى نسجتها الدول العربية لحركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، فانها وجدت نفسها محطمة بعد خمس سنوات من القتال . وكانت ردود اسرائيل على حرب الاستنزاف فى القناة هى الاخرى غير عادية ، من عمليات مضادة فى العمق وغارات فيما وراء الحدود ، وضربات لقواعد مدفعية العدو ، وأدى كل هذا الى استنزاف المستنزفين .

فى أغسطس ١٩٧٠ انشغل المصريون والاسرائيليون بمبادرة امريكية ، وأوقفوا النيران على طول القناة ، وفى المجال العسكرى قدمت اسرائيل ردودها على التحديات الجديدة التى واجهها العرب بها ، وظلت صامدة على خطوط وقف النيران التى نجمت عن حرب الايام الستة .

في مفترق الطرق

ماذا حدث في المجال السياسي ؟ في الاشهر الاولى التي أعقبت حرب الايام الستة استولت على اسرائيل نشوى من الانتقال الحاد من خوف الابادة الى نصر باهر مصحوب بألم لفقد مئات الشهداء في المعركة ، واتصل الاسرائيليون باماكن جديدة وطبيعة جديدة في القدس العتيقة والضفة الغربية والجولان وغزة وسيناء ، وتدافعت الجموع في مهرجان الرحلات والنزهات في المناطق الجديدة ، والتقوا بالاهالي الجدد ، كل هذا أحدث بلبلة في اسرائيل ، وبلبل آراء قادتها بالنسبة للمستقبل ، وبدا لبرهة انه عما قليل سوف يصل تليفون من قادة العرب المهزومين ، ثم نجلس معهم على مائدة المباحثات ، وتحل الامور انفسها ، وخيل الينا ان العرب الذين وقعوا في أيدينا سوف يصبحون في طرفة عين أبناء عمومة محبين ، وقلنا لانفسنا — ولم لا ؟ لقد كان الاحتلال سريعا وشريفا ، وقد اصبحت الان اسواقهم تغص بالمشترين اليهود من جميع انحاء البلاد ، فلماذا لا يحبوننا معشر الاسرائيليين الظرفاء ؟

ولكن الامر لم يكن على هذا النحو ، فقد أسأنا تماما في فهم الموقف وفي الاستعداد للقاء مع اهالي المناطق المحتلة ، فاننا لم نكن مستعدين سيكولوجيا وعمليا للموقف الجديد الذي فيه وقعت في أيدينا فجأة أراض جديدة وأهالي جدد يشملون حوالي مليون فلسطيني بينهم معظم لاجئي حرب ١٩٤٨ ، ومر وقت حتى أدركنا ان مصيرهم في أيدينا وأننا مسئولون عن حياتهم اليومية وعن مستقبلهم ، وسرعان ما انتظم الحكم العسكري في المناطق المحتلة وعلى طريقة الجيش الاسرائيلي في حسن التصرف ، وخلال فترة قصيرة كون الجيش الاسرائيلي جهازا اداريا وجهاز خدمات ، وأقر نظام الحياة في المناطق المحتلة ، بينما اتخذت الحكومة سياسة الجسور المفتوحة بين قطاع غزة والضفة الغربية وبين شرق الاردن ، وهذه سياسة غير عادية .

أعادت حرب العصابات وحرب الاستنزاف اسرائيل للواقع القاسي المرير ، وأدركت ان حرب الايام الستة والنصر لم يجلبا اي حل سحري للنزاع ، وانه بقدر الضربة التي حلت بالعرب ستكون ردودهم أقسى وأكثر لا معقولية ، وانهم لن يسلموا بما انزلته بهم اسرائيل ويتطلعون للانتقام .

ان نتائج حرب الايام الستة أدت باسرائيل لمفترق الطرق ، ووضعتها في اختبار ايديولوجي وسياسي وعسكري ، وواجهت اسرائيل مشكلة حجمها : فهل دولة اليهود هذه هي الدولة التي حدد حجمها مقاتلو حرب التحرير ؟ ان الجيش الاسرائيلي قام بحرب للدفاع عن كيانها ونتيجة لذلك احتل مساحات جديدة وتغير حجمها تماما ، وأصبحت تمتد على مساحات شاسعة تفوق كثيرا ما كانت تشمله في نهاية حرب التحرير ، والى الان لم تقدم اسرائيل لنفسها ولا للعرب ولا للعالم ردا واضحا ومحددا على هذا السؤال .

ان المشكلة ليست مجرد مشكلة الاراضي الجديدة ، بل أيضا مشكلة السكان العرب فيها وهي تتصل بكياننا كدولة يهودية بطابعها وسكانها ، بل وبحقوقنا التاريخية في هذه الاراضي التي احتللناها او في رأي البعض التي حررناها في حرب الايام الستة .

اتى الوضع الجديد الذي نجم عن حرب الايام الستة بكثير من الردود المبدئية او البرجماسية لمشكلة المشكلات هذه ، وللاراء المختلفة والمتناقضة التي صاحبت الصهيونية منذ قيامها ، وكذلك الجديدة وجدت لها الان مكانا تحت شمس الحقيقة التي أعقبت حرب الايام الستة ، فطوال السنوات التسع عشرة التي مرت على قيام الدولة كان هناك اتفاق عام بين قادة الدولة والاغلبية الساحقة من الاحزاب السياسية على انه اذا سلم العرب باسرائيل على اساس حدود اتفاقيات الهدنة التي وقعت في سنة ١٩٤٩ ، فانها سوف تعلن انها ليس لها ولن يكون لها في المستقبل اهداف اقليمية اخرى ، وليس معنى هذا الا تطلب اسرائيل في مفاوضات السلام تغييرات في الحدود ، مثل منفذ الى حائط المبكى ، والى الحي اليهودي بالمدينة العتيقة ، والى جبل الكبر ، وما الى ذلك ، والسماح لرعاياها بحرية زيارة الضفة الغربية والشرقية ، وايجاد طريقة واضحة وملزمة تضمن عدم اغلاق مضايق تيران في وجهها ، وفتح قناة السويس لسفنها ، وكانت اسرائيل مستعدة مبدئيا ان تعلن ان حدودها — رغم انها غير معقولة تكفيها . كذلك الاحزاب السياسية مثل حيروت التي ترفع شعار للاردن ضفتان ، وكذلك تلك " ، لم تذكر في برامجها طوال سنوات قيام الدولة حتى حرب الايام الستة الرغبة في التوسع الاقليمي كهدف معلن وصريح ، ولم تدع الشعب لاحتلال أراض اخرى بالقوة .

لكن بعد حرب الايام الستة تغيرت الامور تغيرا تاما ، وبدت اجاباتنا على مشكلة المشكلات هذه في نظرنا كدولة ديمقراطية وفي نظر العرب ونظر العالم كله اجابات مختلفة تماما وتناقض الواحدة منها الاخرى مناقضة تامة .

فمن ناحية نجد منا من يرى ان دولة اسرائيل يجب ان تمتد في المستقبل من نهر الفرات حتى نهر النيل اما اعتمادا على وعد الرب لابينا ابراهيم ، او اعتمادا على حجة استراتيجية ترتبط بأمننا او للسببين معا ، وفي رأى هؤلاء ان السلام لن يستقر الا اذا وقف جيش اسرائيل على هذه الحدود حين يدرك العرب انه ليس في استطاعتهم ولن يكون في قدرتهم ان يحاربوا هذه الدولة العظيمة ، وبهذا ايضا يتحقق الوعد الالهي .

ان من يعتنقون هذه النظرية ليسوا على استعداد مقابل اى ثمن ان يتنازلوا عن شبر واحد من الاراضي التي احتللناها في حرب الايام الستة ، لانها في رأيهم ليست الا جزءا من الارض الموعودة الواقعة بين النهرين ، ولكنهم لا يفسرون بدقة كيف سيضمون لاسرائيل مساحات شاسعة أخرى مثل شرق الاردن كله ، وأجزاء واسعة من سوريا ، وأجزاء أخرى من مصر ، انهم بالطبع كانوا يرون ان ضم هذه الاجزاء سيتم بالطرق السلمية ، ولكن منهم من يرى ان الجيش الاسرائيلي سوف يصل الى ضفاف الفرات والنيل نتيجة جولة حربية رابعة او خامسة ، ولكن هؤلاء الاشخاص لا يذكرون بدقة ماسيتم بملايين العرب الذين يعيشون في هذه التخوم ، ولكنهم يلمحون احيانا بان هذا يتم بتبادل السكان والزحزحة .

لئن أيد هذه الايديولوجية عدد قليل من يهود اسرائيل ويهود العالم فان شيئا لا يثنينا عن عرضها كرأى من عديد من الآراء ، لا لأنها معروفة جيدا لدى العرب وغيرهم في العالم ، بل لانها رغم كل مافيها من تطرف ، وانها تمثل قمة اللا معقولية تبدو في نظر معتنقيها قمة العدالة للشعب اليهودى وقمة الامن للدولة .

ان هذا الرأى لم يتبناه اى حزب في الكنيست الحالى ، ولم يرد في اى تصريح برلمانى ، ولكن يجب الاشارة الى وجوده على هامش مجموعة الاراء المختلفة لاستكمال الصورة .

هناك رأى آخر عرض في البرلمان ، وله شكل سياسى ، وهو رأى من ينادون بعدم

التنازل عن شبر واحد من الارض ، او بأرض اسرائيل المتكاملة ، وهذا ما ينادى به حزب حيروت وشيع من الاحزاب الاخرى (الدينيون ، والاحرار ، وشيعة ضئيلة من حزب العمل ، ويوجد في هذه المبادئ عنصران هما : الاول قومى دينى ويقضى بانه يجب على اسرائيل الا تتنازل عن شبر واحد من الضفة الغربية ، وهى المهد التاريخى لشعب اسرائيل وكذلك عدم التنازل عن مرتفعات الجولان التى كانت يهودية في الماضى ولا عن قطاع غزة وسيناء لان لنا فيها في نظرهم حقوقا تاريخية أكبر من حقوق العرب .

العنصر الثانى يتعلق بالأمن : فان اصحاب هذا الرأى على يقين من أن العرب سوف يسعون في المستقبل كما هو الحال في الماضى الى تدمير اسرائيل ، ولن يكتفوا بأقل من هذا ، وفي هذه الحالة فان الحدود التى يقف عندها الجيش الاسرائيلى هى افضل وآمن من الناحية الاستراتيجية ، وليس لها بديل ، ويرون ان اى انسحاب عن هذه الحدود واعادة اى جزء من الارض ، ولو مقابل معاهدات واتفاقيات سلام خطأ ذريعا ، من الناحية القومية الدينية ومن ناحية الامن ، كما ان أصحاب هذا الرأى مقتنعون انه بضم جميع هذه الاراضى لدولة اسرائيل وجعلها جزءا مكملا لها ، يدرك العرب اننا قد عقدنا العزم على عدم الانسحاب بأى ثمن ، وانه عندما يسقط في يد العرب ، سوف يدرك العرب في المستقبل انه ليس امامهم طريق الا عقد سلام مع اسرائيل القوية العظمى . لا يذكر اصحاب هذا الرأى بالتفصيل نظرتهم وتطلعاتهم بشأن تراث اسرائيل التاريخى في شرق الاردن (أرض سبط رؤبين وجاد ونصف سبط منشى) ولكن يبدو ان معظمهم على الاقل على استعداد للتنازل عن أى تطلعات اقليمية جديدة مقابل تسليم العرب بحدود اسرائيل الكاملة ، اما عن الدول الكبرى والرأى العام العالمى ، فانهم يرون انه عندما تضم اسرائيل جميع الاراضى المحتلة سوف يتقبل الجميع الوضع الجديد ، ويدركون انه لا عودة للحدود القديمة ، وان اسرائيل على استعداد للقتال عنها حتى النهاية ، وفي رأيهم ان هذه الحقائق ستجعل أعداء اسرائيل يحسبون حسابها ويحترمونها ويسلمون بها ، ومن البدهى ان المنادين باسرائيل الكاملة ، يؤيدون سرعة الاستيطان اليهودى وعلى نطاق واسع في جميع الاراضى الجديدة ، في الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء ، ويؤيدون انشاء مدن يهودية او احياء يهودية ملاصقة لكل مدينة عربية او في وسطها ، ويؤيدون انشاء أكثر مايمكن من القرى اليهودية .

أما عن مستقبل عرب المناطق المحتلة ووضعهم فى اسرائيل الكاملة " عدة اتجاهات " فهناك من يرون انه لدى ضم الاراضى يجب منحهم حقوق المواطن كاملة مثل أبناء الاقلية العربية فى اسرائيل الصغيرة ، وهناك من يرون انه يمكن منح الحقوق الكاملة للمواطن تدريجيا ، على أن يكون ذلك لدى حلول السلام ، وهناك من يعتقدون انه لدى ضم جميع الاراضى لاسرائيل سوف يهاجر كثير من العرب بصورة ما الى الدول العربية ، وبذلك تحل المسألة من تلقاء نفسها . ونجد فى الجانب الآخر من مجموعة هذه الاراء نظرية حزب ركاح وجماعات اليساريين المتطرفين التى تنادى بالانسحاب التام لاسرائيل الى حدود ١٩٤٨ ، بل واعادة اللاجئين من العرب الفلسطينيين من حرب ١٩٤٨ او معظمهم الى ديارهم فى اسرائيل ، وفقط عندما تتم هذه الاجراءات ، يمكن ان يسلم العرب بقيام اسرائيل ويعقدوا معها سلاما ، كما ان ركاح التى اتخذت مواقفها بناء على تعليمات من موسكو لاتسلم حتى بحدود وقف اطلاق النار سنة ١٩٤٩ كما انها فى المستقبل سوف تصغى لصوت سادتها فى الكرملين .

مقابل هذه الآراء المتطرفة نجد ان الاسرائيلى العادى يرى اننا قد حققنا معجزة بوصولنا الى حدود جديدة أكثر أمنا ، وأزحنا عن انفسنا خطر الابادة ، وأننا مرتبطون بالاراضى الجديدة ، والمناظر الطبيعية الجميلة والاماكن التاريخية ، وأننا ندرك الاهمية الاقتصادية للاراضى الجديدة ، وما تنطوى عليه من المواد الخام وامكانيات الاستيطان والتنمية والسياحة ، ولوكانت هذه الاراضى خالية ، او اختفى العرب الذين يستوطنونها بعصا سحرية كنا بلا شك نضمها ونقوم بتوطينها وتنميتها .

لكن الاسرائيلى العادى يعلم ويحس جيدا ان وضع هذه الاراضى لايعادل وضع أراضى اسرائيل التى تخصه ، وعلى استعداد ان يدافع عن اى شبر منها وفى أى وقت ونجد انه لدى الاسرائيلى العادى استعداد مبدئى لاعادة الاراضى مقابل السلام ، وهو يرى فى التمسك بها رهينة للسلام الذى سوف يعقد مع العرب فى يوم ما ، ولكنه يعتقد فى نفس الوقت ان العرب اينما كانوا فلسطينيين او أردنيين او مصريين او سوريين او غيرهم على استعداد للتسليم به وبوجود اسرائيل ، وهو يخشى من الا تكون اعادة الاراضى مقابل اتفاقية السلام نهاية النزاع ، فانه يحتمل ان العرب بعد توقيع الاتفاقية قد يمزقونها اربا ، وتعود اسرائيل فتجد نفسها فى وضع استراتيجى

سى ، فى حين تعسكر الجيوش العربية بكامل اسلحتها على مسافة بضعة كيلومترات من مراكزها الهامة وتهددها بالابادة .

لكن مخاوف الاسرائيلى العادى لاتؤدى به الى نتيجة متطرفة بوجوب ضم الاراضى ، لانه يعلم جيدا ان ضم المليون عربى الذين يقيمون فى الاراضى المحتلة سيجعل البلاد خلال سنوات قليلة فى حالة اعتماد اقتصادى على الاقلية العربية المتزايدة ، حتى لو حدثت هجرة يهودية كبيرة ، وهذه الفكرة تشكل كابوسا يقض مضجعه فانه لا يريد دولة ثنائية القومية ، لا يزال الميزان العنصرى والديموجرافى فيها مخلخلا ، فان هذا لم يكن حلمه فهو قد قاتل من اجل دولة يهودية ، كما انه لا يريد ان يفرض بالقوة الرعوية الاسرائيلية على العرب ويوجد فى دولتنا وضعا يكونون فيه فى مركز أقل . لقد عاشت اجيال عديدة من آبائه رعايا من الدرجة الثانية فى دول المنفى وهو يعلم الظلم الفادح الذى يسود دولة كهذه .

ان الاسرائيلى العادى فى حيرة وغارق فى مشكلات صعبة ليس لها رد قاطع ، فهو يتمزق بين الخوف من الابادة والرغبة القوية فى السلام ، وبين ادراك ان هذه الديموقراطية قد يكون فيها هلاكه ، فكان من الطبيعى ان يعمل على ابعاد المشكلة والا يواجهها كل يوم ويعذب نفسه ويعذب ضميره ، ويعزى نفسه بقوله دع الامر للزمن ، فان الزمن يشفى الجراح ، وهو يعلم فى قرارة نفسه ان هذا ليس الا هروبا من الواقع .

يجد الاسرائيلى الحائر لنفسه ملجأ فى الاعتماد على الحكومة ويقول لنفسه ان الحكومة تعرف خيرا منى ، فهو فى الشئون المصيرية التى يطلق عليها الشئون الخارجية وشئون الامن يعزو للحكومة قوى خارقة ، على عكس شئون الحياة الاخرى مثل الشئون الاقتصادية وشئون المجتمع والدين حيث يرى نفسه خبيرا فيها ، وينبرى ينقد كل شئ دون الرجوع للحكومة او الاعتماد عليها .

ان الاسرائيلى على يقين ان لحكومته ووزرائها الخبرة والتجربة الكافية فى تلك الامور المصيرية ، التى ليست من اختصاصه وانها اذا اتخذت قرارا فى هذه الشئون فانها تتخذه عن معرفة ، كما تجد ان الاسرائيلى العادى يضع شئون الامن فوق كل شئ

والعلاقات العربية الاسرائيلية تدخل فى نظره فى مجال شئون الامن والمحافظة على كيانه المادى ، فمن الطبيعى ان يعتمد فى هذا على الحكومة وان يتيح لها ان تقرر ماهو خير وما حيوى من ناحية امن اسرائيل – وتتمتع الحكومة الاسرائيلية فى هذا المجال بالثقة التامة للاهالى اليهود ، ولن تتزعزع هذه الثقة الا اذا ارتكبت خطأ جسيما او فشلت فشلا ذريعا وظاهرا للاعين فى موضوع الامن .

ان السياسة الاسرائيلية التى أعقبت حرب الايام الستة هى سياسة عملية قصيرة المدى تعيش من اليد الى الفم ، فى ظل شعارات ان الزمن يعمل لصالحنا ، ودع المستقبل يهتم بالمستقبل ، ونجتاز الجسر عندما نصل اليه .

الحكومة مثلها مثل الاسرائيلى العادى لاتريد ولا تستطيع ان تضم أراضى جديدة ، فهى مثله تدرك الاضرار الجسيمة التى تحدث للدولة نتيجة لذلك قسى شخصيتها ومستقبلها كديموقراطية يهودية ، ولكن من ناحية اخرى تدعى الحكومة انه ليس هناك من تعيد اليه الاراضى ، لانها ترتاب فى كل حاكم وزعيم عربى وفى مؤامرتهم . فما بالك بمؤامرات خلفه او من سيعزلونه فى المستقبل .

أعلنت الحكومة انها بعد مفاوضات بين الطرفين ، على استعداد للتنازل عن أراضى مقابل معاهدة سلام ، ولكنها لم تصرح على الاطلاق اى الاراضى تقصد .

ان الحكومة تشتغل بشئون الحياة اليومية لكى تظل على قيد الحياة ، وهى ملزمة بمعالجة شئون الامن والاقتصاد والمجتمع والشئون الخارجية ، وان تتخذ فيها قرارات ، وعليها ان تحل جميع المشكلات العاجلة ولا نجد فى بلادنا ماهو ليس بعاجل ، وليس لدى الحكومة الوقت وقوة الارادة ، وربما لاتشعر بضرورة وواجب الاشتغال بأهداف بعيدة المدى وقيم حياتنا ، ويبدو انها تشعر ان مناقشة هذه الموضوعات قد يمزق نفسها ويفسح شخصيتها الجماعية ، وهى تعزى نفسها بوجوب ترك شىء ما للجيل القادم ليتخذ فيه قراره ، وانها ليست ملزمة بانها كل شىء ، ولذلك فهى تترك الموضوعات الاساسية مفتوحة ومائعة .

يمكن ان ندرك هذه البرجماسية النابعة من خوف الابادة وكابوس تدمير الهيكل الثالث ، الذى قد يحدث نتيجة قرار واحد غير سليم ، انها تتعلم من تجارب

الماضى فى البلاد بايجاد حقائق واقعة على غرار ماحدث فى تاريخ استيطاننا للبلاد باضافة دونم الى دونم وشاة الى شاة حتى وصلنا الى ماوصلنا اليه .

وتتأثر المسألة أيضا بالانهاك الذى يحل بالاشخاص الذين يشتغلون بالابقاء على حياة الدولة اليهودية ، هذه المهمة التى تستنزف دماءهم ، ولا تدع لهم الوقت والجهد لاجراء تقييم للموقف القومى والرد على السؤال : الى أين نحن سائرون ؟ او بمعنى أصح : الى أين نريد السير والى أين نقود المسيرة ؟

x x x

العرب وفلسطين – الأصل المشترك

ان هدف هذا الكتاب هو تقييم وضع وطنى وتحديد اهداف ، على أساس من الماضى والحاضر معا . فقد تم حتى الان بحث الصراع حول البلاد المقدسة من وجهة نظر اليهودية ، ويبدو انه قبل تحديد اهداف المستقبل ، ينبغى ان نتفهم بصورة أعمق الطرف الثانى ، وهو العربى ، وان نتفهم دوافعه ومواقفه فى هذا الصراع .

ان ثمة حقيقة ثابتة ، لا يعتورها شك ، بانه فى قصة الاصل المشترك لابناء ابراهيم الخليل اسحق اى اليهود واسماعيل ابى العرب ، هناك البيئة والمنظر والاقليم والصحراء والبلاد الآهلة وهناك أسلوب الحياة القبلية والتطلع ، واللغة والملبس فى كل هذه المظاهر كان العرب واليهود القدماء متشابهين جدا ان لم يكونوا متساويين . ان النقوش الاشورية والنقوش الهيروغليفية المصرية التى يظهر فيها المقاتلون والاسرى ودافعو الضرائب والتجار من عرب واسرائيليين تبين مدى الشبه فيما بينهم وبين أحفادهم اليوم .

ان القبائل الرحل العربية القديمة التى عاشت فى الالف الاول والالف الثانى قبل الميلاد من المسيح فى الصحارى وعلى جوانبها ، برزت على مسرح العالم فى القرن السابع للميلاد ، وتركت أثرها على مئات الملايين من بنى البشر .

ان حياة النبى محمد – صلى الله عليه وسلم – الذى جاء بالقرآن والاسلام فى

احضان القبائل العربية فانتشر الاسلام كدين عالمي يحمل راياته محاربون ومؤمنون عرب الى جميع جهات العالم المتحضر الاربع — هي احدى الظواهر العجيبة في التاريخ البشري التي عليها تقوم الامجاد العربية حتى يومنا هذا .

والعرب ايضا أقوياء

ان الايمان بالله الواحد الذي منح اليهود قوة البقاء في أرض اسرائيل وفي المهجر . هو نفسه الايمان الذي منح محمدا والمؤمنين في الصحراء العربية قوة لا تقل مما منح اليهود من قوة . لان ينطلقوا من الصحراء وان يكتسحوا باسم الايمان شعوبا ودولا .

لقد كان ذلك حدثا فريدا في نوعه .. قبائل صغيرة رحل انطلقت في موجات مدفوعة بحماس ديني لاهب فنشرت خلال اجيال معدودة دينا جديدا فتيا من أقصى العالم القديم الى أقصاه ، وأقامت امبراطورية عالمية — تركت أثرها العميق على طبيعة الامة العربية حتى يومنا هذا .

وبخلاف الغزاة الكبار الاخرين الذين تعاقبوا على التاريخ مثل قبائل الوندال التوتونية وقبائل الهون التي اجتاحت أوروبا في القرن الرابع ، والمغول ، لم يعمد العرب الى التخريب والتدمير ، وانما أقاموا بأنفسهم خلال فترة قصيرة جدا من الزمن حضارة أزهرة اضافوا اليها بأسلوب فريد في نوعه حضارات الدول التي غزوها ، وهذه الحقيقة التي لا تقل اهمية عن الحروب والانتصارات الباهرة التي حققها العرب باسم الايمان .

من حقهم الشعور بالعزة

ان هذه الحقيقة زرعت في قلوب ابناء العروبة شعورا من ان العزة بماضيهم الغابر الزاهر ، وبما نالوه من عظمة وفخار في حروبهم وعهود سلامهم وبايمانهم المتقد الذي اسدل ظلاله الوارفة على الجميع في تسامح شامل ، كما زرعت في قلوب ابناء العروبة الاعتزاز بانهم ابناء هؤلاء السلف الذين حملوا رايات محمد كما حملوا رايات الحضارة لترفرف في سماء البلاد التي غزوها وحتى هذا اليوم مازال العرب يعتزون بما

غزوا من بلاد قديمة كانت مهدا لحضارة عالمية ، وبما أقاموه من مدن كبيرة وبيوت للـه رائعة في حسنها وبهائها وبلغتهم الفنية الشاعرية ذات الوقع الموسيقي ، وبخط يدهم الساحر ونقوشهم الخطية التي تأخذ بجامع القلوب .

انهم يفخرون بما كان لهم من ابطال ومن خلفاء وملوك وعلماء وفلاسفة وكتاب وشعراء ، وبما برعوا فيه من نقوش البناء القديم وما أحرزوه من تقدم في علوم الأدب والطبيعة . وقد تم لهم كل ذلك في وقت كانت فيه الحضارتان اليونانية والرومانية قد تدهورتا فبلغتا الحضيض وكانت فيه المسيحية في اليونان قد غرقت في الاعماق وغطى على أوروبا ظلام القرون الوسطى الدامس .

ان للعرب حقا واسبابا عادلة في ان يعتزوا بماضيهم الفني وتراثهم الجليل ، وبأنهم خلال مئات السنين كانوا هم الذين حملوا رايات التقدم والحضارة في العالم .

لقد أفلح العرب الاوائل الذين أقاموا في شبه الجزيرة العربية في نشر ايمانهم وحضارتهم في العالم على مرحلتين : ففي المرحلة الاولى بذروا بذور ايمانهم وحضارتهم بين سكان يعيشون في منطقة تمتد من المغرب حتى العراق ، وأصبحوا يدعون الان شعوبا عربية فنشروا بينهم لغتهم وايمانهم وفيما تلا ذلك وفي المرحلة الثانية انتشرت رايات الدين الاسلامي فانضوى تحت الويته عشرات الملايين من المؤمنين من بين شعوب غير عربية أيضا ، اعتنقته لنفسها كدين وكأسلوب حياة ومن هؤلاء العثمانيون والفرس والتتار والازبكيون والقوازق والبلوجستانيون وغيرهم .

وقد استمر انتشار الدين الاسلامي في اجزاء عديدة من القارة الآسيوية في الصين والبنغال والملايو واندونيسيا وبلغ تأثيره حتى الفلبين وجزر المحيط الهادي . وفي القارة الافريقية جنوبي خط الاستواء حتى تنزانيا والسنغال ونيجيريا ويقدر اليوم عدد معتنقي الدين الاسلامي بمئات الملايين ، وعلى هذا أيضا يشعر العرب بالاعتزاز والفخر .

ولقد كانت ذروة الاعمال التي أقاموا سجلها تاريخ العرب ، احتلالهم في القرون الوسطى لشبه جزيرة ايبريا — اى شبه جزيرة اسبانيا والبرتغال — فأقاموا فيها حكما عربيا . ففي اسبانيا برز تفوقهم العسكري والحضاري على النصارى فأقاموا حكما حديثا لعله كان من أحدث انظمة الحكم التي قامت في تلك الايام ، ومن المؤكد انه

بهذا الحكم الذى كان أكثر تقدما من حكم الاوروبيين ، وبفضل العرب ، بدأ العصر الذهبى للفنون والاداب والشعر والعلوم .

وكما هى الحال فى الامبراطوريات الكبيرة التى نشأت قبل الامبراطورية العربيــة وبعدها ، فقد واكبت اقامة الامبراطورية العربية وازدهارها حروب ضارية قاسية متواصلة وحروب أهلية وقبلية وسلالية ملكية استنزفت دماء عربية .

ولكن .. بدأوا يضعفون

وبعد بضع مئات من السنين قامت على الحكم العربى الذى بدأ يتهاوى نتيجـة انقسامات وحروب داخلية ، الشعوب والعشائر التركية والسلجوقيون والمماليك ومن بعدهم العثمانيون ، الذين انطلقوا من آسيا ووجدوا فى العرب وفى بلاد العرب هدفا للغـزو، فاحتلوا معظم الممالك العربية وأخضعوها . ففى اسبانيا هزم العرب وطردوا على أيـدى النصارى الاوروبيين ، ولم يمض طويل وقت حتى وقعوا تحت نير الحكم المسيحى الغربـى فى أجزاء أخرى من العالم العربى .

وقبل خمسمائة سنة تقريبا لم يعد للشعوب العربية المقهورة كيان شعبى اوكيـان دولى مستقل . ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم من العالم الاوروبى المسيحى بثـورات اجتماعية وثقافية وعلمية وتقنية واسعة النطاق ، وفتحت عوالم جديدة واكتشفت امريكا وتم الدوران حول الارض وبرزت آفاق جديدة فى جميع ميادين الاداب والعلم حتى جاء دور الثورة الصناعية واجتاحت العالم مبادىء اجتماعية جديدة .

وعلى امتداد هذه الفترة الطويلة كان العرب وكفاءة انتاجهم متعلقين بالامبراطورية العثمانية الكبيرة التى مالبثت ـ بعد عصر ذهبى مرت به ـ ان أخذت تتهاوى أركانهـــا فانقطعت اوصالها الواحد تلو الاخرى على أيدى الامبراطورية الاوروبية الصغيرة الغازية .

وهكذا وعلى عتبة هذه التطورات العظيمة التى طرأت على القوميات الحديثـة ، كان العالم العربى غارقا فى سبات عميق حبيسا بين أسوار عالية من الامبراطوريات التركية مقيدا باحكام الدين الاسلامى فبات أكثر محافظة على التقاليد وأضيق افقا .

وبدأت يقظة العيون الغوافى

والواقع ان العرب انغمسوا أكثر فأكثر فى ماضيهم الزاهر ، فنشأ الاستســلام واللامبالاة ، وفى أواسط ونهاية القرن التاسع عشر بدأت يقظة المثقفين العرب الشباب، ففتحوا اعينهم على العالم الذى يحيط بهم ، وبدأت تجتاح الامبراطورية التركية والعالم العربى آراء ومبادىء ولغات وأساليب ونهج جديدة ، ثم جاءت غزوة نابليون لمصـر وازداد توغل الاوروبيين فى الشرق الاوسط وفتحت قناة السويس، كل هذه الامور كانـت بمثابة ترياق شديد المفعول أيقظ العرب وأخرجهم من سباتهم العميق .

الحركة الوطنية العربية

وفى نهاية القرن التاسع عشر ، وفى بداية القرن العشرين ، بدأ الشباب العرب المثقفون فى التفكير وأخذوا يحلمون بعهد جديد للشعوب العربية ـ عهد الاستقــلال وانحلال العالم التركى والدول الاوروبية وتكوين دولة او دول عربية تعيد الى العـــرب امجادهم التى فقدوها وتعيد اليهم أيام عزهم الماضى .

وقد كانت مصر القرن التاسع أول دليل على امكان قيام دولة عربية مستقلة او شبه مستقلة ، ذات صبغة حديثة . ففى بيروت ودمشق وبغداد أخذت الحركة الوطنيـــة العربية تتجسم وتتبلور وتستوعب الاراء الوطنية الاوروبية الحديثة ، تمزجها مع الديــن الاسلامى والثقافة العربية .

ومع استمرار انحلال الامبراطورية العثمانية بدأ الولاة العرب ينزعون عن رقابهم طوق الحكم العثمانى ويتمردون ، فثار الوهابيون فى شبه جزيرة العرب وانشأوا دولـة عربية ليست عصرية البتة وانما دولة تقوم على التقاليد العربية والاسلامية الصحراويـــة البحتة ، الا انها مع ذلك دولة عربية خالصة .

ولقد أدركت اوساط الحركة الوطنية العربية الجديدة ان عليها ان تنهض بواجـب كبير ، وهو ردم الهوة التى تمثل مئات السنين لتلحق بركب العالم العصرى الحديـث الذى يقوم من حولها ومواجهته والصمود امامه ، وذلك من خلال حرب يخوضون غمارهـا للتخلص من نير الحكم الاجنبى ، انهم لم يرغبوا فى اقامة دولة او دول اوروبية عربية مقلـدة

على أسس اوروبية ، وانما تطلعوا الى اقامة كيان اجتماعى وسياسى من نوع خاص يستوعب من الاوروبيين الطيب والنافع فقط من خلال المحافظة على الاساس العربى الاسلامى القديم والاصيل بكل مآثره وامجاده .

ان هذه الامانى ، ككل الامانى كانت فى بدايتها غامضة جدا . وكانت الاهداف غير واضحة الملامح . وكان بين زعماء الحركة الوطنية العربية من أسرفوا فى احلامهم فتطلعوا الى دولة عربية واحدة ، موحدة وعظمى ، تمتد على سطح البلاد التى يقطنها العرب من الدار البيضاء وحتى البصرة ، وكان ثمة من تواضع فحلم بسلسلة من الدول العربية المستقلة التى يرتبط بعضها ببعض بشكل او بآخر .

ولقد كانت الطريق التى سلكها قادة الحركة العربية الوطنية مليئة بالعقبات ، فبعد ان مروا هم انفسهم بتطورات فكرية ، كان عليهم ان يزرعوا فى اوساط السكان - الذين لم يكونوا فى غالبيتهم الساحقة مستعدين لذلك - بذور الوعى الوطنى العربى الحديث .

ان المسافات البعيدة وقلة عدد السكان وتأخرهم ومعارضة العثمانيين واضطهادهم لهؤلاء السكان ، ومن بعدهم الانجليز والفرنسيين - كل هذه الامور شكلت عقبات فى طريق قادة هذه الحركة . يضاف الى ذلك ان ثمة نزاعات وخصومات وانقسامات سادت اوساط الحركة الوطنية العربية ، وكما هى الحال فى جميع الحركات الوطنية شبه السرية التى يديرها مقاتلون وعقائديون .

لماذا ناصروا الانجليز

ان أغلب مؤسسى الحركة فى مستهل القرن الحالى وجدوا فى العثمانيين عدوهم اللدود الاول ، وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى وضع مؤسسو الحركة - بشكل طبيعى ، وفى قليل اوكثير ، كل آمالهم فى ان الانجليز والفرنسيين سيدمرون الامبراطورية العثمانية ، حسبما تخيل رؤساء الحركة الوطنية العربية ، ليتيحوا للعرب اقامة استقلالهم على انقاضها . وكان من بين هؤلاء من ساعد الانجليز مساعدة فعالة فى حربهم ضد العثمانيين ، املا منهم فى ان يزيد انتصار الانجليز فرص تحقيق حقوقهم ، وان الانجليز سيلتزمون بوعودهم التى قطعوها بمنح العرب استقلالا سياسيا .

خاب الأمل !

ان نهاية الحرب العالمية الاولى ، وانحلال الامبراطورية العثمانية ، أثار فى العرب شعورا بخيبة الامل أشد مرارة من العلقم . فالامبراطوريتان الاوروبيتان المنتصرتان - بريطانيا وفرنسا - لم تكونا على استعداد لتقسيم مغانم الانتصار مع أية جهة كانت ، وانما أرادتا اقتسام اراضى الامبراطورية العثمانية المهزومة بينهما وتكوين مستعمرات او دول محمية تابعة لهما فى الشرق الاوسط .

وهكذا أدرك العرب ، انهم - بعد أن تحرروا من ربقة استعباد دولة واحدة - وقعوا فى استعباد اكثر من دولة .

فالمغرب والجزائر وتونس بقيت تحت حكم الفرنسيين وفى ليبيا ازداد النفوذ الايطالى ، وفى مصر والسودان ظل البريطانيون يحكمون ، وكذلك فى بلاد اسرائيل وفى شرقى الاردن واما سوريا ولبنان فقد وقعت تحت حكم اوروبى حديث ، وكان من الواضح ان هذا الحكم الجديد سيجلب معه وبسرعة خاطفة انجازات العصر الحديث ، ويتسبب فى نفس الوقت فى دفع متجدد للحركة الوطنية العربية المتطلعة الى التحرر والاستقلال .

وهذا ماحدث فعلا .. ففى الفترة بين انتهاء الحرب العالمية الاولى وانتهاء الحرب العالمية الثانية ، قام العرب تحت الحكم البريطانى والفرنسى بقفزة واسعة نحو القرن العشرين . ففى هذه الفترة اتضح ان البلاد العربية ذات ينابيع نفط من أعظم وأغنى ماعرف فى العالم ، وان كانت ثمة أدلة على ذلك فى الماضى أيضا ، وقبل الحرب العالمية الاولى ، وبعد اكتشاف حقول النفط وتطويرها واستغلالها ، ازدادت اهمية منطقة الشرق الاوسط عشرات الاضعاف .

بريطانيا وفرنسا تتراجعان امام القومية العربية

ولقد عمل البريطانيون والفرنسيون الكثير - أولا وقبل كل شئ ، وبطبيعة الحال - على اكتشاف الكنوز الطبيعية وتطويرها ، واستغلالها من أجل كسب الارباح ، وقد تركوا الاثراء العميق على شبكات التعليم والثقافة والخدمات وغيرها من مرافق الحياة فى البلدان التى حكموها .

وفضلا عن ذلك ، ومع أن بريطانيا وفرنسا كانتا دولتين ديموقراطيتين ، وكانتا مهددين للوطنية العصرية الحديثة — فانهما لم تستطيعا الصمود امام تيارات الوطنية العربية المتصاعدة ، وقد أدرك الكثيرون وأحسوا بان اليوم الذى تضطر فيه بريطانيا وفرنسا ان تعيد مقاطعاتها ومستعمراتها فى الاقطار العربية الى اصحابها العرب ، ليس بعيدا .

ان الحرب العالمية الثانية التى جاءت فى أعقاب نهاية الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية اتاحت فى فترة جيل واحد فرض الاستقلال السياسى لثمانى عشرة دولة عربية تمتد من المحيط الاطلسى غربا وحتى الخليج الفارسى شرقا ، وبذلك تحقق حلم العرب كاملا ، بل ربما تحقق بأكثر مما كان متوقعا له ان يكون .

ان المساحة الشاملة لهذه الدول العربية الثمانى عشرة تزيد على مساحة الولايات المتحدة الامريكية ، والكنوز الطبيعية الكائنة فيها هائلة لا ينضب لها معين كما ان مصادر المياه فيها هى من أغنى مصادر المياه فى العالم . وفضلا عن كل ذلك فان سكان هذه الدول الذين يبلغ عددهم نحوا من مائة مليون هم فيما عدا مصر قلة بالنسبة الى مساحات الاراضى التى تتكون منها هذه الدول ، لقد حصل العرب على استقلالهم من خلال نضال كان فى بعض مراحله نضالا دمويا مريرا ، ولذلك فمن حقهم ان يعتزوا بانهم خلال عقدين او ثلاثة عقود استطاعوا ان يحققوا امانيهم الوطنية الكبرى .

ولكن لهذه العملة وجها آخر : ففى نهاية القرن العشرين مازال العرب فى نقطة الانطلاق الى العالم المتطور الحديث ، ومازالوا لا يشكلون جزءا من هذا العالم . وفضلا عن ذلك فان غالبيتهم مازالت تشعر بخيبة امل عميقة كما ان مجتمعاتهم ودولهم مازالت تمر بأزمات شديدة قاسية .

وقد نشأ هذا الوضع لاسباب وعوامل كثيرة ، عامة فى بعضها وخاصة فى بعضها الاخر بالنسبة الى العالم العربى ، فغالبية الدول العربية — شأنها شأن الدول المتطورة الاخرى — تعتبر فى مراحل انتقال من مجتمع متخلف . بالمعنى الى مجتمع حديث مصنع . من مجتمع كان يئن تحت نير الاستعمار الى دول مستقلة وبنفس هذه الحالة أيضا تعيش اجزاء كثيرة اخرى من البشر ! دول امريكا اللاتينية وافريقيا السوداء وشبه الجزيرة الهندية وجنوبى شرقى آسيا . وجميع هذه الأقطار تمر بشكل او بآخر بأزمات

الترابط والتكيف مع نهاية القرن العشرين . فأنظمة الحكم السياسية والانظمة الاجتماعية فى أغلب هذه الاقطار متداعية ولم تفلح فى ان تقيم على انقاض الحكم الاستعمارى حكما ديموقراطيا متعدد الاحزاب على غرار انظمة الحكم الاوروبية ، او حكما شيوعيا على غرار الاتحاد السوفياتى او الصين الشعبية .. ففى معظم هذه الاقطار تكمن القوة الوحيدة بيد الجيش ، الذى يستطيع أن يرفع الى الحكم حكومات ، ويطيح بحكومات اخرى . والذى — بسبب كراهيته التى لا حدود لها لانظمة الحكم المدنية — يضع على كرسى الحكم فى الدولة والمجتمع فئة من الضباط ، احيانا تحت ستار عقائدى واحيانا اخرى دون اى ستار .

ازمة التقسيم الاستعمارى

وثمة قاسم مشترك آخر ، يشمل جميع العالم الثالث الذى يعانى من ازمة التقسيم المصطنع لدول منفردة ومنعزلة ان عشرات الدول المستقلة الجديدة أقيمت فى حدود غريبة مختلفة تحيط بتقسيمات استعمارية تعسفية تمت قبل اجيال . وهذه الحدود لم يكن لها فى كثير من الحالات اى مبرر جغرافى اونفسى او سكانى . وهكذا اقيمت دول كبيرة ودول صغرى .

ان الكثير من هذه الدول المستقلة الجديدة ، مازال تنقصه صلة موحدة تجعل من قبائلها وعشائرها شعبا واحدا يعلو ولاؤه للدولة الجديدة على ولائه للعائلة أو الطائفة او القبيلة .

ان ثمة علامة فارقة اخرى لهذه الدول ، هى الفقر والتخلف اللذان تعانى منهما طبقات كبيرة من سكانها . وهذا الفقر لا يتجاوز حتى الدول الغنية بالمواد الخام ، وفى الكثير منها يقوم الى جانب هذا الفقر ثراء يخطف الابصار تعيش فى بحبوحته طبقات صغيرة حاكمة . فالكثير من هذه الدول الجديدة يزخر بتركات اجتماعية واقتصادية ثقيلة للغاية ، وفى أغلبها ليس ثمة من قوة او رغبة لمعالجة هذه التركات بصورة جذرية .

ان هذا الوضع من الفقر ، الفقر داخل الثراء ، ملئ بالمتفجرات وقد ادى وسيؤدى فى المستقبل أيضا — الى ثورات اجتماعية عنيفة . وبالاضافة الى كل ذلك ، فان غالبية الدول الجديدة تتأرجح فى سباق على مستوى العسكريين وعلى مستوى الدول

العظمى تطحنها رحى الصراع الاستراتيجي والاقتصادى والعقائدى من أجل مواقع القوة والقواعد والنفوذ . ومعظم هذه الدول تواجه دولا عظمى – الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة والصين الشعبية – وهنا تجرى المساومة من الدول العظمى تزيد فى ثمنها ومن من الدول العظمى وتدفع أكثر ببذل الود ومن من الدول العظمى تقدم رشوة أعظم ؟

القوة فى أيدى الجيش !

ان جميع هذه العوامل تصدق بالنسبة الى الدول العربية المستقلة اذ أن غالبية هذه الدول مازالت غير قادرة على اقامة حكم جديد يحاكى نظام حكم ديموقراطى او يحاكى حتى نظام حكم شيوعى . ففى أغلب هذه الدول تكمن القوة بأيدى الجيش وهو الذى يحكمها وحدود الكثير من هذه الدول هى حدود مصطنعة تفصل بين قبائل وشعوب فمن ناحية هناك مواد خام وكنوز طبيعية غنية ، ماتزال العلامات الفارقة البارزة فى معظم هذه الدول تقابلها منافسة على مستوى الدول العظمى تدور بضراوة من أجل اكتساب مواقع القوة والنفوذ فيها .

من .. نحن ؟

وثمة اسباب اضافية خاصة فى الاقطار العربية – تزيد من شدة الازمة التى تعانيها هذه الدول والتى تزيد من شعور خيبة الامل فيها . فالعرب يعانون من ازمة هوية وطنية : من نحن ؟ فهل هم أبناء امة واحدة كبيرة ام هم أبناء واحد من ثمانية عشر شعبا مختلفا ، لكل منها دولة خاصة به ؟

ان الذى يوحد بين هذه الدول هو اللغة والدين والاصل المشترك . فاذا كان العرب أبناء امة واحدة ، فكيف ومتى يتوحدون فى دولة كبيرة واحدة ، ومن من هذه الدول القائمة الان ستكون الدولة الرئيسية والزعيمة لمثل هذا الاتحاد الشامل ؟

ان أزمة القومية العربية فى مواجهة التمزق وانشاء الدول المنفصلة ،هذه الازمة مانفتئت تلاحق الحركة الوطنية العربية منذ بدايتها وحتى اليوم.

فعلى أرض الواقع تقوم دول منفصلة تبحث كل منها عن هوية وطنية خاصة بها وهى على استعداد لخوض حرب يحارب فيها بعضهم بعضا ، من أجل وحدتها وحدودها ومع كل ذلك فما زال يراود العرب – فى نفس الوقت ودون هوادة – حلم امة واحدة كبرى من هنا كانت الخلافات وخيبة الامل الدائمة.

وثمة عامل آخر يزيد من حدة الازمة فى العالم العربى ، هو العامل الجغرافى والجغرافى السياسى . فأكثر من أية مجموعة دول اخرى من العالم الثالث تعيش الدول العربية وضعا خاصا من الحساسية تجاه الصراع بين الدولتين العظميين او بين الدول الثلاث العظمى .

ان الدول العربية تقع على مفترق خطوط مواصلات واتصالات برية وجوية وبحرية تعتبر من اهم مايوجد على وجه المعمورة ومن يحتفظ بمفترقات الطرق هذه او يحصل على نفوذ فيها او يسيطر عليها ، يكون قد امسك بيده مفاتيح القارة الافريقية ، والخليج الفارسى والمحيط الهندى وحوض البحر الابيض المتوسط ، ومفاتيح خطوط المواصلات الى شرقى آسيا وجنوبى اوروبا .

منابع الطاقة .. الى أين ؟

وفضلا عن ذلك ، فان الاقطار العربية تضم أعظم منابع الطاقة فى العالم ، وارخصها ثمنا فى الوقت الحاضر . ان نفط الشرق الاوسط هو اليوم المصدر الرئيسى لتحريك عجلات الصناعات والتكنولوجيا فى أوربا الغربية واليابان .

ومع ذلك فان التكنولوجيا نفسها ستغير هذا الوضع تغييرا شاملا بعد جيل او جيلين ، فليس فقط ستوجد حقول نفط جديدة وكبيرة فى اجزاء اخرى من العالم ، وانما النفط نفسه ستكون له مكانة أقل قسما فى بنك الطاقة العالمية ومن المرجح جدا ان استخدام تكنولوجيا انقلابية حديثة ستعيد مجد الفحم الى سابق عهده . وليس من شك انه على الرغم من الصعوبات الاولية ، فان الطاقة النووية ستحتل مكانا رفيعا فى سلم الطاقة العام وفضلا عن ذلك يمكن القول بانه فى القرن القادم ستتجمع مصادر طاقة جديدة لم تكتشف بعد ، الا انه فى الوقت الحاضر مازال النفط يعتبر مصدر الطاقة الاساسى فى العالم.

لذلك فليس عجيبا ان يعتبر الشرق الاوسط العربى مصدر جاذبية للدول العظمى لتصبح بالتالى مصالح هذه الدول فيه جوهرية للغاية .

نفطهم .. نعمة ونقمة !

ان جغرافية العالم العربى والنفط المخزون فيه قد استحوذا على تفكيره .. فمن ناحية معينة فان جغرافية العالم العربى ونفطه ليس الا ثراء محفوظا لاصحابه لغير مصلحته !!

ذلك ان النفط هو الذى يدفع بالدول العربية — وفى مقدمتها الدول المنتجة للنفط — الى احضان الانعزالية الانانية ويعرضها الى ضغوط خفية وسافرة من جانب الدول العظمى والدول الاجنبية ، بحيث يصبح فى أيديها أدوات لعب دون ان تكون لها القدرة على تطوير هويتها وثقافتها ونوعية أنظمة أحكمها الاصيلة .

ان شكل الحكم فى الدول العربية هو من مسببات الازمة التى تعانيها فعلى حين كانت الحركة الوطنية العربية الحديثة فى اساسها جمهورية فى طبيعتها وفى أهدافها ، وفى الوقت الذى اخذ العالم العربى يحصل فيه على استقلاله السياسى ، كان العالم العربى يحكم من قبل ملوك وأمراء وشيوخ ، فرض الكثير منهم انفسهم فرضا بمساعدة دول كبرى أجنبية احيانا ، وبشكل اصطناعى على الدول العربية ، ولذلك فليس من العجيب ان الجمهورية ورجال الجيش الذين يسمون بـ " الاحرار الجمهوريين " قاموا بانقلاب ضد هؤلاء الحكام وازاحوهم عن الحكم ، فقتلوهم او نفوهم ، وأقاموا فى غالبية الدول العربية جمهوريات او جمهوريات شعبية يحكمها رجال من الجيش او رجال عسكريون قدماء أصبحوا بين عشية وضحاها رؤساء ، وفى القليل منها فقط ظل الحكم الملكى كما كان عليه فى الماضى .

مسألة " الاعتزاز " بالماضى

ومازالت هذه الازمة على أشدها وليس من شك فى ان الانتقال الثورى — بكل العنف الذى ينطوى عليه من النظام الملكى الى نظام جمهورى مزيف لن يتخطى دولا عربية اخرى وثمة عامل خاص يزيد من حدة هذه الازمة فى العالم العربى ، يكمن فى مغالاة

العرب باعتزازهم المسرف بماضيهم ، مما سبق لنا ان تطرقنا اليه ، الامر الذى وضع العقبات فى طريقهم ، والكثير من العرب يدركون جيدا ان هذا الاعتزاز بالماضى الذى من شانه ان يشكل مصدرا لا ينضب للانتماء الوطنى ، هذا الحاضر الذى اذا ارادوا ان يعتزوا به ايضا فعليهم ان يقيموا اساسا لاقتصاد حديث ومجتمع حديث ، ان يوزعوا توزيعا متساويا للثروة الوطنية ، وتوفير الخبرات العامة لمواطنى الدولة كافة ، واقامة المساكن والمدن وتأمين التصنيع الحديث .

وهذه الامور جميعا لا يمكن تحقيقها خلال عام واحد ، وانما هى مسألة اجيال ، وتقتضى ليس فقط فترات طويلة من الهدوء والسلام ، وانما تتطلب تضحيات كبيرة وتواضعا من جانب القائمين بها . وليس فى هذه الاعمال مجد سريع او بريق يخطف الابصار ، كما ليس فيها تنميق كلمات او شحذ حراب ، الا انه بدون هذه الاعمال لا يبقى للاعتزاز العربى بالماضى اى رصيد او معنى .

ثمة عامل اضافى خاص فى نوعه لازمة العالم العربى . هو الصراع العربى الاسرائيلى مع ان قيام دولة اسرائيل والحروب العربية ضدها انما هى عامل واحد من بين مجموعة العوامل الاخرى ، ومعناه ليس حقيقة ما يتفوه به كثير من العرب من ان قيام دولة اسرائيل هو العامل الوحيد للازمة التى يمر بها العالم العربى وانه اذا ما تمت " ازالة هذا العامل " فان الازمة ستزول وكأنها لم تكن فمما لا شك فيه ان لهذا العامل تأثيرا كبيرا على جميع ما يجرى فى العالم العربى ، ولكن يمكن الوقوف على عظم هذا العامل ، بل يتحتم الوقوف — ولو بايجاز — على العلاقات بين العرب واليهود فى الماضى .

ان عقدة الحب والكراهية بين الاخوين اسحق واسماعيل بدأت منذ فجر التاريخ وقد ظلت هذه العقدة تلاحق النبى العربى محمد " صلى الله عليه وسلم " ووجدت تعبيرها فى القرآن الكريم .

فمن جهة تضمن القرآن تقريبا لسفر الاسفار وللآباء الاقدمين لكلا الشعبين ، ولانبياء اسرائيل وللتراث الادبى اليهودى الجليل ، ومن الناحية الثانية عبر القرآن عن الغضب العميق على اليهود فى عهد النبى محمد " صلى الله عليه وسلم " الذين لم يصبحوا من المؤمنين به ، وعلى غطرسة القبائل اليهودية فى شبه الجزيرة العربية

ولى حروبها ضد النبى محمد " صلى الله عليه وسلم " وعلى انها لم تر فيه النبى الحق . ان هذه الازدواجية – نظرة الاحترام البالغ لاهل الكتاب فى الماضى واللامبالاة باليهود فى الوقت الحاضر اصبحت بمرور الاجيال العلامة الفارقة لعلاقات العرب باليهود .

العرب .. لم يكونوا لاساميين

ففى طليعة فتوحاتهم ، وجد العرب طوائف يهودية كثيرة فى جميع اقطار الشرق الاوسط – فى اليمن وايران وسوريا وبلاد اسرائيل ومصر وليبيا وبلاد المغرب واسبانيا . ولم تتطور لدى العرب ابدا مشاعر لاسامية على غرار اللاسامية المسيحية التقليدية ضد اليهود ، نهجا ولا عملا . وهل كانوا يستطيعون انتهاج سبيل اللاسامية وهم انفسهم كانوا من الساميين الاقحاح !

ومع ان الدين الاسلامى والعرب راوا فى اليهود كفارا الا ان العرب لم يعتبروا اليهود ابدا من عبدة الاوثان الذين عملوا على ادخالهم تحت كنف الاسلام بالقوة كما لم يعتبروا اليهود كفارا خطرين كالنصارى الذين كانوا يخوضون حروبا معهم وليس من اجل مبادىء الايمان فقط ، وانما من اجل مكاسب شخصية .

ولم تكن ثمة حاجة لاعلان الجهاد ضد اليهود المتفرقين والضعفاء ، ذلك انهم لم يشكلوا خطرا او تحديا ملموسا للاسلام والعرب ، وبخلاف النصارى الذين طوروا نظرية تقول ان اليهود هم برهان حى على صدق النصرانية ، وذلك بتحميلهم علامة قايين . وكانهم صلبوا ابن الله ، فان العرب من المسلمين المؤمنين لم يطوروا نظرية لاسامية جماعية ، كما لم يجعلوا من اليهود الذين كانوا يعيشون بين ظهرانيهم كبش فداء لانخذالهم .

وفضلا عن ذلك ، وبسبب ثقافتهم الخاصة ولغتهم ، وتقاليدهم وشكلهم ، فقد كان اليهود الذين عاشوا بين النصارى بمثابة بنت غريب ، واقلية مختلفة من السهل الشعور نحوها بالكراهية .

فقد كانوا أكثر انتماء للبيئة وللمناخ وللمناظر الطبيعية . فاليهود الذين أقاموا بين ظهرانى العرب كانوا أقلية من الدرجة الثانية واحيانا عديمى الحقوق ، فى

فترات وقعت فيها حوادث ضد اليهود ، الا انه بالمقابل ، وجد اليهود فى فترات أخرى طويلة لغة مشتركة مع العرب فبلغت العلاقات بين الشعبين ذروة التعاون الاجتماعى والاقتصادى والثقافى .

وقد كانت مثل هذه الفترات على عهد " العباقرة " فى بلادنا مابين النهرين وبلغت ذروتها فى العصر الذهبى اليهودى فى اسبانيا العربية المسلمة . ولا ينبغى أن ننسى انه عندما سحق اليهود تحت رحى محاكم التفتيش المسيحية فى أوربا مرت عليهم مئات "السنين من حياة ثقافية وحياة طائفية اجتماعية فى العالم العربى والاسلامى دون أن تكون منغصات او مزعجات ، وقد عاش وعمل فى العالم الاسلامى كبار علماء الدين والفلاسفة اليهود كسعديا غاؤون وموسى بن ميمون " ومبام " وعظماء الشعراء اليهود كيهودا هيلفى وشلومو ابن غبيرول وشالوم شبازى .

وفضلا عن ذلك فقد أتاح العرب فى عهد عظمتهم لليهود اقتحام مجالات الادارة والعلم والطب والتجارة الدولية والاكتشافات وأعمال السفن والاعمال المالية . وفى جميع هذه المجالات بلغ اليهود شأوا بعيدا من العظمة .

وعندما هرب اليهود من وجه الحراب المسيحية فى اسبانيا والبرتغال وجد الكثيرون منهم ملجأ وملاذا فى الامبراطورية العثمانية الاسلامية بين شعوب عربية .

وازاء النزاع الدموى الناشب الان بين اليهود والعرب ، فمن السهل جدا نسيان كل ذلك . ومع انه لا ينبغى اعتبار العلاقات العربية اليهودية على امتداد التاريخ علاقات مثالية ، اذ ان هذه العلاقات لم تبلغ أبدا مرتبة المثالية ، فاننا نرى واجبا علينا ، لوجه الحق ومن أجل المستقبل ، أن نعود لنؤكد بأن محصلة علاقات العرب بالنسبة الى اليهود كانت الى درجة لا تقدر وتكون أفضل وأكثر تسامحا من علاقات العالم المسيحى بالنسبة لليهود .

وطنية يهودية حديثة

وثمة سخرية قاسية من سخريات القدر فى مصير العلاقات بين الشعبين : ففى أواسط القرن التاسع عشر ، وفى نهايته بدأ العرب يتنكرون لتخلفهم والانطلاق من عزلتهم الداخلية بتبنى مبادىء القومية الحديثة كمحرك للانعتاق من العبودية الى الحرية ، ومن الاستعباد الى الاستقلال وفى نفس تلك الفترة أخذ اليهود المطاردون

والمضطهدون والمبعثرون فى مختلف أرجاء العالم - أخذوا يتبنون وطنية حديثة ، وجعلوا منها واسطة لتحقيق حلمهم فى العودة الى بلادهم القديمة والاعتاق من العبودية الى الحرية والانطلاق من الظلام الى النور الساطع .

ان هاتين الحركتين من حركات البعث - العربية اليهودية - اصطدمتا وجها لوجه فى هذه الناحية من العالم وذلك بسبب طبيعة العرب واليهود خلقا وخليقة فحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت هاتان الحركتان ، ماتزالان فى المهد ، كما كانت اهدافهما وسبيل نشاطاتهما يكتنفها الغموض وكانت العلاقات بينهما ماتزال غير واضحة .

فالصهيونيون لم يكونوا قد بلوروا لانفسهم رأيا نظرية بالنسبة الى العرب عامة وعرب البلاد المقدسة بنوع خاص ، ومن المؤكد انهم لم يقفوا على عظم امكانات الحركة الوطنية العربية فى الشرق الاوسط .

ومن الناحية الثانية فان الحركة الوطنية العربية هى الاخرى لم تقف - منذ بدايتها على ماسى بالخطر الصهيونى فقد كان باستطاعة زعماء الحركة الوطنية العربية ان يتجاهلوا بداية الاستيطان اليهودى القوى قبل مائة عام ، اذ انه كان ينبغى للانسان ان يكون صاحب خيال خصيب لكى يرى فى الاثنتى عشرة قرية يهودية الاولى حركة وطنية قوية نشطة ، واذا كان ثمة من شك قد خامر قلوب العرب حول هذه الظاهرة الغريبة الشاذة ، ظاهرة اقامة قرى سكنية ، فقد كان بامكانهم ان ينظروا اليها بتسامح اوحتى بلا مبالاة فقد كان من الممكن ان يقتنعوا بان ثمة مكانا داخل دولة كبيرة لاقلية يهودية صغيرة كغيرها من الاقليات القومية او الدينية الاخرى ، التى يزخر بها الشرق الاوسط من القدم وحتى الان .

ان قيام الحركة الصهيونية العالمية على يد تيودور هرتصل وتشكيل الكونجرس الصهيونى ، وخلق هيئات تنفيذية ذات نفوذ بالغ للقيام باقتناء الاراضى والتمويل ، وتحديد الهدف النهائى للصهيونية على يد هرتصل بالذات وهو اقامة دولة يهودية فى بلاد اسرائيل " هذه الامور كلها " أوقدت الضوء الاحمر وأطلقت صفارة الانذار فى أوساط طلائع الحركة الوطنية العربية وزعمائها .

ففى عشية الحرب العالمية الاولى ، بدأت ترتفع فى أوساط القوميين العرب أصوات واضحة حاسمة ضد الصهيونية وأهدافها .

ان تصريح بلفور ، الذى يمثل الاعتراف الاول من جانب دولة كبرى عالمية بالصهيونية ، كان فى نظر رجال الحركة الوطنية العربية خيانة خطيرة . فالعرب المستاؤون لم يكفوا عن الادعاء وقد أبرزوا سلسلة طويلة من المستندات لاثبات ادعائهم بان البريطانيين قد وعدوا العرب وعدا صريحا بان فلسطين ستكون لهم .

وما خيل اليهم بانه كان نكثا قاسيا بالوعد ، لم ينسه العرب للبريطانيين طوال السنين وحتى اليوم .

ولم ينجح البريطانيون - رغم جميع المساعى التى بذلوها ، عندما كانوا يحكمون بلاد اسرائيل والشرق الاوسط - فى كسب ود العرب واسترضائهم فحتى اليوم يعتبر العرب الثانى من تشرين الثانى " نوفمبر " ١٩١٧ ، وهو يوم ذكرى وعد بلفور يوما أسود فى تاريخ حركتهم الوطنية .

وبعد سقوط الامبراطورية العثمانية تلقت الحركة الوطنية العربية ضربات أخرى ، فقد وجدت نفسها وقد ضاعت ليس على أيدى البريطانيين فقط والذبن أيدى الفرنسيين أيضا الذين سيطروا على مهد الحركة الوطنية العربية فى سوريا ولبنان .

الحقيقة .. المرة !

ان حقيقة كون البريطانيين قد نصبوا ملكا عربيا على العراق ، ومنحوا العراق استقلالا محدودا ، واقتطعوا من منطقة الانتداب الاصلى الذى منحتهم اياه عصبة الامم والذى شمل أرض اسرائيل على جهتى نهر الاردن جميع بر الاردن شرقا حيث نصبوا عليه أميرا عربيا ، وبذلك حددوا شمول ... تصريح بلفور على أرض اسرائيل غربى نهر الاردن فقط - ان هذه الحقيقة لم يكن فيها للعرب سلوى او عزاء .

ففى العشرينات تأكد العرب - سواء من الفلسطينيين او من رجال الحركة الوطنية العربية فى الاقطار العربية المتاخمة - ان اليهود أصبحوا يتقدمون تدريجيا وثبات خطوة بعد خطوة ، فى تحقيق اهدافهم .

ان حوادث عامى ١٩٢٠ و ١٩٢١ ضد اليهود ، بما فيها احداث تل حاى يمكن اعتبارها بداية النضال المسلح العنيف من جانب الوطنيين العرب ، الذين ساعدتهم أيضا جماعات من قطاع الطرق والقتلة ، وكان هدف هذا النضال اجتثاث

الصهيونية من جذورها والقضاء على القرى التى اقامتها .

اليهـود يشـترون الاراضى

ان شراء الاراضى من قبل اليهود بالرغم من انه تم وفقا للقانون والنظام بـدا للعرب خطرا من الدرجة الاولى . فقد شرعوا يحاربون بائعى الاراضى العـرب ويقاطعونهم ، كما أخذوا ينظرون بخوف متزايد الى قدوم اليهود من جميع أرجـاء العالم الى أرض اسرائيل . ولم يحاولوا تفهم دوافع الصهيونية ، كما لم يشاءوا الانصياع للمبدأ القائل بانه يوجد فى بلاد اسرائيل " اوفلسطين كما يسمونها " مكان لشعبين ولحركتى تحرير وطنى . وكان مثل هذا الكلام فى نظرهم خداعا وكيدا وتضليلا .

ولقد شعر العرب بالعجب من اليهود القادمين الى أرض اسرائيل ، ومن تصرفاتهم وعاداتهم وآرائهم ، اما كفاح اليهود من أجل العمل العبرى واللغة العبرية ولاقامة أسس دولة المستقبل . بما فى ذلك منظمات سرية مسلحة . فقد كانت فى نظر العـرب برهانا قاطعا بأن شرا قد حل بهم ، وان امامهم عضوا غريبا يتسلل بالقوة الى داخـل المناطق والشعوب العربية .

وكانت أحداث عام ١٩٢٩ تفجيرا آخر لبركان الغضب والعنف والقتل ضـد اليهود . وفى هذه المرة كانت المهمة مدروسة بصورة اعمق على أيدى الوطنيين العـرب بقيادة المفتى الحاج امين الحسينى فى القدس .

مقاومـة الصهيونيـة

وفى الفترة بين حوادث عام ١٩٢٩ وحوادث ١٩٣٦ تعاظمت المقاومة الوطنيـة العربية للحركة الصهيونية وتجسمت ، فاللجنة العربية العليا التى تمثل شعب فلسطين استطاعت ان تجند اموالا ودعما فى الاقطار العربية والاسلامية لمساعدته وكانـت الدعوة الى الجهاد ضد الصهيونية قد بدأت تتعالى فى جميع انحاء العالم العربى . فقد أبلغ العرب بان اليهود قد اقتطعوا اجزاء من بلادهم ، كما ظن المسلمون بـان اليهود يريدون السيطرة على مقدساتهم ، وفى مقدمتها المدينة المقدسة - اورشليـم القدس .

ان مواصلة اقامة المراكز السكنية والقرى الزراعية اليهودية وموجات العائدين فـى سنوات الثلاثينات ، عادت لتثبت للعرب بان عليهم ان يحاربوا من أجل أرضهـم - وكانت فلسطين كلها فى نظرهم - بلادهم .

ان حوادث ١٩٣٦ - ١٩٣٩ يمكن رؤيتها بنظرة الى الخلف كمسعى عربى كبير وكنضال وطنى ضد اليهود ، والحكم البريطانى معا . فقد حارب العرب طيلة ثـلاث سنوات بكل ماتوفر لهم من سلاح فكانت الاضرابات العامة والمقاطعة وحرب العصابـات والارهاب .

وكان المقاتلون العرب مزودين بأسلحة وعتاد أحدث بدرجة لاتقدر من السـلاح والعتاد الذين توافر لهم فى سنوات العشرينات .

ويمكن اعتبار هذه " العصابات " او محاربى المقاومة السرية اساسا للحركـة الفدائية او " منظمة فتح " كما كانت " سرايا الليل " و " سرايا الفجر " أساسـا لسرية العاصفة " البالماخ " و " الفيلق اليهودى " وجيش الدفاع الاسرائيلى " .

وبانتهاء ثلاث سنوات على هذه الثورة العربية أصبح من الواضح للعرب انه بـدون اشتراك الدول العربية المستقلة بجيوشها . ودون تعبئة مصادر العالم العربى للنضال من أجل هذه الارض فلن يستطيعوا التغلب على اليهود المنظمين والمحصنين بصـورة جيدة . وقد رفض العرب جميع مقترحات التقسيم على مختلف اشكالها ، وفى هذا الظرف كان زعماء الدول العربية قد اشتركوا فى النضال اشتراكا فعليا ، واعترف بهـم البريطانيون كجانب فى النزاع .

وقد عزا العرب موقفهم السلبى المتعنت من كل محاولة لتقسيم البلاد ، الـى انهم يعارضون القضية الصهيونية من اساسها والى انهم لا يعترفون بأية حقوق لليهود فى هذه الارض .

ومن خلال هذا المنطق لم يعترفوا باليهود كجانب فى النزاع ، وفضلا عن ذلـك فانهم لم يعترفوا بالصهيونية كحركة وطنية ، كما لم يعترفوا باليهود كشعب ، وقـد راوا فى موجات القادمين اليهود وفى مشروعات الاسكان اليهودية مؤامرة دوليـة ضد حركة التحرير الوطنية العربية ، يستخدم فيها الانجليز والفرنسيين والامريكيين وأحيانا السوفييت اليهود كرسل اوأدوات طيعة لتنفيذ مؤامراتهم السوداء ضـد العرب .

ويمكن القول انه كان من الواضح على الاقل لعدد من العرب ومن زعمائهم عشية الحرب العالمية الثانية – بأن ثمة مشكلة تواجههم ، وتتمثل فى حركة وطنية صغيرة الا انها شجاعة ويائسة لأن غالبية العرب الساحقة كانت ماتزال ترى فى المشروع الصهيونى فى أرض اسرائيل امرا تافها جديرا بالسخرية ، وضعيفا واهنا ، قائما على المكر والخداع ، ومرتكزا على الرماح البريطانية .

وقد كان العرب واثقين بانه اذا ماسنحت الفرصة للجيوش العربية النظامية ، فانها تستطيع ان تنزل ضربة قاضية بـ " العصابات الصهيونية القذرة " وأن تلقى بهـا فى البحر .

الكتاب الابيض

ولقد تلقى العرب التشجيع من البريطانيين عشية نشوب الحرب العالمية الثانية وأدركوا ان ضغطا سياسيا عنيدا مقترنا بتهديدات عسكرية ستكون له نتائجه ، وقد كان " الكتاب الابيض " ثمرة لهذا الضغط .

ومع ان العرب لم يجدوا فى الكتاب الابيض كفايتهم الا ان حقيقة كون البريطانيين قد ضربوا فى وقت واحد أعز مايملكه المشروع الصهيونى ، ضربوا الهجرة والاسكان ، ان هذه الحقيقة أثبتت للعرب بأن الطريق التى سلكوها صحيحة ومجدية ، وأن عدوهم الصهيونى قد تلقى ضربة قاصمة . وأدرك العرب الى أى حد يحتاج البريطانيون الى الاستقرار الداخلى فى منطقة حيوية كالشرق الاوسط ، وأدركوا أيضا بأنه باقتراب الحرب العالمية سيجدون انفسهم فى موقف مساومة أفضل .

وعندما نشبت حرب الحلفاء ضد الالمان والايطاليين فى ميدان الشرق الاوسط كان معظم العرب غير مبالين وكأنهم يجلسون على الجدار ويتفرجون فى حين أن الوطنيين المتطرفين منهم كانوا يقدمون مساعدات فعلية للالمان والايطاليين .

وليس من شك فى أن الكثير من العرب عقدوا الامال على سقوط الحلفاء الذين اعتقد العرب بأنهم لم يجلبوا لهم سوى المشاكل والاحتلال والحكم الاستعمارى وفى مقدمة ذلك كله مشكلة الصهيونية .

ولما كان العرب يعلمون جيدا نوعية معاملة الالمان لليهود ، فقد أملوا بانه عندما تحتل جيوش هتلر البلاد فان النازيين سيقومون نيابة عن العرب بمهمة

ابادة يهود بلاد اسرائيل ، وبذلك يجتثون الشوكة الصهيونية التى غرزت فى لحمهم .

معادلة .. رددها العرب !

ولقد سمع العرب دون تأثر ، والبعض منهم بفرحة سافرة وفى تشف ، بالفظائع التى ارتكبها النازيون ضد يهود أوربا ، ولسان حالهم يردد معادلة : يهود أقل يساوى صهيونيين أقل ويساوى أعداء أقل .

لقد اعتبر العرب الحرب بين اليهود والانجليز – بعد الحرب العالمية الثانية – استنزافا لقوة اليهود وتقويهم – لدى اقتراب اليوم العظيم الذى يغادر فيه البريطانيون البلاد ودخول الجيوش العربية النظامية القوية الى داخلها ، اى تسوية قضيتهم مرة واحدة والى الابد ، وبذلك تعود فلسطين الى اصحابها العرب .

ولكننا رأينا بعد ذلك الصدمة التى حلت بالعرب بعد هزيمتهم عام ١٩٤٨ ، وما أسفرت عنه هذه الهزيمة من مأساة اللاجئين الفلسطينيين ، واقامة دولة اسرائيل وما أعقب ذلك من مراحل الصراع العربى اليهودى وتدهور هذا الصراع حتى حرب الايام الستة والى هذا اليوم .

(الأرض البهية)

فطن العرب الى " اشعة حطين " ونسوا اشعة لايزر !

العقدة الصليبية

ويقتضينا الواجب ان نسهب فى الحديث حول نظرية شاملة ابتدعها العرب قبل سنوات عديدة ، بل تكاد ترجع الى بداية الصراع ، وما زالوا يتمسكون بها تمسكا شديدا حتى بعد الهزائم التى منوا بها ، وأقصد بهذه النظرية " نظرية الصليبيين " ففى هذه النظرية تكمن مقارنة بسيطة جدا ، بين الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل اليهودية من جهة ، وبين الحملات الصليبية ومملكة اورشليم المسيحية .

وفى هذا قصة تستهوى قلوب العرب ، سيما وان نهايتها كانت سعيدة ، اختتمت

بهزيمة الصليبيين .

هكذا يرى العرب قصة الصليبيين : النصارى أرادوا احتلال البلاد المقدسة للسيطرة عليها ، وتدمير المقدسات الاسلامية وطرد سكانها العرب . وقد جندوا المحاربين والاموال فى اوربا وفى مختلف أرجاء العالم المسيحى ، واستغلوا ضعف العالم العربى والتقلبات التى مرت عليه فى غضون تلك الفترة " فترة القرنين الحادى عشر والثانى عشر " . وكان الصليبيون فى البدء يتفوقون على العرب فى السلاح والمعدات الحديثة ، وقد فاجأوا العرب بقدومهم من الشمال ومن البحر واستقروا فى منطقة الشاطئ وهاجموا العرب وتغلبوا عليهم واحتلوا اورشليم وانتهكوا المقدسات الاسلامية وأهانوا العرب واضطهدوهم ، وأقاموا " مملكة اورشليم الصليبية " ، ورسخوا أقدامهم فى البلاد ووطدوا العزم على الاحتفاظ بها الى الابد ، كما أرادوا التوسع - وقد توسعوا فعلا - أكثر فأكثر ، فانطلقوا شمالا وشرقا وجنوبا ، فبلغوا شرقى الاردن واحتلوا اجزاء من سوريا ومن لبنان ، واحتلوا كذلك المنفذ الى خليج العقبة والبحر الاحمر ، ومن هناك أرادوا التوسع بطريق البحر جنوبا . وقد احتلوا مواقع استراتيجية فى مشارف مصر - ومنها منطقة البردويل الى الشمال من صحراء سيناء .

لقد كان الصليبيون ينفذون أوامر الدول الكبرى " الامبريالية " آنذاك جنوة والبندقية وغيرهما من الدول التى بحثت لنفسها عن مواقع وأسواق وكنوز طبيعية فى المشرق ولقد ساعدهم العالم المسيحى ، الكبير الغنى ، بكل قواه ، فتدفقت الاموال عليهم ، كما تدفق السلاح والمتطوعون .

ولقد حاول العرب - عدة مرات - مهاجمة الصليبيين من أجل تحرير بلادهم بيد ان الصليبيين كانوا هم الذين يضربون العرب . وقد مرت مائتا سنة تقريبا حتى بدا ملك الصليبيين فى الانحلال والتفسخ : فقد تخاصم الصليبيون فيما بينهم ، فانقسموا فئات واحزابا . وكان العرب يشتغلون بجميع الاعمال الشاقة فى الحقول والحدادة والبناء ، فى حين كان الصليبيون يعيشون حياة الترف والدلال ، ومع ذلك فانهم لم يندمجوا فى الجو والبيئة اذ انهم لم يكونوا جزءا منها ، فقد كانوا وظلوا نبتا اجنبيا فى هذه الارض .

وأتى صلاح الدين

ولقد قام للعرب زعيم عسكرى مرموق هو صلاح الدين الايوبى ، فعمل على توصيل صفوف العرب فى قوة محاربة وفى شعب واحد . وقد علم بوهن الصليبيين وأدرك نقاط

الضعف لديهم ، فاستخدم أساليب للحرب أكثر فعالية وأكثر تجديدا ضد الصليبيين . واستوعب العبر من أخطاء من سبقوه وتحلى بالشجاعة وشرع ينزل بالصليبيين ضربات قاصمة ويوقع بهم الهزيمة تلو الهزيمة .

وفى معركة فاصلة مشهورة ضد قوات الصليبيين المبعثرة والبطيئة الحركة فى حطين بالقرب من طبريا ، استطاع جيش صلاح الدين ان يبيد القوات الصليبية الرئيسية وأن يضع حدا لمأساة الصليبيين المعارضة وان يحرر البلاد من نير حكمهم .

كم هى من السهولة رؤية القصة الصهيونية على هذا الغرار ؟

الصهيونيون أرادوا احتلال البلاد المقدسة ، وفرض سلطانهم عليها وتدمير المقدسات الاسلامية وطرد سكان البلاد العرب وقد جندوا المحاربين والاموال فى اوربا وفى مختلف أرجاء العالم اليهودى واستغلوا ضعف العالم العربى والتقلبات التى مر بها فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وكان الصهيونيين فى البدء متفوقين فى السلاح والمعدات الحديثة .

التاريخ يعيد نفسه !!

وقد فاجأ اليهود العرب وجاءوا من الغرب وبطريق البحر واستقروا فى منطقة الشاطئ ثم هاجموا العرب وتغلبوا عليهم واحتلوا اورشليم القدس وانتهكوا المقدسات الاسلامية ، واهانوا العرب واضطهدوهم وأقاموا دولة اسرائيل الصهيونية . وقد رسخوا اقدامهم فى البلاد ووطدوا العزم على الاحتفاظ بها الى الابد وأرادوا التوسع وتوسعوا فعلا أكثر فأكثر ، فانطلقوا شمالا وشرقا وجنوبا . وبلغوا شرقى الاردن واحتلوا اجزاء من سوريا ومن لبنان واحتلوا جميع شبه جزيرة سيناء وبلغوا قناة السويس وباتوا يهددون قلب مصر وكان الصهيونيون يعملون وفق اوامر الدول العظمى الامبريالية بريطانيا اولا ومن ثم الولايات المتحدة ، اللتين بحثتا لنفسهما عن مواقع وأسواق وكنوز طبيعية فى الشرق الاوسط وقد ساعدهم العالم اليهودى الغنى بكل قوته فتدفقت عليهم الاموال والاسلحة والمتطوعون . وحاول العرب ضربهم عدة مرات لتحرير بلادهم من نيرهم ، الا ان العرب كانوا هم الذين يتلقون الضربات !!

يمارسون حلم اليقظة .. !

ومن هذه المرحلة بالذات يواصل العرب هذه المقارنة حتى نهايتها السعيدة ،

قائلين ، قد تمر مائة سنة وقد تمر مائتان او أكثر ولكن لابد للصهيونيين ان يصيبهم التفسخ والانحلال ، فيتخاصموا فيما بينهم - حزب مع حزب ومعسكر مع معسكر - ويستغل العرب الذين يعيشون بين ظهرانيهم بكل الاعمال الشاقة ، في الزراعة والحدادة والبناء ، على حين يعيش اليهود حياة الترف والدلال ولكنهم مع ذلك لا يندمجون مع المناخ والبيئة ، اذ انهم لم يكونوا جزءاً مهما لقد كانوا وسيظلون نبتا اجنبيا في هذه البلاد . وهنا نصل الى النهاية المنشودة اذ يقوم للعرب زعيم عسكري عظيم ، يوحد صفوف العرب في قوة محاربة وفي شعب واحد ، ويدرس مواطن وهن الصهيونيين ويطلع على نقاط ضعفهم ويستخدم احدث الاساليب الحربية واكثرها ملائمة . فهو سيستخلص العبر من أخطاء الذين سبقوه ويتحلى بالشجاعة ويبدأ بانزال ضربات قاصمة باليهود (الوة تلو الاخرى) ويواجه جيوشهم ، وفي معركة فاصلة حاسمة يبيد قوتهم الرئيسية ويضحد لمأساة الصهيونية المعارضة ويحرر البلاد من غيرهم .

ان النظرية الصليبية تقدم للعرب ملاذا نفسيا يفزعون اليه من الواقع القاسي والمؤلم ، للماضي والحاضر ، ولربما للمستقبل القريب ، ذلك انه اذا كان الامر سيستغرق مائتي سنة اخرى ، فاية قيمة تبقى لما يحدث اليوم اوغدا او بعد عام اوعامين ؟

ان يوما سيأتي - هكذا يظن ويقنع انفسهم هؤلاء المتمسكون بهذه النظرية - ويعيد التاريخ نفسه ، فتلد الايام صلاح الدين جديدا يأتي بالخلاص ، ويأتي بالقضاء على دولة اليهود .

ولربما كانت النظرية الصليبية هذه ملائمة لوجهة نظر عالم يؤمن بالقضاء والقدر ، بيد انها تمثل قصر ذات اليد في الحاضر . والنقاش مع العرب حول النظرية الصليبية يصعب معه التحدث بالمنطق ، ذلك ان هذه النظرية نابعة عن مشاعر لاعقلية ، ولكن - وبرغم جميع الصعوبات الكامنة في هذا الامر - فلا ينبغي الامتناع عن مثل هذا النقاش ، وقبل كل شيء ينبغي ان نعود فنكرر القول بانه اذا كان ثمة شيء يمكن تعلمه من التاريخ ، فهو ان التاريخ لا يعيد نفسه .

ان التاريخ البشري يشبه نهرا يتدفق ماؤه في زمن وفي حيز ، وهو على درجة من تعدد الالوان ومن التعسف ، ويتعلق كل حدث فيه بأسباب ومسببات كثيرة مختلفة " من قبيل انف كيلوبترا ، وألم البطن الذي كان مصابا به نابليون والنزيف الرئوي لولي العهد الروسي وامثالهم " بحيث ان اندماج هذه الحالات الشامل هو الذي يخلق الحدث المعين ، ومن يؤمن بانه في عالم الفين ومائة سيحدث تنسيق بين احوال

وظروف مماثلة لاحوال وظروف قامت قبل عام ألف ومائة ، ان من يؤمن بذلك مثله مثل الذي يؤمن بالسحر وبالقضاء والقدر .

نعم ، لابد من تكرار القول وان كانت هذه الامور لا يستوعبها أغلب العرب اليوم - بان المقارنة بين اليهود العائدين الى وطنهم القديم ، من الشرق ومن الغرب من الشمال ومن الجنوب وبين النبلاء النصارى في أوربا الاقطاعية من القرون الوسطى ، ان مقارنة كهذه هي أبعد ماتكون سطحية " ، وهي تقيم البرهان على سوء الفهم المطلق بالنسبة الى اسباب عودة اليهود الى وطنهم .

فوفقا للنظرية الصليبية ، يدعى العرب بانه - بعد انتصارهم - سيعود اليهود الى البلاد التي جاؤوا منها ، ولكن من المرجح ان يكون جانب من العرب قد أدرك بعد الحرب العالمية الثانية وما حل باليهود من كارثة مروعة - بانه ليس لليهود اية جهة يعودون اليها ، اذ ان اوروبا بالنسبة اليهم تعتبر مقبرة . كما ان دول الشرق الاوسط العربي والدول الشيوعية قد طردتهم وما زالت تطردهم من بين ظهرانيها .

وأين يذهب اليهود ؟!

وليس ليهود اسرائيل ، ولليهود العائدين الى اسرائيل وللذين اكتحلت عيونهم بنور الحياة فيها ، " والتمييز بين هؤلاء وأولئك " كما يحاول العرب التمييز بينهم ، هو تمييز سخيف ويبعث على الاشمئزاز " ليس لهؤلاء اليهود اي مكان ليعودوا اليه . انهم سيقاتلون من أجل دولتهم . التي فيها يعيشون وفيها يموتون . وهذه العبرة على الاقل ، كان من واجب العرب ان يستخلصوها بعد مائة عام من الصراع مع اليهود . كما ان المقابلة بين الحروب الدينية والحملة الصليبية من جهة وبين صراع الحركتين الوطنيتين الحديثتين هي مقارنة مردودة من اساسها ، وانا أعني بذلك عامل الزمن .

اشعة حطين لا شيء !

فلو كانت دولة اسرائيل قد قامت قبل مائة عام ، وكان العرب انذاك يريدون القضاء عليها بقوة السلاح ، ففي هذه الحالة أيضا يمكن الادعاء بان المقارنة بين سلاح القرن الثاني عشر وسلاح القرن التاسع عشر هي مقارنة سخيفة ، ناهيك عن مقارنة سلاح وأدوات حرب صلاح الدين الايوبي وريتشارد قلب الاسد . بسلاح وأدوات

حرب القرن العشرين ،او بداية القرن الحادى والعشرين وعام واحد .

فالسلاح الذى سيستخدم فى المعركة الفاصلة لن يكون اشعة حطين التى يحلم بها العرب فى صحوهم ،بل ستستخدم فى المستقبل اشعة لا يزر او اشعة الراديو ذات الفاعلية الاشعاعية.

ان اساليب المعارك الفاصلة على غرار معارك التاريخ المثالية القديمة هى بالنسبة الى عصرنا الحاضر اساليب اكل الدهر عليها وشرب ، ولو افترضنا ان العرب اوشكوا ان يفلحوا ،بمساعدة دولة كبرى او دول كبرى ذات تكنولوجيا حديثة ، فى ابادة اسرائيل ، فسيبادون هم أيضا ومن كل المنطقة وسكانها لن يبقى لا شريد ولا طريد ولا لاجئ ، لا من اليهود ولا من العرب ، ولن يكون غالبون او مغلوبون ، بل كل ماسيبقى رماد وخراب شامل ، ولن تكون ثمة مواكب نصر لا فى دمشق ولا فى القاهرة ،اذ ان بعد معركة حطين حديثة ،لن تبقى على وجه المعمورة لا دمشق ولا القاهرة ..

فهل بهذا يحلم العرب ؟ هل يدرك العرب بانهم فى سباق التكنولوجيا نحو حل بالقوة قد تأخروا عن الموعد ؟ ان كل " جولياث " تسول له نفسه ابادة دولة " داود " ينبغى أن يأخذ فى حسابه حجر المقلاع من أحدث طراز عصرى الذى سيتوفر بيد " داود والذى سيستخدمه فى حالة ما اذا انبروا الى قتله . وحتى لو بقى سوء التفاهم المطلق بالنسبة الى دوافع المشروع الصهيونى ، والى رغبة اليهود فى العيش بسلام ومن خلال مصالحه مع العالم العربى ، فينبغى ان يكون كل مايتعلق بالردع التكنولوجى مفهوما جيدا من جانب زعماء الدول العربية .

رأينا ان النزاع اليهودى العربى أخرج العرب عن طورهم ، وأدى بهم الى احباط عميق بث فيهم لاسامية سامة ، ويشعل فى قلوبهم كراهية متقدة لاسرائيل .

ان اللاسامية العربية الجديدة عبرت عن نفسها فى آلاف الكتب والكتيبات وفى آلاف المقالات والرسوم الكاريكاتورية فى الصحف ، والاحاديث فى الاذاعة والتليفزيون ، وأخذت هذه اللاسامية تقترب أكثر وأكثر من اللاسامية المسيحية الاوروبية فى أحلك أيامها فى اسبانيا او المانيا او روسيا ، واستمدت هذه اللاسامية بمعونة رجال الدين نصوصا من القرآن الكريم لدعايتها المعادية لليهود كما فعل المسيحيون ، تصف اليهود واليهودية بصورة خيالية للتنفيث عن الغرائز الكامنة وتبين ان الدين الاسلامى يأمر بقتل اليهود .

على العرب الذين لم يحنكوا بعد فى اللاسامية القاتلة بالاسلوب الاوروبى ان يدركوا ان السم الذى يشربونه بهذه الكميات الضخمة هو سلاح ذو حدين ، وهو يسمم قبل كل شئ اجسادهم هم ، فان الذى يغرس مشاعر الكراهية العنيفة ، وعدم التسامح بلا هوادة ومن يعلم ابناءه العداء العميق لليهود لن يستطيع ان يغرس مشاعر التسامح والمحبة والمودة والاحترام المتبادل فى مجتمعه هو .

هناك أمثلة عديدة فى تاريخ الاوطان على ذلك ، فان سيف اللاسامية البتار الذى شهرته الشعوب الاخرى ارتد الى نحرها هى - فما بالك والعرب يحتاجون الى كل مثقال من الطاقة الانسانية الخلاقة لا المدمرة ، ولكل ذرة من مسحوق الوحدة لا الفرقة .

ان التحديات الانسانية والاجتماعية التى يواجهها عشرات الملايين من العرب تحديات ضخمة وهى مسايرة اواخر القرن العشرين ، ورفع مستوى المعيشة ومشكلات الاسكان والتعليم والصحة والتنمية العلمية ، واستغلال الموارد الطبيعية لصالح الجموع ، وتنمية الزراعة والصناعة ، ورفع مكانة الحضارة العربية - وكل هذا لن يثنيهم عن ابادة دولة اسرائيل ، ونجد ان توجيه الموارد الاقتصادية والمادية لنشر الكراهية لليهود واسرائيل يستنزف دماء العرب ، دون ان يتيح لهم حتى الشعور بالتنفيث ، فانه ليس فى نية اسرائيل ان تصبح قربانا على مذبح الكراهية العربية وان تذبح بسيف الاسلام .

ان الدول العربية لم تتحرر وتستقل الا منذ جيل او أقل ولا زال كل منها فى مرحلة البحث عن شخصية قومية خاصة. ونعتقد انه سوف يمر وقت طويل حتى تتبلور اطارات عربية قومية عريضة ثابتة ، ولكن الواقع الاقتصادى والدولى يفرض على الدول العربية كما يفرض على اجزاء أخرى من العالم تكوين اطارات اقليمية ولا مفر من ذلك ، ومن هنا كانت محاولات العرب تكوين اتحادات فيدرالية وكونفدرالية مختلفة ، تحتفظ كل دولة فيها باستقلالها وسيادتها ، وعندما يفيق العرب من عقدة الصليبيين حيال اسرائيل ويسلموا بوجودها يصبح هناك مجال لاطار اقليمى فى الشرق الاوسط يضم ايضا اسرائيل ، وتساهم فى هذا التشكيل بكل قوتها وكفاءتها .

* * *

القسم الثالث

* مجابهة فى مواجهة الاقرباء .
نحن والعرب الفلسطينيون .

* * *

* اسرائيل ومصر .

* * *

* السوريون الذين فى مواجهتنا .

* * *

* علاقتنا بلبنان .

* * *

* مجابهة فى مواجهة العالم العربى .

نحن والعرب الفلسطينيون

جذور النزاع

لقد تناولنا حتى الان وصف الخلفية العالمية والاقليمية فى صدد تقييم وضع اسرائيل ، وهذا يتيح لنا الوقوف على الامكانات المفتوحة امامها ويحدد معالم اهدافها فى المستقبل .

قد يكون مدى تأثيرنا كيهود وكأسرائيليين على اتجاهات التطورات العالمية فى المستقبل صغيرا ، ولكنه ليس تافها ، فان اليهود منتشرون على سطح الارض ، ووزنهم النوعى فى كثير من الدول بما فى ذلك الدول العظمى يفوق عددهم . ونجد أن الاسرائيليين فى داخل قنبلة من أخطر القنابل فى عالمنا المعاصر ، وقد تتخذ اسرائيل حركة الى هنا أو الى هناك فتنفجر هذه القنبلة فى المنطقة وقد يؤدى هذا لسلسلة من ردود الفعل العالمية الفظيعة .

ان فى استطاعتنا ان نؤمن هذه القنبلة بل واتخاذ مبادرة من جانبنا لتحييدها ، ولكنها ببطء وحذر وابطال مفعول المواد الناسفة التى تجمعت فى منطقتنا ، وان نخلص العالم من واحد من أكبر مراكز الخطر .

ان مشكلة مشكلاتنا هى مستقبل علاقاتنا مع العرب ، وهذه المشكلة مركبة ومعقدة الى أكبر حد ، وليس لها حلول سهلة ، ولا دواء سحرى .

من الصعب ان نفرق بين عناصر النزاع الاسرائيلى العربى ومكوناته ، ورغم صعوبة المسألة ، ورغم خطورة تبسيط المشكلة ، يجب معالجة العناصر والمكونات المختلفة للمشكلة كل على حدة ، لانه بهذه الطريقة تكون المناقشة اوضح وأشمل ، ويجب أن نناقش الاحتمالات المفتوحة لاسرائيل واهدافها بالنسبة للفلسطينيين والمصريين والسوريين واللبنانيين وسائر الدول العربية كل على حدة ، وكذلك على المستوى العالمى والدول الكبرى يجب ان نبحث ماهية علاقاتنا فى المستقبل بالولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وأوربا الغربية والعالم الثالث ، كل على حدة .

ونجد ان المسألة الفلسطينية هى أكثر المسائل حساسية بين جملة مشكلاتنا ومشكلات العرب ، وهى تبدو انها لا حل لها فى الوقت الراهن ، ولكنها تخفى فى

طياتها أكبر الآمال فى السلام . ولا شك فى ان مشكلة علاقاتنا مع العرب الفلسطينيين تحتل المكان الاول فى اطار علاقاتنا بالعالم العربى ، وذلك لدى العرب ولدى شعوب العالم ، ومؤخرا أيضا لدى كثير من اليهود ، ويكمن فيها مفتاح حل النضال حول هذه الارض .

ان مشكلة الفلسطينيين (هل هم موجودون ؟ من هم ؟ الى أين يسيرون ؟ ما نظرتنا اليهم ؟) مشحونة بقدر كبير من المتفجرات العاطفية والسياسية حتى أصبحت مشكلتنا الداخلية ، وعقدة تطاردنا بلاهوادة ، ولا سيما بعد حرب الايام الستة .

ومن العسير علينا ان نكون موضوعيين فى هذه المشكلة ، بل ان ذلك يكاد يكون مستحيلا ، فانها ترتبط منذ عشرات السنين بوجودنا هنا ، وهى تعيش بيننا ، وترافقنا كظلنا ، ولا نستطيع ان نتخلص منها ، ونجد ان كل من يتكلم فى النزاع العربى الاسرائيلى او يكتب عنه يحاول ان يخفى المسألة الفلسطينية ، ويقول ليس هناك مشكلة فلسطينية ، وليس هناك فلسطينيون ، ان الامور سوف تسوى ولكن بيد وان هذه المسالة تبدو لدى بعض اليهود ككابوس بغيض او شيطان مروع ، ويدعون الرحمن لينقذ اسرائيل منها .

لن يجدى كل ذلك ، ونحن مضطرون ان نعيش هذه المشكلة ومع هؤلاء العرب الفلسطينيين ، انهم يعيشون الان فى وسطنا وعلى حدودنا ، وأصبحت الان مسئولية مصير وحياة أكثر من مليون منهم فى أيدينا ، وينشأ من بينهم أكثر أعدائنا ضراوة ، ونحن مضطرون ان نعيش معهم الى الابد ، حتى لو تمت المعجزة وعقدنا اتفاقيات مؤقتة او اتفاقيات دائمة بيننا وبين الدول العربية الواقعة الى جنوبنا وشرقنا وشمالنا ، فان هذا لن يحل مشكلة الفلسطينيين ، فلن يتحقق لنا سلام حق ، ولن ينتهى النزاع اليهودى العربى حتى نجد معهم حلا لمشكلتهم التى هى مشكلتنا ، ولن تجدينا اى محاولة لاخماد هذه المشكلة ، لانه لا يمكن اخماد مثل هذه المأساة الانسانية والقومية ، وبالتأكيد لن نستطيع ان نفعل ذلك معشر اليهود الذين لم يسمحوا على الاطلاق للعالم ان يخمد مشكلتنا وان يتجاهل مأساتنا ، فمن الافضل اذن ان نتغلغل فى أعماق هذه المشكلة ، وعلينا ان نفعل هذا رغم مافى ذلك صعوبات ومضايقات .

ان مشكلة العرب الفلسطينيين هى أساس النزاع ، واليها ترجع جذور الازمة ، وبسببها بدأ سفك الدماء ، انها جرح متقيح ، ينزف دما ، دمنا ودمهم ، يسمم جسم

العالم العربى ، وكذلك جسمنا ، والزعيم الذى يرغب فى شفائه ، لن يستطيع ان يتفادى مبضع الجراحة ، فان عليه ان يفتح الجرح ويبحث عن أصل التلوث ، اما الاكتفاء بادوية ودهانات خارجية فلن يجدى ، بل يجب بحث المشكلة بحثا دقيقا ومن كثب لمعالجتها وشفائها .

اتخذ زعماء العرب الفلسطينيين المتطرفون تصفية اسرائيل هدفا لهم ، وهم يدعون لانفسهم فلسطين بأكملها (وهى فلسطين الواقعة غرب الاردن وهى التى كانت تحت الانتداب البريطانى) . وهم يرون ان اسرائيل ليست دولة فعلية ، وان اليهود ليسوا شعبا فعلا ، فاليهود قد تجمعوا هنا ، وبأسلوبهم يرون ان العصابات الصهيونية ليست الا شرذمة من الاشخاص الذين ليس لهم اى حق فى هذه الارض ، وظلوا يكررون هذه الادعاءات عشرات السنين حتى ان جزءا منا أخذوا يحاولون الرد عليهم بنفس الاسلوب ، بادعائهم انه ليس هناك فلسطينيون ، وليس هناك فلسطين ، وانه ليس لمن يصفون انفسهم بانهم فلسطينيون اى حق فى هذه الارض ، ويطلق الكثير منا على قسم منهم العصابات وعلى قسم آخر المخربين والباقى شراذم .

ان هذا الاتجاه خطأ سيكولوجى بالنسبة لنا قبل كل شئ ، لقد واجهنا هذه المشكلة نفسها اجيالا عديدة فى تاريخنا ، وقد سئلنا أيضا أكثر من مرة ، ماحقكم فى ان تصفوا انفسكم بأنكم شعب ؟ انكم ليس لكم وطن ولا تملكون أرضا ، وليس لكم لغة مشتركة ، وانتم تختلفون الواحد عن الاخر فى العادات ، ولون البشرة ، والملبس وكل شئ ، وانتم مشتتون ومنقسمون وانتم لاجئون ومتنقلون ، فكيف تتجاسرون وتدعون حق الحكم الذاتى ؟ وقد كافحنا بما تبقى فينا من قوة ، وتوجنا نضالنا هذا فى سبيل الحكم الذاتى للشعب اليهودى بالمشروع الصهيونى ، فكيف نسلب الاخرين هذا الحق ، كيف نسلبه من جماعة انسانية ترغب بما تبقى من قوتها فى الحكم الذاتى كشعب ، حقا ان هذه الجماعة ترغب أكثر من اى جماعة أخرى فى العالم العربى ان تبيدنا وتفنينا وتحل مكاننا ، ولكن هذا ليس له علاقة بالحكم الذاتى ، وهل بعدم الاعتراف بالعدو وعدم تسميته بالاسم الذى يطلقه على نفسه نقوى روح المقاتلين ضده ؟ وهل اذا قلنا لجنود الجيش الاسرائيلى الذين يطاردون العرب الفلسطينيين المسلحين الذين يقدمون لقتل اليهود وتدمير مستوطناتهم انهم يحاربون عصابات او مخربين سوف يقومون بمهمتهم على خير وجه ؟ وهل كانت حربنا ضد الالمان أو ضد البريطانيين تغيرت لو اننا كنا أطلقنا على الالمان العصابات النازية او على البريطانيين عصابات بيغن ؟

ان بيننا من يبغى حل المشكلة بالاساليب الكلامية بتسميتهم العرب الفلسطينيين بالاسم المحايد عرب البلاد ، وهناك من يستخدم صيغة عرب ارض اسرائيل وهى تسمية غريبة على العرب ، وهم بذلك يخدعون انفسهم بانهم بذلك يحلون المشكلة .

من هم وما غايتهم ؟

انا يجب ان نسلك سلوك الكبار الراشدين وندعو الاقوام باسمائها ، وعلينا فى المرحلة الاولى من الدراسة ان نسأل انفسنا ، من هم العرب الفلسطينيون ، وكيف ومن اين قدموا لهذه البلاد ، وماذا تجرى فى الماضى .

لدى بداية المشروع الصهيونى منذ مائة سنة وجد الرواد الصهيونيون فى هذه البلاد قلة من السكان العرب يبلغون بضعة آلاف نسمة الاغلبية من المسلمين وقلة من المسيحيين ، وارتباط هؤلاء السكان بهذه الارض ترجع لعهود سحيقة تبدأ قبل الغزو العربى بكثير ، ويحتمل جدا ان يكون هؤلاء العرب من أبناء المستوطنين الاوائل من اليهود والسامريين والادوميين والنبط والافريق والرومان والبيزنطيين وأبناء قبائل وشعوب كثيرة غيرهم ممن كانوا فى البلاد ، وقد غزاها العرب المسلمون من أبناء الجزيرة غزوا خاطفا ، واعتنق معظم الاهالى فى الارض المحتلة دين الاسلام .

اختلط العرب الخلّص من أبناء الجزيرة العربية مع سكان البلاد الاصليين وامتزجوا بهم على مر الاجيال وكونوا معا شعبا واحدا عربيا (وهذا ما حدث أيضا فى كثير من البلاد الاخرى التى غزاها العرب ، وجد لهذا الخليط العربى ألوانا وعناصر مختلفة) .

كان لهذه البلاد نصيبها من امجاد الامبراطورية العربية وعظمتها فتحولت أورشليم الى القدس ، وبنى مسجد عمر على جبل المعبد رغم ان القدس لم تتخذ عاصمة للخلافة العربية ، ورغم ان البلاد لم تكن الا مجرد ولاية صغيرة فى الخلافة الضخمة فقد كان لها مكانتها آنذاك ، وحافظ العرب على قداسة البلاد بطريقتهم واحتفظ كثير من المستوطنات بطابعها التاريخى وبتقاليدها المحلية بل واسمائها اليهودية الواردة فى التوراة .

منذ الغزو العربى مر أكثر من ألف وثلثمائة سنة ، وقد انتقلت البلاد والاهالى العرب منذ ذلك التاريخ من احتلال الى احتلال ، فمن السلاجقة الى الصليبيين الى المماليك الى المغول الى الاتراك العثمانيين ، وقد أضاف كل هؤلاء طبقات الى هذا الخليط العربى وجعلوه أكثر تنوعا ، وعلى هذا النحو وجد العائدون الصهيونيون عرب البلاد .

منذ حوالى مائة سنة لم يكن الاهالى العرب الاصليون فى البلاد شعبا عربيا مستقلا ، ولم يكن لهم امانى قومية مستقلة ، ولم تكن هذه المفاهيم قد وجدت بعد فى العالم العربى آنذاك ، فمنذ ذلك الحين فقط أخذت القومية بمفهومها الحديث تطرق أبواب العالم العربى ، ولم تكن هذه الولاية الصغيرة مركزا هاما لحركة القومية العربية فى بداية تكونها ، ولم يكن ولاء وانتماء الاهالى العرب لفلسطين ، فان هذا الاسم لم يكن بعد قد تبلور وتحدد ، بل كان الولاء والانتماء للاسر والعشائر والقبائل والقرى والمدن .

لم تصل النهضة القومية العربية التى بدأت منذ حوالى أكثر من مائة سنة فى مصر ولبنان وسوريا ، لم تصل هذه النهضة الى البلاد الا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (بدأت صحيفة " فلسطين " فى الصدور فى القدس فى سنة ١٩١١) . وكانت الحركة الصهيونية من بدايتها دافعا خاصا لعرب البلاد لتنظيم صفوفهم والنضوج القومى . وأصبحت الصهيونية عدوا للقومية العربية وليس هناك أفضل للحركة القومية من أن يكون لها خصم لدى قيامها بعد الحرب العالمية الاولى واجهت حركة البعث القومى اليهودى حركة قومية عربية فلسطينية ، وكانت فى الواقع حركة منقسمة ومتنازعة ومليئة بالمتناقضات الداخلية تجتاحها الخلافات الشخصية والاسرية ولكن كان لها منذ ذلك الحين هدف واضح ، وهو السيطرة على جميع البلاد تحت

رعاية بريطانيا او دونها ، وجعلها دولة عربية باسم فلسطين ، وتصفية المشروع الصهيوني .

كانت هذه الحركة الفلسطينية كما قلنا جزءا من حركة عربية أكبر ، ولكنها كان لها هدفها الخاص منذ العشرينات والثلاثينات والاربعينات ، وكنا نحن هذا الهدف ، ويمكننا القول بأن الصهيونية هي التي خلقت الفلسطينيين والحركة القومية الفلسطينية وان بدا هذا الكلام متناقضا .

وكما حدث في الماضي ان انجب ابراهيم الشعب اليهودي والشعب العربي وجدنا فلسطين تنجب توأمين في العصر الحديث هما القوميتان اليهودية والعربية . وكلما اشتد النضال حول الارض أخذ الهدف العربي الفلسطيني معنى أكبر ، وانفردت حركة القومية العربية الفلسطينية بالعصابات وثورة الاحداث الدموية في المدة ما بين ١٩٣٦ – ١٩٣٩ والاضرابات العامة ، وتكوين اللجنة العربية العليا ، كما تميزت أيضا بالتقتيل فينا ، والانقضاض على مستعمراتنا والضربات المضادة العنيفة التي وجهناها اليهم ، والدماء التي استنزفناها منهم ، والمناكفة الدائمة معهم ، والحياة اليومية مع اليهود ومحاكاة اساليب حياة اليهود ، وطرق قتالهم ، وقد جعل كل هذا وغيره من الاسباب العديدة من عرب البلاد شعبا فريدا من نوعه يختلف عن العرب الآخرين .

وقد فشلت حركة القومية العربية الفلسطينية وانهزمت في سنة ١٩٤٨ بسبب عدم مهادنتها وعدم رغبتها في ان تمنح الصهيونية شبرا واحدا على نفس الارض وتحت نفس الشمس ، وباصرارها على القاء اليهود في البحر ، جلبت على نفسها هزيمة منكرة .

علينا ان نسأل انفسنا ، وان نكون صادقين مع انفسنا : مع من كنا نعيش ، ومن قاتلنا طوال عشرات السنين حتى قيام الدولة ؟ اليس مع العرب الفلسطينيين ، هل كانت لنا قضية حياة او موت مع المصريين ؟ أو مع السوريين ؟ او مع المغربيين ، لمن كانت اللجنة العربية العليا ؟ الم تكن للعرب الفلسطينيين ؟ من كانوا رجال العصابات مع من كان زعماؤنا الصهيونيون يبغون من صميم فؤادهم الوصول الى حل واتفاق ، اليس مع زعماء العرب الفلسطينيين ؟ من كان رجال المفتي من الحسينيين والنشاشيبيين والدجانيين والخالديين ألم يكونوا زعماء العرب الفلسطينيين ؟

عندما وافقنا على تقسيم فلسطين في سنة ١٩٤٧ لدولتين يهودية وعربية (كما ورد في قرار الامم المتحدة) الم نتصور ان الدولة العربية عندما تحصل على استقلالها

سوف تطلق على نفسها اسما وان اسمها سيكون " فلسطين " ؟ ألم تكن على استعداد للحياة في سلام جنبا الى جنب مع دولة فلسطين هذه ؟ اننا يجب ان نجري هذا الحوار فيما بيننا . ان هناك عدم صدق في تفكيرنا ، ولاسيما بعد حرب الايام الستة عندما أخذ الكثيرون منا يقولون : من الفلسطينيون ؟ من أين نبتوا ؟ ومتى ولدوا وماذا يفعلون هنا ؟

ان العرب الفلسطينيين هم ألد أعدائنا ، ولكن يجب علينا ان ندعوهم باسمهم ، فان الحركة القومية العربية الفلسطينية لم تقبل بحكم قرار الامم المتحدة الصادر في سنة ١٩٤٧ ، وقامت في سنة ١٩٤٨ بتجنيد العالم العربي لمعونتها لابادة اسرائيل ، وقد دفعت الثمن كاملا ، وبدلا من ان يلقوا باليهود في البحر تحول مئات الآلاف من العرب الفلسطينيين الى لاجئين ، وبدلا من ان تدمر مئات من قرانا ، دمرت مئات من قراهم ، وبدلا من ان يحتلوا أراضينا احتللنا الكثير من أراضيهم ، وقامت دولة اسرائيل ، وشملت أراضي العرب الفلسطينيين ، الذين يبغون الان ابادتنا ، وكان هذا هو الثمن . وهذا ما يدركه جيدا العرب الفلسطينيون انفسهم .

كانت الضربة التي تلقاها العرب الفلسطينيون من العنف بحيث لم تدع لهم القوة لكي ينشئوا فلسطين العربية في الجزء الذي تبقى في أيديهم من البلاد ، فقد استمر المصريون في احتلالهم لقطاع غزة ، واحتل أهالي شرق الاردن من رجال المملكة الهاشمية الضفة الغربية ، وسيطروا عليها . وظلت أقلية من العرب الفلسطينيين في تخوم دولة اسرائيل .

بعد سنة ١٩٤٨ تفرق الفلسطينيون بين العرب ودمغ حوالي نصفهم بخاتم اللاجئين ، الذي وسمت به الجماعات والافراد ، وترك فيهم وصمة لا تمحى ، ونحن معشر اليهود خير من يعرف ذلك .

اصبح العرب الفلسطينيون أكثر الجماعات القومية العربية بؤسا وأصحاب أكبر مأساة في العالم العربي وأكبر الخاسرين بين الجماعات القومية العربية ، فكانوا الوحيدين الذين لم يحصلوا على استقلال ، على حين حظيت اى جماعة عربية تبلورت كحركة قومية بدولة خاصة بها ، ومنها من حصل عليها بسهولة ، ومنها من حصل عليها بعد كفاح ، ولكن النتيجة كانت انشاء دولة وايجاد شعب ، وهذا ما حدث في العالم العربي من

المغرب غربا حتى العراق شرقا ، وكانت الحركة القومية العربية الفلسطينية هى الوحيدة التى لم تحظ بهذا .

كما ان اية دولة عربية اخرى لم تذق تجربة اللاجئين ، على أى حال ليس بهذا القدر الكبير ، ولم يكتو بنيران هذا العذاب من بين جميع الشعوب العربية الا العرب الفلسطينيون .

كان هدف العرب الفلسطينيين ووحدتهم هما احد العوامل التى أدت بالدول العربية الشقيقة مثل مصر وليبيا ودول المغرب وسوريا ولبنان والعراق وغيرها الى عدم استيعاب العرب الفلسطينيين استيعابا حقيقيا ، وكانت هناك طبعا عوامل أخرى لذلك ، منها ان الدول العربية تركت مئات الالاف من اللاجئين فى معسكرات تثير الشفقة طوال عشرين سنة وأكثر ، ومن بين هذه العوامل عامل "العودة" وعدم رغبة اللاجئين انفسهم فى الاندماج فى الدول العربية ورغبتهم القوية فى العودة لاراضيهم وديارهم ، وأت الدول العربية ان تتخذ من معسكرات اللاجئين المقامة على حدود اسرائيل سلاحا سياسيا وسيكولوجيا وعسكريا تصوبه نحو اسرائيل ، كما انها لم تشأ ان تنفق الاموال وتبذل الجهود فى استيعاب اللاجئين فى بلادها ، وتخلت عنهم وتركتهم لمصيرهم ، يتسولون ويسألون فضلات الكرام ويعيشون على معونات وكالة غوث اللاجئين ، وتخفى هذه المعاملة السيئة مخاوف الدول العربية من الوحدة الفلسطينية ، وأصبح الفلسطينيون رحل متنقلين واكتسبوا بعض الخصال التى تميز اللاجئين من الاحباط والمرارة والارتياب ، كما جلبوا معهم روح التمرد وعدم الاتفاق ، ورفعوا علم الراديكالية السياسية المتطرفة ، وعارضوا المؤسسات اى مؤسسات حتى مؤسسات الدول التى تستضيفهم ، بل وأصبحوا على غرار اليهود كما وصفهم اعداؤهم فى الشتات اشخاصا يثيرون الشكوك ، وغير مستقرين ، وغير موثوق بهم ، ويشكلون خطرا على الامن ويحتم مراقبتهم ويجب الحذر منهم .

يجب ان نستثنى من هذا طبعا المملكة الاردنية ، فانها لاتملك الا ان تستوعب العرب الفلسطينيين الذين يزيد عددهم على عدد السكان الاردنيين الاصليين ، ومنذ سنة ١٩٤٨ عندما ضمت الحكومة الهاشمية الضفة الغربية اليها ، أخذ الفلسطينيون يبتلعون شرق الاردن من الناحية الديموجرافية والثقافية ، ويمكن القول انه لولا حرب الايام الستة لتحولت المملكة الاردنية تدريجيا الى الدولة العربية الفلسطينية التى قررتها مبدئيا الامم المتحدة ، بل وان تكون أكبر مساحة (كما زادت مساحة اسرائيل عما

خصها به مشروع التقسيم الاصلى) .

ففى الاردن تم استيعاب اللاجئين الفلسطينيين بشكل عضوى فى الحياة الاقتصادية والادارية للمملكة ، على غير ما حدث فى قطاع غزة ومعسكرات اللاجئين فى سوريا ولبنان ، واختفى مع الزمن جزء من المعسكرات على اثر انتقال اللاجئين الا مبان ثابتة . وتحولت بعض المعسكرات الى ضواحى لبعض المدن .

اخذ العرب الفلسطينيون من لاجئين وغير لاجئين يحتلون مكانا بارزا فى السلطة الحكومية ومؤسسات الدولة والاخرون بعد ان اكتسبوا منها أخذوا يبحثون لانفسهم عن مكان فى انحاء العالم العربى ، ولا سيما فى امارات البترول ، ولو استمرت هذه العملية جيلا او جيلين لاصبحت الاردن فلسطين الاردنية ، واجتذبت اليها مع تطورها السريع اللاجئين الفلسطينيين من معسكرات غزة وسوريا ولبنان ، ويحتمل ان كان الفلسطينيين بطريق التطور او الثورة عملوا على تغيير نظام الحكم تغييرا جذريا ، وأقاموا جمهورية فى هذه الدولة .

حشد فى الاردن بوضعها قبل حرب الايام الستة الاغلبية الساحقة من الفلسطينيين ، حوالى ثلثيهم تقريبا ، وكانت هذه الدولة تصلح ان تكون حلا لمشكلة العرب الفلسطينيين ، ناحية اهمية الامم ومركزها والاماكن المقدسة والغلات الطبيعية وامكانيات التنمية .

ولكن زعماء العرب الفلسطينيين سواء فى هذا زعماء فتح او سائر منظمات المقاومة فانهم كانوا يرغبون فى العودة والثأر طبقا للميثاق الفلسطينى الذى يعد دستورهم ، فقد كانوا يبغون استفزاز العرب الفلسطينيين والعالم العربى أجمع لجولة ثالثة ورابعة وخامسة ضد اسرائيل لتدميرها والحلول مكانها . وبعد حرب الأيام الستة اعتقد زعماء المقاومة الفلسطينية انه قد حلت ساعتهم الكبرى ، وأنهم سيجعلون حياة اسرائيل جهنم ، ويلحقون بها الدمار بحرب العصابات ولكن تأثير منظمات المقاومة الفلسطينية تقلص بنشاط الجيش الاسرائيلى وكذلك عمليات الجيش الاردنى اذ ان هذه المنظمات وجهت معظم نشاطها نحو المملكة الهاشمية .

فى البداية وجدت منظمة فتح وسائر منظمات المقاومة الفلسطينية المسلحة تعاطفا من العالم اجمع ولاسيما الشيوعيين واليسار الجديد ومحبى حركات المقاومة وحرب العصابات اينما كانت . وحاول بعض زعماء العرب الفلسطينيين وعلى رأسهم زعماء

فتح ان يظهر الثوريين الاحرار ليكتسبوا المزيد من هذا التعاطف والتأييد ، بان يظهروا انه ليس في نيتهم ابادة يهود اسرائيل ، بل ان كل فرضهم تصفية اسرائيل كدولـة واقامة دولة فلسطينية ديموقراطية العلمانية المتعددة القوميات مكانها ، حيث يعيش السكان العرب واليهود جنبا الى جنب ، ولم يصمد هذا الشعار البراق وسرعان ماظهرت من وراء هذا الستار المهلهل الرغبة فى الثأر وحرب الابادة ، وسقط قناع الايديولوجية المعتدلة .

لم تستهن اسرائيل او تستخف بأى حال بظاهرة المقاومة المسلحة الفلسطينية وأت انه من الخطر اعتبار ان عهد الارهاب والتخريب قد انتهى بتقلص هذه الحركات وفى الواقع تحقق ظننا بان رجال المقاومة الفلسطينية لا يشكلون تهديدا عسكريا جديا لكيان اسرائيل ، ولكن اسرائيل لم تنس لحظة الدماء التى نزفت منها خلال السنوات الاخيرة ، ولم تستهن بهذه المنظمات أيضا من ناحية الروح المعنوية والبسالة ، فاننا لسنا من الحماقة حتى لانرى انها نجحت فى رفع روح العرب عامة والفلسطينيين خاصة ولو لفترة ما ، وانها كانت فى نظرهم رمز البطولة والتضحية ، ان الذى يستخف او يستهين بآلاف المقاتلين من العرب الفلسطينيين الذين تصدوا لنا يبغون قتلنا ، ويطلق عليهم لفظ عصابات او شراذم يرتكب اثما عظيما ويظلم جنود الجيش الاسرائيلى وأجهزة الامن التى قاتلتهم وتقاتلهم باستماتة وبسالة وكفاءة ، فان هذه حرب ضارية ضد اشخاص متوحشين ، ضد اشخاص مستبسلين حانقين وعلى يقين من انهم يقاتلون فى سبيل قضية عادلة ، ولا تنقصهم على الاطلاق البسالة والفطنة ، فان الانطلاق من قواعد خارج حدود اسرائيل يتوغلون فيها بين شبكة مكثفة من المواقع الحصينة والاسلاك الشائكة وحقول الالغام ، والاجهزة الالكترونية ، ثم العيش فى الكهوف والمغارات ، يطاردهم الجيش الاسرائيلى ، وأجهزة الامن دون شفقة او هوادة يتطلب شجاعة غير قليلة ، فمن الخير ان نعترف بهذا ، فان هذا الاعتراف لن ينقص من قدر الجيش الاسرائيلى ، بل يرفعه .

ان هؤلاء المقاتلين الفلسطينيين يدركون انهم يعرضون حياتهم للموت ، وانه لا يعود منهم حيا الى قواعدهم الا واحد او اثنان من كل عشرة أفراد ، والباقى يقاتلون فى المعركة ، او على أحسن تقدير يعتقلون ويؤسرون سنين طوالا ، اما هذا الذى يزعم ان هؤلاء يسيرون الى القتال على هذا النحو هم عصابات او شراذم فانه لا يعرف عما يتحدث .

اذا كنا حتى الان ركزنا على نشاط المنظمات المقاتلة من العرب الفلسطينيين ، فليس هذا الا لانهم هم الذين أعطوا للمشكلة الفلسطينية طابعها وأبعادها ، وجعلوا منها مشكلة عسكرية تحتم معالجتها استخدام القوة طبقا للقاعدة البديهية - بادر بقتل من ينهض لقتلك .

لكن علينا الا ننسى ان هذه المنظمات ونظرتنا اليها ليست الا جزءا من المشكلة الفلسطينية ورأينا فيها .

نعود لتناول مشكلة الاسماء : هل العرب الفلسطينيون شعب ؟ لقد قام حول ذلك جدل فيما بينهم وبين انفسهم ، فان منهم من يطلقون على انفسهم الكيان الفلسطينى ، وهى تسمية غامضة غير واضحة ، لم يحددها واضعوها انفسهم كما ينبغى ، ان مسألة الاسم وتحديد مضمون العرب الفلسطينيين هى قضية تخصهم هم انفسهم ، ولا يستطيع احد سواء اليهود او غيرهم ان يسلبهم هذا الحق .

فى الواقع انهم هم انفسهم او تاريخ العقود الاخيرة من السنين قد حددتهم كشعب خاص بين الشعوب العربية ، واذا كنا نعرف الان - وهذا هو الاتجاه السائد فى العالم العربى - المغاربة بأنهم الشعب المغربى ، والجزائريين بالشعب الجزائرى ، والتونسيين بالشعب التونسى ، والليبيين بالشعب الليبى والمصريين بالشعب المصرى ، وهكذا سائر الشعوب العربية ، فانه يمكن بالتأكيد ان نعرف العرب الفلسطينيين بانه شعب ، ومنذ قيام دولة اسرائيل حدد سكان كثير من بلاد آسيا وافريقيا بانها شعوب ، وقد اعترفنا بهذا التحديد ، رغم ان مميزاتها القومية لا تزيد عن مميزات الفلسطينيين . حقا ان العرب الفلسطينيين ليس لهم حاليا دولة يعبرون فيها عن انفسهم ، ولكنا معشر اليهود خير من يعرف انه يمكن ان يوجد شعب فى طريق التكوين يحمل فى نفسه امنية الحصول على دولة خاصة به .

ان الشعب العربى الفلسطينى له تاريخه وذكرياته الخاصة به وحروبه وشهداؤه ونضاله وأبطاله واغانيه وأشعاره وأدبه ، وهذا الشعب له أرض ممتدة يقيم فيها معظمه ، ولهذا الشعب الذى يبلغ حوالى ثلاثة ملايين منفاه وشتاته يجد ان حرب الايام الستة قد أبرزت الكيان الفلسطينى ، فقد زاد الوعى بالمصيبة المشتركة بعد هزيمة أخرى ، وبعد شهداء آخرين وبعد لاجئين آخرين .

حدود جديدة — ووضع جديد

لقد وجدت اسرائيل نفسها بعد حرب الايام الستة فى حدود جديدة بل وأيضا فى وضع جديد تماما حيال العرب الفلسطينيين ، فقد أصبح حوالى مليون منهم تحت حكمها (هذ أكثر من خمس سنوات) منهم حوالى ستمائة ألف فى الضفة الغربية وحوالى اربعمائة ألف فى قطاع غزة ثلث هذا العدد من لاجئى حرب سنة ١٩٤٨ ومعظمهم فى قطاع غزة .

لم تقدم اسرائيل حتى اليوم لنفسها وللعرب وللعالم جوابا واضحا عن موقفها والحلول التى تقترحها بالنسبة لهؤلاء العرب الفلسطينيين او نصف الشعب الفلسطينى ولكن اسرائيل تولت معالجة قضية العرب الفلسطينيين بطريقة عملية ، فقد أقامت نظام الحكم العسكرى فى المناطق المحتلة ووضعت بواسطتهم طرق عمل مبتكرة ، واستخدمت مؤسسات الحكم البلدية والمدنية والقروية ، كما استخدمت اجهزة التعليم والصحة والشئون الاجتماعية وغيرها ، وتقدم اسرائيل الخدمات والارشادات والنصائح فى جميع مجالات الحياة من زراعة ومياه وكهرباء وتجارة وصناعة وأشغال عمومية ، وثقافة وبريد وقضاء وبوليس وما الى ذلك عن طريق الدواوين المختلفة . ووضعت اسرائيل طريقة الجسور المفتوحة على الاردن ، والتى أدت الى قيام علاقات تجارة ومواصلات وسياحة ومرور الاقارب والطلبة من الضفة الغربية للمملكة الاردنية ذهابا وايابا ، وكل هذا فى أوج حرب الاستنزاف والارهاب .

بعد حرب الايام الستة أخذ آلاف العمال من العرب الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة يدخلون اسرائيل يوميا للعمل فى البناء والزراعة والصناعة والخدمات ويمكننا القول ان اسرائيل بأكملها تعد الان من زاوية معينة مدرسة كبرى للتأهيل المهنى الرفيع بالتدريب والتأهيل بالعمل فى هذه المجالات او اكتساب حرف جديدة او رفع المستوى المهنى .

أثمرت هذه السياسة ، فأخذ مستوى معيشة العرب الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة فى الارتفاع بصورة مستمرة ، ونجد رخاء نسبيا فى الاراضى المحتلة (نسبيا فيما يتعلق باسرائيل ، ولكنه رخاء تام بالنسبة لما كان عليه الحال تحت حكم المصريين أو الاردنيين) وأصبحت الحياة اليومية هادئة ومحتملة ، ولم تعد

حياة الانسان معلقة فى كفة القدر فلا غرو ان وجدنا حتى بين العرب الفلسطينيين الذين يشعرون بانهم تحت نير الاحتلال تقديرا لهذه السياسة أحيانا يكون خفيا ، وأحيانا ظاهرا ، ولا شك على الاطلاق من ان وضع قاعدة مرتفعة لمستوى المعيشة وتعليم الحرف سيكون لهما أثرهما الكبير فى العلاقات المستقبلة التى تتشكل بين الشعبين .

لكن ماذا عن المسائل التى تسمو عن الخبز والتى قد يتساءلها العرب الفلسطينيين ولابد ان يسألوها مثل : ماذا سيكون عليه مستقبلهم ؟ أى الاختبارات القومية مفتوحة امامهم ؟ ماذا تريد منهم اسرائيل ؟ انه ليس لديهم ردود على هذه الاسئلة حتى الان ؟ والسبب ان اسرائيل لم تضع لنفسها ردودا على هذه الاسئلة ، لانه ليس لديها رد واحد لا للحكومة ولا للاحزاب ولا للشعب فى اسرائيل .

ان الاختلافات فى اسرائيل متعددة وبينة حيال مستقبل المناطق المحتلة ولا سيما بالضفة الغربية وقطاع غزة وحيال مستقبل سكانها الذين يبلغون مليونا من العرب الفلسطينيين .

اذا درسنا هذه المسألة من وجهة النظر الاسرائيلية فاننا نصادف نقطة حساسة وهى ان اسرائيل فى حرب الايام الستة قد احتلت (وفى رأى آخر حررت) مهد الوطن التاريخى للشعب اليهودى ، ففى العصور الغابرة كان اليهود يقيمون بصورة اساسية فى جبال الضفة الغربية ، وهناك ارتفعت قصور ملوكهم الشامخة فى الخليل والقدس والسامرة ، وعاش أنبياء اسرائيل الكبار فى بيتئيل وتكواع ، وعنتوت ، وقام ابطالهم من يهوشع الى يهوذا المكابى وبركوخبا بالدفاع عن هذه الجبال والتلال ، واذا بهذه المناطق تقع فى أيدينا ، فمن يستطيع ان يتجاهل او لا يدرك مشاعر اليهود العارمة لدى بلوغهم هذه المناطق بعد حرب دموية ، يبدو ان كل ماعلينا ان نفعله هو ان نقوم بأسرع مايمكن بتوطين هذه المناطق ، وان ننشىء فيها القرى والمدن اليهودية وان نضمها لدولة اسرائيل بصورة قاطعة وواضحة ، وان نجعل منها جزءا من اسرائيل وبهذا نتم العمل التاريخى باستعادة غرب ارض اسرائيل القديمة للشعب اليهودى .

ان من يفكر على هذا النحو وينادى بذلك ، فانه يجد ان مشكلة العرب الفلسطينيين — هذا الشعب الذى يعيش فى هذه المناطق بأعداد كبيرة — تعد مشكلة ثانوية بالنسبة لعملية تحرير هذه المناطق .

ونجد ان بيننا من يرى عن حق وصدق ان هذه المشكلة تحل بصورة أسهل اذا

ضمنا هذه المناطق المحتلة ليرى العرب الذين يعيشون فيها ان مصيرهم ومستقبلهم هو مصير أقلية قومية داخل دولة اسرائيل ، واذا فكر العرب على هذا النحو فانهم سوف يسلمون بمصيرهم ومستقبلهم هو مصير أقلية قومية داخل دولة اسرائيل ، واذا فكر العرب على هذا النحو فانهم سوف يسلمون بمصيرهم ، ويقبلون على مر الزمن من الرعوية الاسرائيلية وحقوق المواطن ، ويندمجون فى الحياة الاقتصادية والسياسية لاسرائيل وماذا يحدث اذا لم يسلموا بهذا ؟ ان الذين يريدون ضم الضفة الغربية يرون انه ليس امام العرب الا التسليم بهذا ، ومن لا يسلم يستطيع على مر الزمن الهجرة للأردن أو لاحدى الدول العربية ، وهم يرون انه على مر الزمن سوف تخلو هذه المناطق من العرب ولاسيما من الشباب الذين سيجدون لانفسهم موطنا فى الدول العربية الاخرى ، وتنحل المشكلة ، ويورث جيلنا الحالى لابنائنا دولة اسرائيل المتكاملة تاريخيا وعضويا .

لاشك ان هذه النغمات العميقة فيها صدق ، ولكننا نجد احيانا انه تتسلل بينها نغمات شاذة ومزيفة ، ونجد من يصرخ ويتهدد بان من يخالف هذا ومن لديه استعداد لان يعيد هذه المناطق او حتى جزء منها للعرب الفلسطينيين او للمملكة الاردنية (وبعبارة أخرى ان يتنازل عنها او ينسحب منها) ليس الا خائنا لوطنه وسافلا او انه يعصى التوراة والشريعة اليهودية ، ونجد بيننا مدرسة قومية دينية متطرفة وجدت الاسانيد على حقها فى كل شبر من أرض الضفة الغربية وجندت لمعونتها حاخاميين يحرصون فى صرامة على حكومة اسرائيل وبرلمانها ان يناقشا فى الوقت الحاضر او مستقبلا موضوع اعادة المناطق المحتلة او اتخاذ قرار فى ذلك .

هناك نقطة حساسة أخرى فى مسألة مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة هى مشكلة الامن : فقد عشنا تسع عشرة سنة فى الدولة بحدود عشوائية ملتوية وغير محتملة .. وكان العمود الفقرى لاسرائيل الذى تمتد على طوله مراكزنا العصبية ضيقا ورفيعا ، ولا يزيد فى بعض فقراته الحيوية على ١٥ كيلو مترا ، وكان طوال هذه السنين على مرمى مدافع الجيش الاردنى . فقد ظلت تل أبيب ومنطقة دان وحيفا على مرمى القناصة وحملة الرشاشات العرب ، وكان الممر الضيق المؤدى للعاصمة معرضا كالعمود الفقرى فى الوادى معرضا للبتر والقطع . وكان قطاع غزة سيفا مصلتا على الجنوب والنقب .

هانحن قد وصلنا الى نهر الاردن وأصبح الجيش الاسرائيلى يعسكر على طوله ، وأصبحنا نسيطر على هضاب الضفة الغربية ، وأصبح على من يبغى غزو حدودنا الان أن يصعد الينا فى أعالى الجبال التى نسيطر عليها ، لقد سددنا طرق الغزو والتسلل لاراضينا ، وأصبحت الحدود الان طبيعية أكثر وأقصر ، وأبعدنا الخطر عن عاصمتنا ومراكزنا السكنية ، وأصبحنا نعيش فى أمن ، فهل يخطر على بال احد ان ننسحب من هذه المواقع الاستراتيجية الممتازة ؟ اننا اذا انسحبنا سوف نكشف من جديد انفسنا ومستوطناتنا للمدافع ومدافع الكاتيوشا . ولن تعود حياتنا حياة ، وسنضطر فى المستقبل القريب أو البعيد ان نحتل - ومن يدرينا بأى ثمن - هذه المناطق الأمنة الحيوية . ويقولون : أرأيتم شعبا يريد الحياة يعيد أراضى حيوية لامنه ووجوده ؟ هل هناك مثال فى العالم كله لشعب يتنازل عن حدود ممتازة ويعود لوضع استراتيجى اقل وغير محتمل ؟ ألم تضم الدول الكبرى ويستولى بالقوة على المناطق الاستراتيجية التى احتلتها نتيجة حرب وقائية ؟ الم يضم الاتحاد السوفييتى من أجل أمنه مئات الآلاف من الكيلومترات المربعة وبها الملايين من أبناء الشعوب غير الروسية ، وهل اكتفى بهذا الضم ، ولم يحط نفسه بحزام وقائى من الدول التى يسيطر عليها الحكم العسكرى والاستراتيجى .؟ ألم يحط الامريكيون الولايات المتحدة بقواعد استراتيجية منها القريب ومنها مايبعد آلاف الكيلو مترات ؟ ألا يمتلئ تاريخ الانسانية بالنضال حول المناطق الحيوية ؟

ان من لايدرك هذه المشاعر والادعاءات - القومية الدينية والأمنية - حيال الضفة الغربية لايدرك على الاطلاق اسرائيل المعاصرة ، ولا يستطيع ان يدافع عن اسرائيل - اذا كانت له آراء ومواقف مخالفة - ويجب على كل من له موقف مبدئى مخالف ان يدرك ويشعر بأن عليه ان يعرض موقفا يأخذ فى اعتباره هذه المشاعر العميقة. وكما انه حاشا لنا ان نصل الى وضع نصم فيه كل من لا يفكرون بأسلوب عدم التنازل عن شبر واحد بوصمة الخونة كذلك يتحتم علينا الا نصم دون تمييز بوصمة القوميين المتطرفين والاندماجيين كل من يرون انه حاشا لنا ان نتنازل وأن نعيد أراضى من الضفة الغربية.

شعبان - دولتان

ان الطريق التى يجب على اسرائيل ان تسلكها هى ان تعلن مبدئيا عن استعدادها أن تعيد (اعادة وليس انسحابا لان هناك فارقا كبيرا بين هاتين

المفرد تين) للعرب الفلسطينيين معظم مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة بغرض ان يقيموا فيها وفى أراض الضفة الشرقية دولة مستقلة وذات سيادة خاصة بهم .

ان على من يرى هذا الاتجاه ان يجيب على بعض الاسئلة الاساسية وان يشرح موقفه سواء فى المجال القومى التاريخى او فى مجال الامن وكذلك كيف ومتى وفى اى الظروف يتحول هذا الاسلوب الى حل قابل للتنفيذ .

اما عن مشكلة الحقوق التاريخية فى فلسطين المتكاملة ، فقد سبق ان قلنا ان لليهود حقوقا تاريخية كاملة فى فلسطين المتكاملة (حقوقا ليس لها نظير لدى الشعوب الاخرى التى أقامت مئات وآلاف السنين فى أراضيها ودولها) .

ان فلسطين التاريخية المتكاملة كانت ملكا للاسباط الاثنى عشر وبصورة عامة المناطق التى تطابق مناطق الانتداب الذى منح لبريطانيا اى الضفة الغربية (فلسطين الانتداب) وشرق الاردن ، وكانت دان تقيم فى المنطقة الواقعة بين البحر والصحراء على سفوح جبل حرمون حتى أملاك شمعون فى النقب وكانت املاك رؤوبين وجاد ومنشى فى شرق الاردن حتى املاك زبولون . أما ممتلكات أشير ويهودا فتمتد الى البحر المتوسط . وفى هذه الاراضى ولد شعبنا وعاش . وليس لليهود اى حقوق قومية تاريخية فى اى منطقة أخرى من العالم بالرغم من ان أبناء الشعب اليهودى منتشرون فى انحاء العالم أجمع وأعطوا من قوتهم ومواهبهم ونشاطهم وذكائهم لاحياء واقامة وبناء عشرات الدول ، ولكن فى هذه المناطق فى هذا الجزء الصغير من الأرض الذى يبلغ حوالى خمسين ألف كيلو متر مربعا لنا كامل الحقوق التاريخية والقومية ، وظل اليهود يحلمون بهذا الجزء من الارض والعودة اليه منذ نفوا منه ، وعلى أساس هذه الحقوق التاريخية واصلنا العمل الصهيونى طوال السنوات المائة الاخيرة ، وهذا أيضا حق عظيم .

من نحن لنستأثر بهذه البلاد دون الآخرين ؟ !

ولكن هنا ، فى هذه المناطق — وضمن حدود هذه الارض الضيقة جدا على وجه المعمورة التى تبلغ نحوا من خمسين الف كيلو متر مربع — توجد لنا حقوق تاريخية ووطنية كاملة . بهذه القطعة الضيقة من الارض وبالعودة اليها حلم اليهود ثمانين جيلا منذ ان أجلوا عنها . وعلى أساس هذه الحقوق التاريخية اضفنا طوال المائة سنة الاخيرة ملكانا من العمل الصهيونى . وهذا أيضا حق كبير .

ولكن ثمة شيئا آخر يجب ان يقال : على هذه الارض الضيقة ، من البحر وحتى الصحراء ، على هذه الارض بالذات ، وعلى سطح هذه الكيلو مترات المربعة بالذات ، وعلى نفس تلك الجبال والبقاع والانهر والغدران وفى نفس تلك المدن القديمة وعلى تلك الهضاب تقوم حقوق تاريخية وطنية أيضا للعرب الفلسطينيين الذين يعيشون فيها . وهل ثمة من يستطيع ان يكذب نفسه فيدعى ان هؤلاء العرب ، مواليد هذه الارض الضيقة هم مجرد ضيوف عارضين نصبوا خيامهم للمبيت فقط .. ؟!

ان هؤلاء الضيوف العارضين يقيمون هنا منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، وهل من المهم انهم جاؤوا هنا كمحليين ، أو لم نأت فى بداية استيطاننا فى البلاد كمحتلين ؟ أفليس سفر يشوع . القضاة وسفر صموئيل ، الملوك ، قصص احتلال واستيطان ارض اسرائيل الى جانب أمور أخرى ؟

اننا جميعا ندعى وبحق ، ان مجرد احتلالنا ليس هو الذى منحنا الحق التاريخى والوطنى فى هذه البلاد وان الاحتلال لم يكن سوى الاساس الذى شيدنا عليه حياة شعب وثقافة ودينا على أروع ماتكون الوراثة ، واننا بفضل ما أقمنا وشيدنا ندعى حقا تاريخيا فى هذه البلاد .

ومن ذلك فثمة بيننا من يدعى بأن العرب لم يتركوا فى هذه البلاد اى طابع ثقافى او دينى او غيره ، وفضلا عن ذلك وعلى أساس هذا الادعاء فان العرب احلوا الخراب فى البلاد ، واقتلعوا اشجارها فأقفرت ، اذ لم يكونوا أبناء صحراء ، فانقلبت الارض المزدهرة الى قفر يباب ، وأصبحت موحشة جرداء ، ولذلك فليس لهم حق فيها . ان هذا هو نصف الحقيقة وهذا أسوأ من الكذب . ولكى نريح ضمائرنا لا يجوز لنا ان نخدع أنفسنا فى هذا الموضوع . صحيح ان ارض اسرائيل تحت حكم العرب لم تكن مركزا للامبراطورية العربية الكبرى ولا مركزا دينيا ولا مركزا ثقافيا ، ولكن من هنا والى مرتبة الشمول بانهم لم يتركوا فى البلاد تراثا ثقافيا غنيا فان المسافة بعيدة ، فهل غشيت ابصارنا ام اننا سذج ؟ الا تكفى آلاف بل عشرات الالاف من القبور القديمة المنتشرة على سطح الارض لكى تثبت بان العرب عاشوا حياة واقاموا حضارة خاصة بهم .

وماذا نقول عن عشرات المدن ومئات القرى العربية التى قام جانب منها على انقاض قرى ومدن قديمة وقام الجانب الاخر منها على أيدى العرب ؟

فهل المساجد الرائعة — على بيت المقدس ومئات المساجد الاخرى — ليست

العرب هنا مؤسسات ثقافية وقصورا وحمامات وطرقا وجسورا وقنوات ، الم يتركوا ألف دليل ودليل تشهد كلها على ما أنتجوا وأبدعوا هنا ؟ الم ينشئ انتاجا عربيا عظيما ؟

ولنفترض لحظة ان هذا الانتاج العربى لم يكن عظيما ، فمن نحن حتى نحكم فيما هو عظيم وفيما هو ضئيل فى التاريخ ؟ الم يكن انتاجنا الثقافى الوطنى والدينى الذى لم يتميز مرة بالخلود ، الم يكن هذا الانتاج فى أعين اليونانيين والرومان والبيزنطيين شيئا صغيرا لا أهمية له ؟

اما الخراب الذى وجدنا آثاره فى البلاد عندما بدأنا قبل مائة عام العودة اليها — فهل مثل هذا الخطأ لاصق بجبين عرب البلاد فقط ؟ أفلم تزخر التوراة بقصص لا حصر لها حول الخراب الذى حل بالبلاد فى الزمن القديم الذى كنا نحن فيه أسيادا فى البلاد ؟ أفلم يدمر الاشوريون والبابليون والروم وغيرهم البلاد ؟ أو لم نخرب نحن انفسنا بلادنا بحروب بين قبيلة وقبيلة وملك وملك ؟ ألم تنتقص جميع الفظائع التى لم تخفها التوراة عنا ، او هى لا تنتقص من حقنا التاريخى والوطنى فى هذه البلاد الضيقة .

لا نتجاهل حقائق التاريخ

ان الواجب يقتضينا ان نعامل العرب بنفس المقاييس ، فلا نتجاهل حقائق التاريخ لقد وجدنا البلاد قليلة من السكان وخربة جرداء ، ولكن من هم الذين تسببوا فى وضعها البائس هذا ؟ هل المسؤولية كلها تقع على عاتق العرب المحليين ؟ الم تكن هذه البلاد غنيمة تهافتت عليها سلالات ملكية عربية متنافسة وجدت فيها معبرا من الشمال والجنوب للحملات الحربية الامبريالية ؟ فلماذا نشكو العرب المحليين وما مسؤوليتهم التاريخية فى ذلك ؟

أفلم تخرب البلاد — مرة بعد اخرى — على أيدى السلجوقيين البرابرة والصليبيين المحاربين والمماليك والمغول ، وعلى أيدى جيوش تيمورلنك ؟ وأخيرا الم يكن الاتراك العثمانيون الذين حكموا البلاد طوال الاربعمائة عام الاخيرة ، من بين العوامل ، او العامل الرئيسى لدمار هذه البلاد وخرابها ؟

صحيح ان العرب المحليين والبدو كان لهم ضلع فى خراب البلاد ولكن ما حقنا فى ان نقدم لهم حسابا تاريخيا طويلا ونقول " لذلك ليس لكم حق فى هذه البلاد " . ان كل ما يمكننا ان نقوله ، ودون رياء او ورع هو : حيث اننا — ومن خلال اسباب

تاريخية — وجدنا هنا ، قبل مائة سنة ، بلادا يكاد نصفها ان يكون خرابا يبابا ، وكان سكانها قليلين جدا ، وحيث ان هذه البلاد كانت مرة ، عندما كنا نقيم فيها ملأى بالبشر وبلغ عدد سكانها خمسة ملايين وحيث اننا عائدون اليها ونريد ان نقيمها ونعيدها الى ماكانت عليه فى أيام عظمتها ، فان فى هذه الارض ، من البحر وحتى الصحراء ، فى مواطن الاثنى عشر سبطا ، مكانا لنا ومكانا لكم ، ومكانا لدولة لنا ومكانا لدولة لكم .

ان هذا هو الحد الادنى وكذلك الحد الاقصى الذى نستطيع ، والذى نحن ملزمون ان نقوله . فلو كنا عند قدومنا الى بلاد اسرائيل قبل مائة عام قد وجدناها مكتظة بسكان متقدمين نسبيا ، وذوى وعى وطنى عميق ، فمن المشكوك فيه ان نكون قد استطعنا تنفيذ المشروع الصهيونى .

وهذا سبب آخر لما يجب ان نبديه من تواضع فى مسألة الحقوق الوطنية والتاريخية واحقاق هذه الحقوق .

وفى الواقع ومنذ البداية كان موقف افاضل زعماء المشروع الصهيونى ازاء عرب البلاد ، شبيها بموقف ابراهيم عليه السلام من لوط :

" لا تكن مخاصمة بينى وبينك وبين رعاتى ورعاتك ، لاننا نحن اخوان . أليست كل الارض امامك ؟ اعتزل عنى — ان ذهبت شمالا ذهبت يمينا وان يمينا فأنا الى الشمال " .

منذ الثلاثينات أخذ زعماؤنا يقولون لزعماء العرب : هيا نقسم البلد بلدين نقيم نحن دولة يهودية فى قسم منهما ، وتقيمون انتم دولة عربية فلسطينية فى القسم الثانى ، فكان زعماء العرب الفلسطينيون يردون بقولهم : " ان هذا لن يكون أبدا ! ان لنا كافة الحقوق فى هذه الارض ، فنحن أصحابها ، وليس لكم فيها شبر واحد ، انه مقضى عليكم بالالقاء بحرا " .

وعشية حرب ١٩٤٨ قلنا للعرب مرة اخرى : هاهى الامم المتحدة قد قررت تقسيم البلاد ، فهيا نقسمها طبقا لهذا القرار ونعيش فى سلام كدولتين الواحدة بجانب الاخرى ، ورد العرب مرة اخرى بقولهم كلا ، ليس لكم حقوق فى هذه البلاد ، اننا سوف ننقض عليكم ، ونلقيكم بحرا بمعونة الدول العربية .

لقد دفعنا ثمنا غاليا من دمائنا بسبب عناد العرب الفلسطينيين ولكنهم

الى التخوم التى شقها السيف فى سنة ١٩٤٨ ، دفعوا ثمنا أفدح ، وقامت دولة اسرائيل فى التخوم التى شقها السيف فى سنة ١٩٤٨ ، ولم يستطع العرب الفلسطينيون اقامة دولة خاصة بهم ، لا فى البلاد كلها ولا فى جزء منها ، وشرد الكثيرون منهم ، وسيطرت دولتان عربيتان هما مصر والمملكة الاردنية الهاشمية على أجزاء من هذه الدولة فى حين انه ليس لهما اى حق فى تلك الاراضى ، وبعد قيام دولة اسرائيل عدنا وقلنا للعرب : لقد وقعت حرب وسقط فيها قتلى كثيرون وقامت دولة اسرائيل ، ولم نكن نبغى ان تقوم على هذا النحو ، ولكن هذا ماكان ولقد قتلتم منا الكثيرون طوال ثمانين عاما وفى سنة ١٩٤٨ انقضضتم علينا لابادتنا ، ولم تشفقوا علينا ، وحاربتم بقية شعب مشرد والناجين من الحرب العالمية ومن كارثة النازية ، الذين لجئوا الى هذه البلاد ، وفى نهاية الحرب لم تتركوا فى اسرائيل بيتا لايبكى شهداؤه . اننا ندرك جسامة النكبة التى حلت بكم ، والآن هيا نتصالح ، ونلتزم نحن بدفع تعويضات للاجئين منكم (لن نعيدهم للبلاد ، حتى لاينقض علينا هؤلاء اللاجئون ويلقون بنا الى البحر) ونلتزم بان نكتفى بحدودنا هذه للابد ولا نتوسع فيما وراءها ، ان حدود دولة اسرائيل هذه ليست حدود أرض اسرائيل المتكاملة التاريخية ، ونحن نذكر وسنظل نذكر ان لنا حقوقا فى الاجزاء الأخرى من ممتلكات الاسباط الاثنى عشر ، ولا نتنازل عن هذه الحقوق لانه حاشا لنا ان نفعل هذا ، وسوف نطالب بحق زيارة اماكننا التاريخية التى فى أيديكم والصلاة فيها ولكنا سوف نتنازل بصورة قاطعة عن تحقيق هذه الحقوق بشرط ان تعقدوا معنا سلاما ، واننا سندرك ان لكم ايضا حقوقا فى اسرائيل ، ولكنا نريد منكم قدرا مماثلا من التنازل عن حقوقكم .

كانت هذه نظرية اسرائيل من سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٧ ، ولم يستجب لها العرب ، ويجب ان نعود لها مرة أخرى ، ولن يقوم لنا سلام ولن يقوم للعرب الفلسطينيين سلام طالما لم يتنازل كل جانب عن تحقيق جزء من حقوقه التاريخية القومية فى هذه الارض .

علينا ان نكرر المبدأ وكلام الحق الذى قلناه حتى حرب الايام الستة : ان هناك مجالا بين البحر وبين الصحراء من املاك الاسباط الاثنى عشر لدولة اسرائيل ولدولة عربية فلسطينية ، فاننا نتنازل عن تحقيق جزء من حقوقنا التاريخية فى هذه الارض ، مقابل السلام ، واذا كنا نؤمن جميعا بان لنا حقوقا تاريخية قومية ايضا فى شرق الاردن فعلينا بالتأكيد ان نكرر استعدادنا بالتنازل عن تحقيقها مقابل السلام وحتى يسألونا ومن حق : هل نحن على استعداد للتنازل عن تحقيق اى حقوق ام ان امانينا الحقة ليست ان تضم اسرائيل الضفة الغربية وقطاع غزة فحسب ، بل تضم أيضا مناطق من شرق الاردن عندما يحين الوقت .

اننا يجب علينا ان نخبر انفسنا والحرب والعالم اجمع برغبتنا وباسرائيل التى نتطلع اليها .

اعلان مبادئ

هناك من يتساءلون لماذا كل هذه الفكرية حول المبادئ المجردة للحقوق التاريخية القومية لنا وللعرب الفلسطينيين فى هذه البلاد ؟ أليس من الافضل ألا نوقظ الكلاب النائمة ؟ فسواء كانت الامور على هذا النحو او ذاك فاننا لانجد بين العرب الفلسطينيين من يمكن ان نجرى معه محادثات ، فان من لديهم الاستعداد لاجراء محادثات يخافون ، وهؤلاء الذين يتحدثون يدعون حقهم فى البلاد بأجمعها دون ان يتنازلوا عن شبر واحد ، ويقولون لماذا نكشف انفسنا ؟ لماذا نثير جدلا وخصومة داخلية ؟ وعندما نجد من نتحدث ، ومن الخير ان نسكت حتى ذلك الحين .

اننا اذا اتبعنا هذا الاسلوب نرتكب خطأ جسيما ، اننا يجب علينا ان نتكلم من أجل انفسنا ومن أجل العرب ومن أجل العالم أجمع ان نعلن مبدئيا ماذا نريد حتى يقوم مشروعنا على المبادئ ، ثم تعقبها الاعمال .

يجب علينا معشر اليهود ان نبدأ الكلام مبدئيا فى هذا الموضوع لاننا الظافرون وليس العرب الفلسطينيين ، ولان معظم الاراضى فى أيدينا الان ، ونحن الاقوياء وليسوا هم ، ولاننا نستطيع ان نتباهى وان نتحدث عن المبادئ .

اما عن الادعاء بانه ليس هناك من نجرى معه محادثات ، فانه يمكن الرد على ذلك بانه لا ينبرى لنا من نتحدث معه لاننا لا نصرح بكلام مبدئى واضح عن مشكلة العرب الفلسطينيين وحقوقنا التاريخية القومية وحقوقهم ، ونحيط موضوع مستقبل مناطق الضفة الغربية بالغموض ، ولو اننا اخذنا نتحدث عن المبادئ أولا فيما بيننا ، لاثار ذلك الكلام بين العرب بعضهم البعض فى البداية ، ثم الكلام معنا فيما بعد .

ان الحركة الصهيونية كانت ولا زالت حركة ايديولوجية فى اساسها ، وان كنا برجماسيين فى اسلوبنا ، لم نتمسك بالمثل المجردة وحدها ، ولا انتظرنا نزول المسيح المنتظر لتحقيقها ، ولكن اساس مشروعنا كان المبادئ . ان مثل هذه الحركة اذا لم تضع لنفسها مبادئ مناسبة تحيط نفسها بالريب والشكوك فى نواياها ،

واذا لم نرد الان على الاسئلة المبدئية من ناحية وظللنا برجماسيين نحقق واقعا جديدا فى الضفة الغربية بالاستيطان من ناحية أخرى ، فلا غروا اذا أثرنا الريب ولا غـرو اذا قال العرب الفلسطينيون لانفسهم ليس هناك من نجرى معه محادثات .

ان البرجماسيين الذين يرون ان علينا الا نتورط فى مبادىء وايديولوجيات ينادون بان ندع الزمن يعمل عمله ، فماذا يريد منا العرب ؟ ان العرب الفلسطينيين الذين يقيمون فى المناطق المحتلة فى أحسن حال الان ، فقد امتلأت جيوبهم بالمال ، وامتلأت بطونهم يخرجون كل صباح من ديارهم فرحين يتغنون وينتقلون للعمل فى حقولنا ومبانينا ومصانعنا ثم يعودون كل مساء الى ديارهم فى المناطق المحتلة سعداء جذلين ، وارتفع مستوى معيشتهم ، فماذا اصابهم من سوء ؟ ونسمع هنا وهناك الادعاء بأن العرب الفلسطينيين احسن حالا من عرب الدول الاخرى . فانظر كيف يتنازع الاخرون فيما بينهم ويقاتل الواحد الآخر ويقتل بعضهم بعضا ، ولا يطورون دولهم ، فى حين ان العرب الفلسطينيين يعيشون فى راحة وهدوء تحت الكرم وأشجار التين .

ان هذا الكلام له وقع نطبع يذكرنا بما نسيناه من ماضينا فى المنفى (حين كانت الشعوب الاخرى تقول عنا ان هؤلاء اليهود فى أحسن حال . فماذا يريدون ؟) لقد كنا نسمع هذا الكلام فى دول لانريد الحياة فيها ولا للحظة واحدة ، كما ان هـذا الادعاء لايرفع مكانة العمل الممتاز الذى قمنا به فى المناطق المحتلة ، بل يخفضها واذا فخرنا – ومن حق – بعمل اسرائيل فى المناطق المحتلة ، فان هـذا الفخر ليس له الا مبرر واحد ، وهو ان عملنا هذا موقت وان اساسه ترك الاختيارات مفتوحة فى المستقبل لسكان المناطق المحتلة والاستعداد لتنازلات وللتراضى والاعتراف المبدئى بالحقوق القومية التاريخية لسكان المناطق المحتلة ، وعلى هذا الاساس وحده يمكن ان نبرر عملنا فى المناطق المحتلة اليوم والاستمرار فيها مستقبلا ، والا أثار عملنا مع سكان المناطق المحتلة الريب ، وأوا اننا نكيد لهم ونتظاهر بالحرص على خيرهم .

فى حين اننا اذا تركنا اختيارات قومية مفتوحة للعرب الفلسطينيين ، واذا تحدثنا عن مبادىء للشعبين والدولتين فان اى عمل ايجابى منا فى المناطق المحتلة ينطوى على أمل فى مستقبل أفضل ، وأى عمل لعمال المناطق المحتلة فى مصانع اسرائيل يأخذ شكل التأهيل المهنى للمستقبل عندما تقام فى دولتهم مصانع مماثلة ، وأى تدريب فى الزراعة والصحة والتعليم الغاية منه استغلاله عندما يحين اليوم وتستخدم هـذه

الاساليب فى دولهم ذات السيادة ، وأى طريق ، وأى وصلة كهربائية وأى محطة مياه معناه عصرية الدولة العربية المستقبلة ذات السيادة .

واذا لم نتحدث عن المبادىء ، فان اى عمل نقوم به فى المناطق المحتلة لا يفهم العرب معناه ، بل الاسوأ من هذا انه يفسر على انه جزء من خطة يهودية لضم هذه المناطق تنفذ بايجاد امر واقع وأى طريق يشق يعد امرا واقعا ، وأى توصيل كهربى يعد امرا واقعا ، ولا نستطيع بهذه الاعمال دون مبادىء ان نقول للعرب الفلسطينيين وللعالم : انظروا اننا قمنا بأعمال جيدة ، فان العالم قد رأى اعمال التنمية التى قام بها المنتصرون فى الاراضى التى احتلوها ، ولم يعجب بها ، كما انه دون مبادىء يعد عمل عرب المناطق المحتلة فى اسرائيل نوعا من استغلال القوى العاملة الرخيصة لاناس يختلفون عنا عنصريا وقوميا ، وتلقى اللائمة عن هذه الظاهرة على دولة اسرائيل وليس على اصحاب الاعمال الاسرائيليين ولا العمال العرب ذوى الاجر الرخيص .

الامن والديموجرافيا

ان هناك مشاكل لاتقل تعقيدا عن المشكلة التقليدية الاخلاقية التى بدأنا مناقشتها ولا سيما من الناحية الايديولوجية ، وهى مشكلة امن مناطق الضفة الغربية وكذلك المشكلة الديموجرافية ، التى ليست فى الظاهر مشكلة امن ، ولكن لها تأثيرات أمنية واقتصادية واجتماعية على مستقبلنا ومستقبل العرب الفلسطينيين على السواء ، ونجد لدينا جماعة على استعداد لتنازلات واعادة تقسيم الضفة الغربية بسبب فظاعة المشكلة الديموجرافية على حين تبدو المشكلة الاخلاقية فى نظر هذه الجماعة مسألة تجريدية ، كما انه لولا ظل الشيطان الديموجرافى الذى يطاردنا لاتخذنا موقفا ايديولوجيا ومبدئيا . ان المشكلة الديموجرافية قائمة – شئنا ام لم نشأ وتسجلها الاحصائيات الاولية : وعلى من يرغب فى آن يضم لاسرائيل مليون عربى يقيمون فى الضفة الغربية وقطاع غزة (ولا يعتقد فى أنهم سيهربون او يتحللون) ان يدرك انه لن يضمن لنا اغلبية يهودية فى الجيل القادم فى أرض اسرائيل المتكاملة الا هجرة يهودية مستمرة للبلاد من عشرات الآلاف من اليهود ، ودون هذه الهجرة يؤدى ضم هذه المناطق الى ان يصبح العرب خلال عقدين او ثلاثة عقود من السنين حوالى نصف السكان نتيجة زيادة التناسل ، وتصبح دولة اسرائيل دولة ثنائية القومية نصفها

من اليهود ونصفها من العرب .

ويمكن ان نتعزى ونقول ان الهجرة اليهودية ستكون أكبر من هذا بكثير ، وان من يلوح لنا بشيطان الديموجرافية قليل الايمان ، فانه عندما وفد اجدادنا الى هنا كان اليهود يشكلون ٥ % من مجموع السكان ، والايمان وحده هو الذى جعلهم يأملون فى تحقيق حلمهم الكبير وهو انشاء دولة يهودية . ولاشك ان رجال جيل المؤسسين كان ايمانهم كبيرا ولكنا جيل الابناء والاحفاد تعيش فى دولة يهودية بحتة ، ويجب علينا ان نحافظ على يهودية هذه الدولة فى المستقبل .

اننا نؤمن بالهجرة الضخمة وحشد معظم الشعب اليهودى فى اسرائيل ولكن لاستيعاب ملايين آخرين من اليهود علينا ان نعد لهم ولانفسنا دولة ومجتمعا يهوديين تماما لهما هدف مشترك .

ان من يريد ان يضم ، بصورة او بأخرى ، الضفة الغربية وقطاع غزة لدولة اسرائيل يجب عليه ان يقدم لنفسه تقريرا مفصلا وحقيقيا عن المسألة الديموجرافية ، ويخشى ان يكون لدى البعض ميل للخديعة اى ان يضم سكان الضفة الغربية وقطاع غزة للدولة دون منحهم الحقوق الكاملة للمواطن ، وهنا تكمن لنا هاوية سحيقة ، فاننا من أجل هدف صهيونى اسمى قد نكرس وسائل هائلة لانستطيع ان نصمد لها ادبيا ونفسيا ، واذا صمدنا سوف يشوهون شخصيتنا وصورتنا ايما تشويه ، وخلاصة الكلام هى ان المشكلة الديموجرافية تقوى الموقف المبدئى بانه فى هذه البلاد يجب ان تقوم دولتان لشعبين . اما عن مشكلة الامن ، فانه اذا ظهر لنا اليوم شريك عربى يوافق على مبدأ اعادة تقسيم البلاد مع تنازلات متبادلة بشأن تحقيق الحقوق التاريخية واذا كان هذا الشريك (المملكة الاردنية ، بشرط ان يكون لها الصلاحيات لان تمثل العرب الفلسطينيين ، او العرب الفلسطينيين فى المناطق المحتلة او الفريقين معا او اى مجموعة منهما) على استعداد لاجراء محادثات معنا حول الحدود المستقبلة للدولتين وان يوقع معنا معاهدة سلام ، ويرى فى هذا نهاية للنزاع الدموى بيننا وبين العرب الفلسطينيين لظلت مشكلة الامن قائمة ، ان قيام دولة عربية فلسطينية تمتد بصورة عامة فى شرق الاردن والضفة الغربية وقطاع غزة يتطلب بالاضافة الى التنازل عن تحقيق حقوقنا التاريخية واعادة مناطق يتطلب ايضا ضمان كيفية المحافظة على امننا بعد اعادتها ، اننا مستعدون ، واننا على استعداد ان ندفع هذا الثمن مقابل السلام مع العرب الفلسطينيين ، وهذا الثمن فادح لم يطلب مثله فى تاريخ تسوية

المنازعات ، ونحن على استعداد للعودة لحدود مماثلة تقريبا للحدود التى سبقت حرب الايام الستة ، ولكن حتى هؤلاء الذين لديهم الاستعداد لذلك ليسوا مستعدين لاعادتها دون امن ودون ان نضمن نحن انفسنا هذا الامن ، والا تتحول هذه المناطق المردودة مرة أخرى عاجلا او آجلا لقواعد ونقط انطلاق لاستئناف الحرب وتجدد التهديد بابادتنا ، ولن تزيل المعاهدة الملزمة من قلوبنا الشك والخوف من جولة قادمة . ونخشى ان تتحول معاهدة السلام مع العرب الفلسطينيين لقصاصة ورق ، وأن تكون مجرد تمويه لتغطية الرغبة فى الانقضاض علينا مرة أخرى وابادتنا . اننا نخشى ان الشريك العربى الفلسطينى الاردنى الذى يوقع معاهدة السلام معنا ، ويتم هذا العمل التاريخى العظيم وهو الصلح الكبير . يسقط هو نفسه ضحية القوميين المتطرفين الذين يعلنون عدم وجود الاتفاق ، وانه لاغ ، وأن الدولة العربية الفلسطينية الجديدة ترى هدفها احتلال دولة اسرائيل .

وما النتيجة ؟ بدلا من السلام والتعاون الاقتصادى والسوق الاسرائيلية — الفلسطينية المشتركة قد نواجه جيوش تلك الدولة العربية الفلسطينية والادهى من هذا قد نواجه جيوشا عربية او جيوشا اجنبية من خارج المنطقة تلبى نداء هذه الدولة وتسير لمعونتها وتعسكر فيها وتهدد من جديد ببتر دولة اسرائيل وقطعها ، ونعود كلنا مرة نحن ومستوطناتنا على مرمى المدفعية ومدافع الكتيوشا ، وتحت رحمة القناصة من داخل هذه الدولة التى نجد مبدئيا انه من العدل ان تقوم : اننا يجب علينا ان نحاول ان نجد حلا لهذه المشكلة التى حتى اذا لم يعجب العرب الفلسطينيون عندما يأتون فى المستقبل لاجراء مفاوضات لعقد سلام واقامة دولتهم يمكن ان نستسيغه ويمنحنا الامن ، لاننا برغبتنا فى اقرار عدل تاريخى للشعب المجاور لم نجلب على انفسنا الفناء بأيدينا .

ان هذا الحل يجب الا يكون عاديا بل مرنا ، والامر يتوقف على متى نصل لمفاوضات مع العرب الفلسطينيين ، ومن سوف يمثلهم وهل سيكونون من رجال الملكية او جمهوريين ، وهل ستكون التسويات مع عرب فلسطين قبل التسويات مع الدول العربية الاخرى او معها او بعدها ، والامر يتوقف أيضا على الموقف العام فى المنطقة وعلى العلاقات بين الدولتين العظميين فى ذلك الحين . ويجب ان نشير فى هذا الصدد الى ان امكان حل مشكلة اسرائيل وعرب فلسطين بتقسيم البلاد ليس معناه تقسيم البلاد لاكثر من قسمين اى انه لا يقصد به اقامة دولتين منفصلتين دولة فلسطينية فى المناطق المحتلة من ناحية ، والمملكة الاردنية من ناحية أخرى بل

الفلسطينيين ، ولن يتم اتفاق سلام مع المملكة الاردنية دولة عربية واحدة تشمل معظم حل المشكلة العربية الفلسطينية ، اما مسألة شكل الحكم فانه لم يكن تشكل ويحصل على حل في هذه الدولة ـ كالوحدة او الكونفدرالية او الفيدرالية او الى الارتباط بينهم فهو من شأن العرب انفسهم.

ولما كان الحل باقامة دولة عربية فلسطينية في الضفة الغربية مع ضم قطاع غــزة اليها السبيل لاسرائيل وأمن لها على المدى القصير ، ولكن اقامة هذه الدولة لـن يحل المشكلة العربية الفلسطينية ، لان حوالي نصف عرب فلسطين موجود خارجهـا ، لما في شرق الاردن ، وهنا الشعب الفلسطيني قسمين لن يجد في هذا حــلا طاقيا للمشكلة ان دولة الضفة الغربية ستكون جيبا أكثر منها دولة ولن تكون لديها الامكانات الكافية لاصلاح احوال اللاجئين ، على حين أن الدولة العربية الفلسطينية التي تضم في تخومها شرق الاردن بالاضافة الضفة الغربية وقطاع غزة سيكون لها منفذ على البحرين الابيض والاحمر ، (سيكون بها غزة بها كما على البحر الابيض وسوف تتيح لها اسرائيل حرية اوار السلع في اراضيها وحرية التنقل خلالها).

ستكون مساحة هذه الدولة عندما تقوم مستقبلا أكبر من مساحة اسرائيـل ، وسيكون التشابه كبيرا بين الدولتين من ناحية الغلات الطبيعية (البحر الميت) ومصادر المياه ، والارض الصالحة للاستصلاح والارض اللازمة لتنمية المدن والتنمية الزراعية وما الى ذلك ، ان هذه الدولة تشكل حلا لمشكلة عرب فلسطين ، وبها يستطيعـون ان يعبروا عن شخصيتهم القومية ، وان يجعلوا دولتهم دولة عربية ناهضة في الشـرق الاوسط ذات امكانيات تكنولوجية ، لذلك يجب ان تخضع لهذه الدولة التي ستنشـأ بوافقنا قيودا معينة وقيدة تتمشى مع مشكلة امن اسرائيل ، وسيكون احد هذه القيـود الا تجتاز قوات الجيش العربي غربي خط معين (خط الاردن بينه وخطا منطقيـا) ويفصل قطاع غزة عن مصر ، ولا يوضع فيه ايضا قوات عسكرية.

يجب ضمان نزع سلاح الضفة الغربية لا بمجرد اتفاقيات مكتوبة بل بضمانـات فعلية ، واحسن الضمانات هي اشراف اسرائيل ، او الاشراف المشترك للدولتيـن ويمكن ان يتم من قواعد او بدوريات مشتركة على الخط الذي يرسم في الضفة الغربيـة ، وبشكل مماثل في القطاع أيضا ويمكن تحديد فترة استخدام هذه القواعد او الدوريـات المشتركة بعشر سنوات او بعشرين حتى لا تنال من سيادة الدولة العربية الفلسطينيـة في الوقت نفسه تمنح الامن لاسرائيل ، وذلك على ان تقوم العلاقات الطبيعية بـين

الدولتين بصورة سريعة ، وتصبح مسألة القواعد في نهاية هذه الفترة محل مفاوضات حتى يأتي اليوم الذي يرى فيه الطرفان ان هذه القواعد حققت عهدها ولا داعي لها . وفي هذا الصدد يجدر ان نتحدث عن الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية وقطاع غزة والذي يقصد منه اثبات حق الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية ، وتكثيف الشبكة الدفاعية وحشود القتال ضد حركة حرب العصابات العربية الفلسطينية.

هل نحن عرب اسرائيليون فليكن عندهم اسرائيليون عرب !

ان ثمة بيننا من يريد ان يرى في مشروعات الاسكان واقامة القرى والمدن وسيلة لفرض الامر الواقع النهائي ، اذ ان كل مكان نسكنه نحن ما مقيم يهودي يجب ان يكون لنا الى الابد ، وفي رأيهم ، انه مادام ان جميع هذه الاماكن ستكون ـ ان عاجلا او آجلا لدولة اسرائيل لذلك فان لا خيار للعرب الفلسطينيين بالنسبة الى هذه المناطق.

فمن وجهة نظر هؤلاء الذين يريدون ان يروا مشروعات الاسكان استمرارا لاسلوب "دونم آخر فموقع آخر" ، وهو الاسلوب الذي نجح معنا طوال عشرات السنين وحتى قيام الدولة ، فالمسألة كما تبدو بسيطة غاية البساطة نزيد من قرى الاسكان اليهودية في المناطق ، ونزيد من صنع الامر الواقع ، والامر الواقع يتحدث عن نفسه ولا يحتاج الى تفسير ، وعندما يحين الوقت للتحدث عن الضفة والقطاع ، فلا يكون قد بقي ما يمكن التحدث عنه .

ان هذا التيار من التفكير ـ تيار "تعالوا نتحدث لنرى" كان من أسس ذلك الاسلوب الذي أثبت جدواه عندما كنا دولة في الطريق ولكنه لم يعد مناسبا لدولة . ان هذا الاسلوب "يوشم" سياسيا مسألة الاسكان ولا يقربها بل يتوسط ، مما يؤدي الى اقتناع العرب الفلسطينيين بأننا نقضي شيئا فشيئا وثباتا على جميع فرص الخيار الملح لاعادة توجيه الضفة مع شرق الاردن ، وان جميع تصريحاتنا حول هذه الفرص ليست الا كلاما لا أساس له ، وانه من الناحية العملية فاننا نقوم بخلق امر واقع يضم واقعي زاحف يتقدم نحو جميع مناطق الضفة والقطاع.

هذا الاسلوب مفضوح

ان هذا الاسلوب لا يمكن ان ينطلي على احد منا ، ولا من العرب الفلسطينيين او العرب الآخرين ، او العالم . فالافضل ان نقولها صريحة باننا نحتفظ لانفسنا بحق الاسكان في أرض اسرائيل جميعها ، وفي كل موقع من مواقع الاثنى عشر سهلا ، ذلك

اننا نحتاج الان الى مواقع امينة ، ولكن مستقبل ومصير جميع مراكز السكن والقرى والمدن اليهودية ، التى اقيمت فيما وراء الخط الاخضر ، رهن بالمفاوضات وان مشروعات الاسكان هذه لاتمثل ضما واقعيا للاراضى .

ان مستقبل المشروعات الاسكانية فى الضفة والقطاع مفتوح لعدد من الامكانيات ، ان جانبا منها سيضم لاسرائيل رسميا ونهائيا ، فى أعقاب مفاوضات مع الدولة العربية الفلسطينية مثلا غوش عتصيون ، سيصبح جزء منه قواعد مؤقتة للجيش والدوريات فى اطار الترتيبات الامنية بين الدولتين ، والجزء الاخر يظل داخل حدود الدولة العربية الفلسطينية .

عرب اسرائيليون واسرائيليون عرب !!

وعلى وجه العموم ، يمكن الافتراض بانه ستقوم فى الدولة العربية الفلسطينية - سواء فى الضفة الغربية او الضفة الشرقية - مستوطنات يهودية ، ذلك انه ليس من المحتمل ومن بين جميع دول العالم ، ان تكون الدولة المجاورة - الدولة التوأم لدولتنا - خلوا من اليهود .. ان الواقع لايستسيغ ذلك . فالعلاقات الوثيقة الاقتصادية والتجارية وغيرها التى ستسود حتما بين الدولتين بعد السلام ، ستؤدى الى اسكان اليهود - بموافقة الدولة العربية ، وبمرور الزمن - فى مدن الضفة والقطاع وفى شرق الاردن ، وسيكون باستطاعتهم ان يظلوا مواطنين لدولة اسرائيل ، وانهم من أجل اشغالهم وأرزاقهم انما يقيمون بصورة مؤقتة فى الدولة العربية ، مع المحافظة على مواطنتهم الاسرائيلية .

فكما فى اسرائيل اليوم أقلية عربية تعد بضعة مئات الآلاف قبلت على نفسها المواطنة الاسرائيلية لكل غرض ، كذلك من الممكن - بمرور الزمن ووفق شروط السلام - ان تتكون اقلية تعد بضع آلاف او عشرات الالاف من اليهود فى الدولة العربية الجارة .

ومن الممكن القول باننا اذا عرضنا الان امام مستوطنين يهود من الشباب - فى الضفة والقطاع - هذه الامكانات المفتوحة امامهم - فلن تخونهم روح التضحية والتطوع للذهاب الى مثل هذه المستوطنات .

ومهما يكن من امر ، فينبغى التحدث الى هؤلاء المستوطنين الشباب حديث حق وابلاغهم ، من الان ، بانهم عندما يحل السلام سيضطرون الى تقديم تضحية

اخرى والان يقرروا مستقبلهم ومكانهم . وليس من شك فى انهم يرغبون فى سماع حديث حق ، ويمكن الافتراض ان اغلبيتهم ستكون على استعداد لان ترى بان مساعيها اليوم قد اصبحت جسرا للسلام فى المستقبل ، وستبدى تفهما بان المكان الذى عملت على اصلاحه وضحت من اجله خير سنى حياتها يمكن ان يكون فى المستقبل قاعدة لدوريات امنية ، او مزرعة تدريبية او نموذجية حتى اذا ظل - بعد السلام - داخل حدود السيادة العربية .

لا كفر ولا سفسطة

وقد تبدو هذه الاقوال بالنسبة لجانب من الاسرائيليين ، وكانها كفر وسفسطة ولكن بالمنطق السليم والتفكير الحق فقط من جانبنا يمكننا التقدم نحو السلام مع العرب الفلسطينيين . ان امكانية اقامة دولتين من شانها ايضا ان تخفف من المشكلة النفسية التى يعانى منها عرب اسرائيل ، وما يقاسونه من ازدواج الشخصية ، فهم يواجهون مشكلة صعبة مخيفة من ناحية هويتهم وانتمائهم . فهم من الناحية العرقية ينتمون الى الشعب العربى الفلسطينى ولا يريدون الاندماج فينا اندماجا مطلقا نحن ايضا ليست لنا نية او حاجة او امكانية لدمجهم فينا ، ومن جهة ثانية فهم مواطنون اسرائيليون . فاذا قامت بالقرب منا دولة عربية فلسطينية تعيش معنا بسلام ، فان هؤلاء العرب الاسرائيليون سيشعرون بانفسهم عندئذ بانهم مواطنون اسرائيليون وبانهم امتداد لشعب فلسطينى ذى هوية ودولة خاصتين به .

ربما كان جانب منهم راغبا فى الانتقال - بصورة مؤقتة او دائمة - الى الدولة العربية الفلسطينية ، وسيكون ذلك حقا من حقوقهم .

ويمكن الافتراض بان أكثريتهم ستبقى بيننا ، ولمجرد وجودهم بين ظهرانينا سيمثلون جسرا بين الدولتين ، كما ان الاقلية اليهودية والقرى اليهودية فى الدولة العربية الفلسطينية ستمثل هى الاخرى جسرا مماثلا .

ان هذه الاقوال تبدو الان خيالية موغلة فى الخيال ، الا ان التاريخ البشرى ملىء بنماذج لدول مجاورة تعيش بسلام الواحدة مع الاخرى ، وان اقلية من دولة ما تعيش فى دولة اخرى وبالعكس .

مسألة شكل الحكم

وفى هذه المرحلة ، فما زال من السابق لاوانه التعرف على شكل الحكم والسلطة فى كلتا الدولتين . والمأمول ان يدوم طويلا فى اسرائيل شكل الحكم الجمهورى الديمقراطى ذى الاحزاب المتعددة ، فاذا لم يكن بالامكان الابقاء على الحكم – لاسباب تتعلق بالنسب السكانية – على هذا الشكل لا سمح الله ، فان شكل الحكم هذا سيتغير تغييرا تاما . واما بالنسبة الى الدولة المجاورة وشكل نظام الحكم فيها ، فانه فى هذه المرحلة يمكن القول بانها ستكون دولة للشعب العربى الفلسطينى الذى يعد اليوم بين مليونين ونصف المليون الى ثلاثة ملايين نسمة ، تتركز غالبيتها فى الضفة والقطاع وفى شرق الاردن . فماذا سيكون شكل نظام الحكم فى هذه الدولة ؟

من المؤكد ان التكهن بذلك الان يبدو صعبا ، ولكن كيف سيقرر هؤلاء المليونان والنصف الى ثلاثة ملايين نسمة مصيرهم ؟ هل ستفلح المملكة الاردنية فى الصمود ، وهل ستستطيع ان تكسب عطف العرب الفلسطينيين الذين يعيشون فى وسطها ، والذين يمثلون الاكثرية الساحقة من سكانها ، وكذلك عطف العرب الفلسطينيين فى الضفة والقطاع ، وهل سيرى هؤلاء العرب الفلسطينيون فى هذه الوحدة سبيلا لتحقيق امانيهم ؟ وهل ستطرأ على المملكة الاردنية تغييرات سياسية تجعل منها دولة دستورية او جمهورية ؟ وهل الخطوة الاولى فى عملية توحيد الضفتين فى دولة واحدة ستتم على أيدى عرب الضفة والقطاع الذين سيجدون فى انفسهم قوة نفسية ليقيموا لانفسهم " دولة فى الطريق " كمرحلة للوحدة مع الضفة الشرقية ؟

كل هذه الاسئلة وأسئلة كثيرة غيرها ، مازال يسترها ضباب المستقبل .

تصريح اسرائيلى

علينا ونحن بسبيل وضع هذا المستقبل مهمة ضخمة ، فاننا وان كان يبدو لنا انه ليس هناك من تجرى معه محادثات علينا ان نكرر الحقيقة التى ننادى بها من اننا لسنا فى حاجة لاراضى الضفة الغربية وقطاع غزة للاستيطان اليهودى المكثف ، وليس فى نيتنا ضمها ، لاننا لن نوطن فيهما ملايين اليهود الذين سنعمل على تهجيرهم لاسرائيل ، واننا على استعداد للتنازل عن تحقيق حقوقنا التاريخية فى المناطق المحتلة كما اننا على استعداد لان تقام فى جوارنا دولة عربية فلسطينية مستقلة وذات سيادة .

ان مثل هذا التصريح ضرورى لنا وللعرب وللعالم ، فانه كتصريح بلفور ستكون له اهمية سيكلوجية لدى العرب الفلسطينيين وعلى مر الزمن تصبح له اهمية عملية ضخمة ، يجب ان نكون أول من يعلن هذا ، والا ننتظر ان يقوم من بين العرب الفلسطينيين الحيارى المغلوبين على امرهم ، المبلبلين الذين ينهال عليهم الضربات من يصرح بالاستعداد لان يعقد معنا سلاما ، وبتصريح ايجابى متعاطف مع اسرائيل ، انهم لازالوا غير قادرين على ذلك ، فان زعماء العرب لازال يستولى عليهم حلم الثار والتدمير ، وغارقين فى يأس عميق لا مخرج لهم منه دون ان نمد لهم حبل النجاة ، ان التصريح عن نوايا حكومة اسرائيل سوف يغير الموقف فى المنطقة ويجد له مؤيدين خفيين فى البداية ، ثم ظاهرين فيما بعد سواء اكان ذلك فى غرب الاردن ام شرقيه ، اننى على يقين اننا بهذا التصريح سوف نستهوى بعض الشباب من عرب فلسطين (وعليهم يقوم املهم وأيضا املنا) وكذلك من بين سكان الضفة الغربية وقطاع غزة وكذلك من بين العرب الفلسطينيين المسجونين فى سجون اسرائيل (وليس هذا اول حادث فى التاريخ يقوم فيه اشخاص متزنون من بين المقاتلين الذين وضعوا فى السجون ويسلمون بآراء ساجنيهم مع الاحترام المتبادل بينهما) ، وكذلك من بين زعماء العرب فى شرق الاردن ومن شباب عرب فلسطين الذين يدرسون فى جامعات الشرق الاوسط وأوربا وغيرها من انحاء العالم الاخرى .

يجب الا ننسى ان هذه عملية بطيئة ، وسوف يمر زمن غير قليل حتى يصدقنا عرب فلسطينيون ، وتستهويهم نوايانا ويجدون الجرأة الكافية لكى يعلنوا مافى نفوسهم . ان هذا التصريح الاسرائيلى مثله كمثل خطاب من فوق خشبة مسرح مضاءة امام جمهور متفرجين يجلسون فى الظلام ، ولكن هناك البوادر الاولى على انه سيقوم من وسط الظلام والسكون عرب فلسطينيون شجعان ، ويقولون : اننا على استعداد لاجراء محادثات معكم وعقد سلام معكم .

اننى أعتقد ان هذا التصريح سوف يترك أثرا قويا لا بين عرب فلسطين وحدهم بل أيضا بين الدول العربية . وسيدرك العرب – شاءوا ام لم يشاءوا ان اليهود على استعداد ان يعيدوا بمحض ارادتهم لعرب فلسطين حقوقهم وان هذا التصريح تعبير عن هذا الاستعداد ، وسيدركون أيضا ان اقامة دولة عربية فلسطينية فى جوار اسرائيل هو أكبر تنازل (عن تحقيق حقوقها) تستطيع اسرائيل تقديمه ، وان اى طلب بتنازلات اخرى مثل تقليل مساحة اسرائيل اى اعادة اللاجئين لداخل اراضيها

هدمها وتدميرها .
سوف تفسره اسرائيل على انه رغبة في
كما ان العالم سيعتبر هذا التصريح مجاملة تاريخية رائعة يتقدم بها اليهود
وحدهم من بين امم العالم من أجل السلام فان شعبا ظافرا احتل في حرب باسلة
اراضي له فيها حقوق تاريخية كاملة ، وتهمه من ناحية الامن يعلن استعداده للتنازل
عنها لصالح شعبه جاهد شعب توأم اصابته يد القدر . يحتمل الا يشو هذا التصريح
في البداية ، وان ينبري لنا العرب سواء العرب الفلسطينيون او الدول العربية
ومستشاروها من الدول الكبرى ويقولون لنا : اعيدوا المناطق المحتلة اولا ثم بعد
ذلك نرى . اننا لن نوافق على ذلك ابدا ، وعندئذ يعرف الجميع انهم سيعرف الجميع
يدركون انهم لن يكرهونا ، على اى انسحاب حتى ولا عن شبر واحد ، ولن تخيفنا
اى تهديدات من اى جانب ، اما عن القول بان شروطنا هذه سوف تصبح الحد
الادنى من الشروط ، وان العرب والعالم سوف يضغطون علينا ويحاولون ان يبتزوا
منا تنازلات اخرى ، فما لا شك فيه ان الجميع يعلمون ان هذا التصريح هو الحد
الادنى والحد الاقصى الذى نستطيع ان نعرضه ، واننا لن نستسلم لضغوط واغراءات
وابتزازات من اى جانب .

اننا يجب ان نصرح ونعود ونصرح باستعدادنا لاقامة دولة عربية فلسطينية
وان نتدرج بصبر لا ينفذ حتى يقوم لنا شركاء حقيقيون من بين العرب الفلسطينيين ،
وحاشا لنا ان نيأس من عدم الرد او من رد معاد لتصريحنا ، بل نظل نشرح لعرب
فلسطين وللدول العربية وللعالم امانينا واهدافنا فى اسرائيل المستقبل ، وعلينا ان
نبين لانفسنا ولهم كيف وأين نخطط لاستيعاب ملايين المهاجرين اليهود دون توسع
فى المناطق التى يسكنها العرب ، ودون ان ننال منهم ، ودون ان نطردهم ، وليكن
ذلك قبل عقد سلام معهم .

وظللنا مدة تسع عشر عاما منذ قيام الدولة حتى سنة ١٩٦٧ نقول اننا نستطيع
ان نستوعب معظم الشعب اليهودى فى تخوم دولة اسرائيل ، واذا كنا نطلب الان خريطة
سياسية جديدة ، ونحن نطالب بخريطة جديدة ، فان هذا ليس له داعى التوسع ، بل
له داعى امن اسرائيل وله داعى قيام دولة عربية فلسطينية جديدة لم تكن موجودة على
الاطلاق كذلك علينا ان نفكر بأنفسنا ، وان نثبت للاخرين كيف ستكون فى جوارنا
دولة عربية فلسطينية ، وتستطيع ان تحل فى تخومها مشاكل القومية والديموجرافية ،

ولا سيما مشكلة اللاجئين . هذا الاثبات ممكن اذا استعنا بالخيال ، وبمعطيات علم
الاجتماع والمنجزات التكنولوجية العصرية .

أولا يجب ان نشير الى الحقيقة من ان العرب الفلسطينيين هم اليوم من أكثر
العرب تقدما . وربما كان سبب هذا نضالهم معنا ، والنكبات التى حلت بهم ، والظروف
القاسية التى فرضت عليهم ، والواقع ان هؤلاء العرب الفلسطينيين الذين نصفهم من
اللاجئين مستواهم التعليمى يعد من أرقى المستويات بين العرب ، فليس بينهم حاليا
امية ، وعدد كبير منهم حاصل على تعليم جامعى ، ومن ذوى المهن الراقية - وهؤلاء
السكان متنقلين ، ويمكنهم بحكم الظروف التاريخية ، ان يتكيفوا مع اسلوب الحياة
العصرية ، والاساليب التكنولوجية الحديثة ، ويمكنهم ان يتحولوا فى غالبيتهم
العظمى الى اهالى مدن ، وان يثبتوا من بين المقاتلين الشبان زعماء عقلاء ومجددين .

ويبين هؤلاء زعماء فى دور التكوين ، يدركون ان مصيرهم فى أيديهم ، وان عليهم
الا يعتمدوا على صدقات الشعوب الاخرى ولا حتى على صدقات الدول العربية ، وهم
يعرفون انهم فى الماضى لم تنلهم منا وحدنا المرارة والمتاعب ، بل نالتهم من الدول
العربية بقدر لا يقل عنا ، كما يعلمون ان الدول العربية لن تمنحهم الكثير الا اذا استولوا
على مصيرهم فى أيديهم ، وربطوا مصيرهم بمصيرنا فى الحياة والسلام .

اننا اذا منحنا هذا الشعب الذى يتشكل مطرقة لسندانه مع شكل دولة ،
فانه خلال فترة قصيرة سوف يحولها الى دولة تضم اللاجئين الذين سيعيشون حياة
محترمة ، وربما كانت هذه الدولة من أوائل الدول العربية التى تصل للنهضة والتقدم
فانهم يستطيعون ان ينشئوا زراعة حديثة تصدر معظم غلاتها لاوربا والدول العربية ،
واقامة المدن الجديدة وتنمية المدن الجديدة على ضفتى الاردن وفى قطاع غزة ، وهم
قادرون بمعونة دولية على ان ينشئوا صناعة حديثة وبناء الموانئ والمطارات الجديدة ،
وتنمية السياحة واقامة مؤسسات البحوث والعلوم ، ورفع شعلة الحضارة والايمان فى
بلادهم ، ويجعلون منها دولة نموذجية للدولة العربية التى تخطو فى اعتزاز وفخر
نحو القرن الواحد والعشرين ، كما ان دولتهم المستقلة تستطيع بالتعاون معنا
تستطيع اقامة المشروعات الضخمة التى تنهض بها وتنهض باسرائيل على السواء . كما
ان دولة اسرائيل التى تقع على بحرين وجارتها العربية الفلسطينية المتاخمة لنفس
البحرين يمكنهما على مر الزمن ايجاد سوق مشتركة قد تجذب فى المستقبل دولا عربية

منطقة سياحة مشتركة من أضخم المناطق فى العالم
وغير عربية أخرى . وقد تصبحان
واجملها ، وقد يدمجان شركاتهما الملاحية وخدمات النقل والطيران فيهما وتقدمان
الخدمات والخبرة الفنية . والاموال للمنطقة كلها وربما أيضا خارج حدودها .

لدينا حاليا رجال العلم والتكنولوجيا الذين لديهم الافكار والمشروعات التى
يستطيعون أن يجعلوا بها ثروات البحر الميت المشترك بين الدولتين قاعدة لصناعة
كيماوية على نطاق عالمى ، كما ان هناك مشروعات أخرى كاستغلال المنخفض الارضى
فى سهل الاردن وانشاء قناة بحرية جديدة تبدأ من خليج العقبة ، وكشف مصادر
جديدة للطاقة الرخيصة ، وامكانات مفتوحة لاقامة مشروعات ضخمة فى الصناعة والخدمات.
ان من ينظر الى أرض الاسباط الاثنى عشر التى سوف تصبح ارض الدولتين يجب عليه
الا يخشى من مشكلة اللاجئين العرب الذين يبلغون حوالى مليون نسمة ، فانه
يحتمل ان يصبح هؤلاء اللاجئون على المدى الطويل مصدر خير للدولة العربية
الفلسطينية النامية ويصبحون مصدر قوة عاملة ممتازة .

ليس هناك حل آخر لهؤلاء اللاجئين فى الدولة العربية الفلسطينية المستقبلة ،
الا بتوطينهم فى المدن الجديدة والجددة ، وتشغيلهم فى الصناعة والخدمات
المتقدمة ، فان معظمهم من الشباب العصرى وأى حل يقوم على الريف وزيادة عدد
الفلاحين والزراع سوف يخفض مستوى الحياة فى دولتهم .

احدى المشكلات الكبرى للدولة العربية الفلسطينية المستقلة هى كيف نخفض آلاف
اللاجئين الذين يعيشون فى الاراضى الزراعية فى قطاع غزة والضفة الغربية مكثفين كثافة
كبيرة مما يعوق فلاحة الارض فلاحة جدية ، وتوطينهم فى المدن ، وتشغيلهم فى
المهن الحضرية ، ونجد ان حل مشكلة اللاجئين يكمن فى التنمية الاقتصادية والصناعية
المنتظرة فى المستقبل .

من البديهى ان هذه الحلول سوف تتطلب مبالغ ضخمة سوف نقدم جانبا منها
كتعويضات شخصية او جماعية للاجئين وكتمويل للمشروعات المشتركة بين الدولتين او على
شكل خبرة فنية ، وتأهيل تكنولوجى ، وسيطلب من الدول العربية ان تساهم بنصيبها ،
ولاسيما الدول المنتجة للبترول (وسوف تصفى اسرائيل حسابها مع الدول العربية من
مئات الآلاف من اليهود الذين هاجروا منها ، وهذا الحساب سوف يمتص ادعاءات
الدول العربية حيالنا) ، وسوف يتطلب الامر بالاضافة الى الاموال التى سوف نرصدها
نحن والدول العربية لتنمية الدولة العربية الفلسطينية ، ان تقدم المؤسسات المالية ،

للدولة منحا وقروضا ضخمة جدا لهذا المشروع ، ولاشك انه كلما زادت المشروعات كلما
زاد استعداد المؤسسات الدولية للمساهمة فى تنفيذها .

ان هذا الطريق للسلام مع عرب فلسطين طريق صعب ومتعرج ، ويحتمل أن
نصادف حروبا أثناء السير فيه ، فان العرب عامة والعرب الفلسطينيين خاصة لم
ييأسوا بعد من اخضاع اسرائيل بالحرب ، والنزاع بين اليهود وعرب فلسطين ليس
منفصلا ، بل يرتبط ارتباطا وثيقا بالنزاع العام بيننا وبين الشعوب العربية ومصالح
الدول الكبرى ، وعلينا الا نتوهم ان التصريحات وحدها يمكن ان تحل مثل هذه
المشكلات العويصة ، ولكنها ليست الا الخطوة الاولى التى يجب علينا ان نقدم عليها .
حتى ولو كانت طريقنا محشوة بالعقبات ، وخيبة الامل .

لقد أقدمنا على الخطوات الاولى فى الاتجاه السليم فور حرب الايام الستة بفتح
الجسور ، ونشر التأهيل المهنى ، وتقديم التدريب والخدمات فى الضفة الغربية
وقطاع غزة ، وكل هذه خطوات سليمة ، ولكن اذا لم نصحبها بتصريح عن الاسلوب
والهدف للمستقبل فانها تصبح اعمالا برجماسية دون تفكير سابق حول الغايات التى
تتمشى مع الايديولوجية والمبادىء المناسبة .

<u>مجابهة (فى مواجهة) الداخل</u>

لكن قبل اعلان طريق حل المشكلة علينا ان نتخذ اجراءات اخرى لا تقل أهمية
بشأن علاقاتنا مع عرب فلسطين ، حتى لو كانت هذه الاجراءات من جانب واحد ،
وقيمتها تبدو هامشية .

الاجراء الاول الذى يجب ان نتخذه هو بتعليم انفسنا مواجهة احتمال السلام مع
عرب فلسطين ، وعلينا الا نتجاهل صعوبة مشكلة تعليم شبابنا ان ينظر الى أشرس
أعدائنا فى المستقبل على انهم جيران يماثلوننا .

لحسن الحظ اننا نجحنا على مر الزمن فى الا نغرس فى قلوب شبابنا الكراهية
لجيراننا العرب ، وكراهية عرب فلسطين هى هامشية جدا ، ويمكن ازالة مرارتها
قبل فوات الاوان بالتعليم السليم . ونجد ظاهرة لا تقل سوءا هى شعور جزء منا
باحتقار هؤلاء العرب ، وقد تغيرت الاوضاع فى هذه المسألة ، ففى الماضى كان العرب

يحتقرون اليهود ، ولكنهم لم يكونوا يكرهونهم ، والان أصبحوا يمقتوننا ولكن لا يحتقروننا فى حين اننا أخذنا فى احتقار العرب دون ان نكرههم ، وعلينا ان نحارب هذه الرذيلة بكافة وسائل التعليم التى فى أيدينا ، ويكفينا ان نزهو بأنفسنا دون ان يكون فى ذلك احتقار لاعدائنا ، فان شعورنا باحتقار العرب قد يشوه صورتنا ، فان الاحتقار سلاح يرتد الى نحورنا ، والتاريخ ملىء بالامثلة على ذلك ، كالمماليك الذين احتقروا نابليون وجنده ، وقالوا سوف ندفنهم تحت سنابك خيولنا ، والروس الذين سخروا من اليابانيين وقالوا سوف نغطيهم بخوذاتنا ، والالمان الذين احتقروا الروس السلاف المتخلفين ، الى غير ذلك من الامثلة ، اما نحن معشر اليهود الذين لبثنا محتقرين فى جميع انحاء العالم طوال السنين مالنا نحتقر ابناء شعب آخر ؟

ليس المقصود نشر المحبة المصطنعة للعرب ، فان هذا التسامح المسيحى ومحبة اعدائك فيه الكثير من الزيف ، فما بالك والنزاع بيننا وبين العرب لم يصل الى نهايته ، ان المطلوب منا ان نعلم الجيل الشاب ان يفهم العرب عامة وعرب فلسطين خاصة ، فان الذى يدرس جيرانه ويفهمهم بصورة موضوعية اى يدرس العرب ولغتهم وحضارتهم لاشك انه لن يحتقرهم ، لان الاحتقار هو غالبا نتيجة سوء فهم وجهل وعدم معرفة . وان عدم تدريس اللغة العربية حتى اليوم فى مدارسنا الى جانب الانجليزية يظهر عيبا خطيرا فى تعليمنا ، والادهى من هذا انهم لم يعطوا وزنا ولا قيمة لمعرفة ابنائنا العربية الدارجة (قالوا : من يحتاج لهذه اللغة ؟) وبهذا عملنا على ضياع الثروة الضخمة من المعلومات العربية التى جلبها معهم المهاجرون اليهود من الدول العربية ، وقد كانت اللغة العربية هى اللغة الاصلية لحوالى نصف مليون من المهاجرين اليهود ، وهى لغة غنية فى الكتابة والكلام والشعر والغناء ، وكانوا يجيدون اللغة العربية بلهجاتها المتعددة من عراقية ، وسورية ، ومصرية ، وليبية ، ويمنية وغيرها ، فماذا فعلنا بكل هذه الثروة ، لقد أضعناها بغير حق باوروبيتنا المزعومة ، وبدلا من ان يقوم الاباء من مهاجرى الدول العربية بتلقينها بصورة طبيعية وسلسة لابنائهم وأبناء ابنائهم فى البلاد ، قلنا لهم ان هذه لغة متخلفة ولا داعى لها او من العار ان نعلمها للجيل الصاعد . ففيها مئات الآلاف من أبناء مهاجرى الدول العربية او لم يتعلموها من ابنائهم على الاطلاق ، لان الاباء رأوا ان مدارسنا لاتدرس العربية (وقد كان هؤلاء الابناء يستطيعون التفوق فى هذه اللغة) وانها ليس لها قيمة فى مجتمعنا ، فكفوا عن تعليمها لابنائهم .

اننا لا نستطيع اصلاح هذا الخطأ ، ولكننا لازلنا نستطيع ان نجعل تدريس اللغة العربية اجباريا فى المدارس ، واعداد هيئات تدريس للغة العربية سواء من بين اليهود او من بين العرب الذين يعيشون فى دولة اسرائيل ، كما انه من الواجب ان ندخل فى مدارسنا تاريخ العرب والعربية والدين الاسلامى والشرائع والشعر والادب العربى ، فاننا لازلنا حتى اليوم نركز فى مدارسنا على تعليم تاريخ الدول الاوروبية أكثر من التاريخ الغنى لمنطقتنا التى نعيش فيها وسوف نعيش فيها .

يمكننا القول – ولدينا ميل لذلك – بان تاريخ العرب فقير ، ولكن من يجرؤ على القول بان تاريخ العرب وشعرهم وأدبهم طوال قرون مجدهم أفقر من تاريخ انجلترا فى العصور الوسطى ؟ وهل يمكن الحكم على الغنى والفقر فى هذه المجالات ؟

الواقع ان أغلبية شبابنا الذى سوف يخدم فى الجيش ، ثم يكون فيما بعد العمود الفقرى لمجتمعنا لا يعرف أدنى شىء عن اللغة العربية وتاريخ العرب وأدبهم ودينهم وشرائعهم واخلاقهم فيما عدا قلة ممن يدرسون اللغات الشرقية – فى مدارسنا ، وعدد أصغر من يدرسون فى أقسام اللغات الشرقية بجامعاتنا . ولذلك فان شبابنا لا يعرف شيئا عن أهواء العرب وامانيهم وآمالهم ومزاجهم ، وعلينا ان نصلح هذا الخطأ حتى فى أيام الحرب مع العرب استعدادا للسلام معهم . وعلى القيادات السياسية والاجتماعية فى اسرائيل مهمة كبرى وهى تعليم الشعب كله . وليس الشباب وحده ، وايقافه على ضرورة ان نعيد للعرب فى المستقبل اراضى الضفة الغربية حتى يقيمون فيها دولتهم .

لقد تسللت فى السنوات التى أعقبت حرب الايام الستة بين الجماهير وجزء من الشباب اتجاهات وأقوال غريبة عن الصهيونية مثل شعار " الدم والارض " والآيات مثل " كل مكان تطأ كف قدمك يكون لكم " وليس هناك مأخذ على الاحزاب او الحركات التى تنادى بفكرة عدم التنازل عن شبر واحد ، ومهما عارضنا هذه الفكرة ، فان هذه الاحزاب والحركات لها كامل الحق فى الدعوة اليها فى نطاق القانون والبرلمان دون منازع ، ولكن هذه الاحزاب والحركات التى تدعو لهذه الفكرة بصورة مهلهلة ومبهمة عن قصد ، وعلى رأسها الحركة العمالية تسبب بلبلة فى قلوب الشعب والشباب ، نجد انه فى المسألة العربية ان الشعب لا يعرف ماذا نريد من انفسنا ، وماذا نريد من العرب ، وهل هناك احتمالات لاقامة دولة عربية فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، او ان مستقبلهما الضم لاسرائيل بالامر الواقع فى البداية ، وفيما بعد بالقانون

ونجد ان الجيل الصاعد فى اسرائيل ناقد وواع ، وينبغى ان يسمع كلمة الحق مهما كانت مريرة ، وفكرة التعقل لاتعجبه كما لاتعجب الكثيرين من الكبار .

ربما أدى اعلاننا فى وضوح عن نوايانا فى نحو عرب فلسطين لاستقطاب الشعب فى اسرائيل ، كما انه يضع نظاما فكريا وايديولوجيا بدلا من الحيرة واللامبالاة والاعتماد على الحكومة .

ان الحركة العمالية الصهيونية الاشتراكية ترى مناقشة الموضوع بكل أبعاده وخطورته والوصول بعد المناقشة الى قرار وحسم ، ان هذه الحركة لم تعد تستطيع الاكتفاء بالهمهمة فى هذا الموضوع الهدئى ، كما كانت تفعل طوال السنوات الاخيرة فان قسما كبيرا من الحركة العمالية ، ولاسيما من بين شبابها ولاسيما من العاملين فى حركة الاستيطان العامل يرون ان الصهيونية الاشتراكية ، تؤيد الوصول لتسوية مع عرب فلسطين عن طريق حل وسط ، ومنحهم حق تقرير المصير ، واقامة دولة مستقلة خاصة بهم ، ان هذا النقاش فى نفس الحركة العمالية ، ولا يعقل ان الصهيونية الاشتراكية يمكن ان تسلم بعدم التنازل عن الاراضى المحتلة ، وتحوى داخل الدولة جيوبا تضم ثلث او نصف شعب آخر يطالبون بتقرير المصير ، وفى رأيى ان هذه ليست صهيونية اشتراكية ، ونجد فى الحركة العمالية من يفكرون بصورة أخرى ، ويرون أن نبدأ بهذا الجدل الهدئى ، والا نخشاه .

كما انه يجب على الحركة الصهيونية الدينية ان تصل الى نقاش وحسم لهذه الموضوعات ، ونجد انه فى موضوع المناطق المحتلة ينزلق الكثيرون من أفراد هذه الحركة الى اتجاه غريب عن الدين اليهودى ، وينزلقون الى تقديس الاخشاب والحجارة ويحيطون كلمات " الارض " ، وميراث الاباء " بغلالة من الصوفية ، واذا كانوا يرون ان اراضى الضفة الغربية أو قطاع غزة مقدسة ، فان جبال جلعاد وباشان تكون مقدسة هى الاخرى ، واذا عملنا بنص الاية التى تقول " بأن الارض التى تطؤها قدمك تكون ارثا لك " فما الحكم اذا اضطررنا يوما الى الخروج لعمليات مضادة ولبثنا فى الضفة الغربية لقناة السويس ، فهل نطبق أيضا عليها هذه القاعدة ؟ ان الحركة الدينية فى اسرائيل قد تصل بهذا الاسلوب الى مواقف عقائدية متطرفة وغير متسامحة ، لاتستطيع ان تتحرك منها ، فعليها ان تسأل نفسها اذا كانت مهمتها ان تعمل على محبة اسرائيل وأرض اسرائيل ، او ان تندفع لموقف يناقض الدين اليهودى كل المناقضة ، بتأييدها دون تحفظ تقديس اى احتلال عسكرى نضطر اليه ، وعليها ان تسأل

نفسها هل توراة موسى تدور كلها حول الحروب والابطال ام ان اساس هذه الشريعة هو الوصايا العشرة ، وهل روح كتاب العهد القديم تتجسد فى أجزاء معينة من سفر يشوع كالايات التى تقول (وغنم بنو اسرائيل) اسلاب تلك المدن والبهائم ، وضربوا كل شخص بحد السيف حتى أبادوهم عن بكرة ابيهم) او فى كلام اشعيا النبى الذى يدعو لجعل السيوف فئوسا وتحويل الحراب الى ناى ، وعدم رفع السيف فى وجه الشعوب الاخرى وعدم الدعوة للحرب ، وكذلك أقوال سائر أنبياء اسرائيل الكبار التى تدعو للاخلاق والسلام ؟

واذا حظينا بحقبة من الهدوء والسلام ، ولو كان ثمن هذا هو التنازل عن اراض مقدسة كل التقديس ، واذا " هدأت الارض أربعين سنة " اى حتى بداية القرن الواحد والعشرين فان هذا يكفينا ، واذا كانت الانسانية لاتبغى الانتحار ، فعليها ونحن والعرب من بينها ان تعمل للوصول الى نهاية عهد الحروب فى خلال هذه المدة .

ان الدين اليهودى له مهام أكبر بكثير فى المجتمع والدولة اليهودية ، ليس بينها التقديس التام للاراضى .

يجب على الصهيونية المتحررة ان تناقش أيضا موضوع الاراضى المحتلة والاستعداد لتنازلات ومشكلة عرب فلسطين ، لان مبدأ عدم التنازل عن شبر واحد لا يستقيم مع الصهيونية الاشتراكية كما انه لا يتمشى مع الصهيونية المتحررة ، واى نوع من التحرر هذا الذى يدعو لجعل شعب عربى شراذم من العبيد قسرا عنه ، وضمه قهرا لدولة اسرائيل ، وسلبه حق تقرير المصير ؟

يجب على هذه التيارات الثلاثة الاساسية للصهيونية وهى التيار الاشتراكى والدينى والتحررى ان تتسلح بالجرأة وتفكر تفكيرا عميقا فى هذا الموضوع وتبت فيه ، واذا تغلب فعلا الاعتدال (وأدى لانتصاره التمسك بالافكار الاصيلة والاخلاقية لليهودية الاشتراكية والتحرر) فان من واجب قيادات هذه الحركات الثلاث ان تعلم الشعب والشباب وتدعو بينهم للاعتدال والاستعداد للتنازل والتراضى ، وتعليم الشعب والشباب بهذه الروح لن يكون سهلا بل سيكون كالسباحة " ضد التيار " ، فان الشعب الاسرائيلى الذى ظل عشرات السنين فى حالة حرب وصراع عن حياته وكيانه قد تربى على الاستبسال والغزو ، لكى نربيه على فكرة السيطرة على النفس يتطلب الامر جهودا شاقة جدا .

العمل بين اللاجئين

يجب على اسرائيل بالاضافة للتصريح الاسرائيلى ونشر الاعتدال بين الشعب ان تتخذ عدة خطوات من ناحيتها لتقريب السلام فى المستقبل واهمها القيام بعمل بين اللاجئين من عرب فلسطين الموجودين تحت حكم اسرائيل فى قطاع غزة والضفة الغربية .

بعد حرب الايام الستة وقع فى يد اسرائيل حوالى اربعمائة ألف لاجئ عربى يشكلون قسما كبيرا من مجموع اللاجئين الفلسطينيين ثلثاهما يعيشون فى معسكرات مكتظة ومهينة فى قطاع غزة ، والباقى فى الضفة الغربية ، وسبق ان اوضحنا كيف استخدم زعماء العرب هذا المليون من اللاجئين كسلاح سياسى وسيكولوجى وعسكرى ، وكيف تركوهم يتعفنون فى المعسكرات .

فى يونيو سنة ١٩٦٧ كان حوالى نصفهم فى أيدينا ، ويجب ان نشير هنا الى تقصير غريب لا يمكن تفسيره ارتكبته اسرائيل فى مسألة اللاجئين ، حقا لا نستطيع ان ننكر ان اسرائيل عملت على رفع مستوى معيشة العرب فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وأوجدت لهم الاعمال فى اطار مشروعاتها ، ولكنها لم تفكر بصورة منتظمة ، ولم تخطط تخطيطا طويل المدى لما يجب عمله فى المعسكرات وكيف تأخذ فى معالجة المشكلة معالجة تستحق الذكر ، وتليق باسم اسرائيل ، ولم يغب عن زعماء اسرائيل بعد حرب الايام الستة ان معسكرات اللاجئين لاسيما فى غزة هى مجمع الصديد وانها تشكل جيتو داخل الجيتو ، فان اليهود الذين عاش الكثير منهم الى عهد قريب فى معسكرات المانية وروسية وبريطانية وغيرها ، هم أول من يدرك وجوب المسارعة بمعالجة مشكلة المعسكرات والتحدى الانسانى الذى يواجههم فى ذلك والخطر السياسى والامنى الذى تنطوى عليه هذه المعسكرات ولكنا بدلا من الاهتمام بحل هذه المشكلة وجدنا تراخيا وجمودا فكريا يسود اسرائيل فى هذا الشأن (كان هناك من يتصايحون ويطالبون بحل المشكلة ولكن اصواتهم ذهبت فى الفضاء) ، ولست أدرى كيف حل بنا تلبد الاحساس فى هذه المسألة الحساسة ، طبعا يمكن ان نعتذر زعماء اسرائيل لانهم كانوا غارقين فى الموضوعات الاخرى ، كحرب الكيان الاسرائيلى ، وحرب الاستنزاف ، وتدعيم الجيش الاسرائيلى ، والهجرة اليهودية ، واستيعاب المهاجرين وتنمية الاقتصاد وما الى ذلك ، ولكن اسرائيل لم تكن ينقصها الرجال الذين لديهم الاستعداد لان يأخذوا هذه المهمة على عاتقهم ، وان يفكروا ويستعرضوا ويخططوا وينفذوا ، ولكن الحكوم لم

تعطهم ومما يزيد دهشتنا ان حكمت اسرائيل بعد حرب الايام الستة حكومة وحدة قومية عدة سنوات ، وكانت تضم وزراء يرون ضم جميع الاراضى المحتلة لاسرائيل ، وكان على هؤلاء ان يكونوا بين أوائل من يطالبون الحكومة بايجاد حل انشائى لمشكلة اللاجئين العرب فى داخل أرض اسرائيل المتكاملة ، اذ انهم يرون ان هؤلاء اللاجئين او على الاقل معظمهم يجب ان يتحولوا تدريجيا الى مواطنين فى الدولة ، ومن العسير ان نصدق انهم كانوا يبغون ان يعيش فى دولة اسرائيل المتكاملة مئات الآلاف من هؤلاء الاشخاص التعساء فى ظروف غير انسانية .

ألم ير وزراء الاحزاب الصهيونية الاشتراكية التحدى الانسانى الكبير فى معالجة هذه المشكلة ؟

يبدو ان رجال الحكومة قد أسكرتهم نشوى النصر فى حرب الايام الستة واعتقدوا ان الامور سوف تسوى من تلقاء نفسها ، وان اللاجئين سوف ينزحون الى الاردن أو الى أماكن أخرى ، وبذلك تحل المشكلة نفسها وربما تصوروا انه اذا اخذت اسرائيل على عاتقها عبء التفكير فى هذا الموضوع ، والتخطيط والتنفيذ ، فان هذا سيعد كاعتراف بالذنب ومسئولية نشوء المشكلة ، وانها ستأخذ على عاتقها مهمة ايجاد حل لها .

وفى الواقع تركت اسرائيل المعسكرات ، وتصريف شئونها اليومية لوكالة الاغاثة التابعة للامم المتحدة ، وقد تكونت هذه الوكالة بعد حرب سنة ١٩٤٨ ، وأصبحت على مر الزمن جهازا اداريا ضخما يستخدم آلاف العرب الفلسطينيين الذين كل مهمتهم هى الاحتفاظ بالمعسكرات كما هى حتى استعادة فلسطين وتحريرها ، وأصبح موظفو هذه الوكالة أكبر عدو للتحديد فى المسألة الفلسطينية ، فان ارزاقهم كانت تقوم على الاحتفاظ بالوضع الراهن ، وكان كبار رجال الوكالة من غير العرب اذا حاولوا القيام بعمل تقدمى يصطدمون بهذا الجدار من المحافظة والانتهازية ، وقد ارتكبت اسرائيل أكبر خطأ بتراخيها الفكرى وبخلها ، اذ تركت وكالة الاغاثة هذه بشكلها السابق ، ولم تستغل استغلالا ايجابيا هذا الوضع الفريد الذى أصبح فيه الاهالى العرب بعد حرب الايام الستة ، ولاسيما اللاجئين من الفلسطينيين ، لقد أصيبوا بصدمة عصبية وأصبحوا فى وضع شبيه بوضع اليأس بعد زلزال عنيف ، او فيضان مروع ، وأى شخص اكتسب خبرة فى معالجة الاشخاص الذين اجتازوا محنة يعلم تمام العلم انه من السهل جدا معالجتهم علاجا خالصا يؤدى الى تغيير موقفهم تغييرا تاما .

لاشك انه يمكن استغلال هذه الصدمة لزيادة الوضع السىء الذى فيه هؤلاء الاشخاص سوءًا ، وان كان يمكن معالجته بسهولة علاجا ايجابيا ، فنجد مثلا ان الفلاحين الايرانيين المحافظين جدا ، والذين لم يكن فى الامكان تعليمهم الطرق الحديثة فى الزراعة والرى ، يصبحون بعد زلزال حل بهم تلاميذ ممتازين فى استيعاب طرق التكنولوجيا الحديثة التى فرضت عليهم ، كما وجدنا اللاجئين اليهود الذين وفدوا للبلاد فى جماعات كبيرة بعد سنة ١٩٤٨ ، وكانوا مثال الاهالى المأزومين يسهل عليهم استيعاب الطرق والمعايير الحديثة فى كل ما يتصل بالمهن والاسكان والطعام وغير ذلك .

ولو كانت اسرائيل تقدمت بعد حرب الايام الستة لمعالجة موضوع اللاجئين بحافز فكرى وخططت ونفذت لاستطاعت ان تفعل الكثير حتى اليوم للبدء فى الحل .

اولا كان يجب ان نخرج وكالة الاغاثة من المعسكرات او ان نقلل من وجودها فيها الى الحد الادنى ، وكان العبء المالى الذى سيقع على اسرائيل صغيرا ، وكنا سنضعف العنصر السلبى فى المعسكرات .

ثانيا - كان يمكن بعد العرض والتخطيط السريع توزيع معظم المعسكرات المهينة التعسة وتوطين اللاجئين بصورة منظمة فى ضواحى المدن فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، كمرحلة وسطى فى سبيل حل المشكلة .

لاشك انه لو كونت الحكومة فريقا مختارا من المخططين والمنفذين فى جميع مناحى الحياة والتكنولوجيا يشتغل بهذا الموضوع نظريا وعمليا ، ويكرس لذلك كل وقته لاستطاع ان يضع خلال سنة أو سنتين خططا ومشروعات حلول مختلفة ومتعددة فى مجالات الاسكان ، والعلاج الاجتماعى والسيكولوجى والتعليم والصحة والعمالية المتصلة باللاجئين ، وهذا التخطيط يجب ان يكون جزءًا من تخطيط اقليمى شامل للمشكلة كلها يشمل اللاجئين الذين ليسوا فى منطقة سيطرتنا ، ولكن علينا ان نتقدم بمفردنا فى بداية تنفيذ الحل قبل السلام ولاشك اننا لو تقدمنا للمؤسسات الدولية او للدول الكبرى بمشروعات جديدة باسم اسرائيل لوجدنا التمويل بلا صعوبة ، ولكن بدلا من ذلك تكونت هيئات غير متخصصة تماما كانت تقدم بين الحين والاخر مشروعا لابأس به ، وحكم عليها جميعا ان توضع على الرف فى السنوات التى أعقبت حرب سنة ١٩٦٧ .

وهكذا رأينا اسرائيل التى تفخر بحق بعملية توطين لاجئيها فى القرى والمدن

وبالزراعة والصناعة وبتخطيط وتنفيذ مشروعات الاستيطان الريفى والحضرى التى تتم تحت اشرافها وبارشادها على نطاق واسع فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، واسرائيل التى قدمت المعونات للشعوب المغلوبة على امرها فى انحاء العالم تقف عاجزة عن معالجة مشكلة اللاجئين من عرب فلسطين الذين يعيشون فى تخومها وتحت حكمها .

حقا لقد حدث تحرك اخيرا ، وشهدنا هنا وهناك عمليات على نطاق ضيق بين الحين والاخر فى مسألة اللاجئين ، ولكنا حتى الان لانستطيع ان نشرح عجزنا فى الداخل ولا فى الخارج .

يبدو ان عدم معالجة المشكلة نجم عن عدم وضوح افكارنا فى مصير المناطق المحتلة والمشكلة الفلسطينية وهذا أيضا يشكل دافعا جديدا يدعونا لاعلان النوايا الاسرائيلية ، وحتى اذا لم يكن اعلان نوايانا يؤدى للسلام الفورى ، فقد آن الاوان لمعالجة مشكلة اللاجئين بصورة علنية وغير عادية وتترك أثرا فى النفوس ، ومن الواضح ان المصاعب الان أكبر وأضخم فلم يعد الفلسطينيون الان تحت تأثير الصدمة ، فانهم يعيشون تحت حكمنا حياة طبيعية فى طريق مرسوم ، كما ان العمليات الارهابية فى غزة عملت عملها ، ولكن الوقت لم يفت بعد ، ويجب تكوين هيئة مركزية تضم خيار خبرائنا تستعين بأحسن نظريات التخطيط والتنفيذ والخبرة الفنية والخبرات الاخرى ، ويجب ان نرصد لعملها ميزانيات محترمة ، وعلى هذه الهيئة ان تعالج المسألة بأكملها بما فيها مشكلة تعويضات اللاجئين هذه المشكلة المعقدة . ولا أعتقد ان هذا الموضوع منفصل عن مسألة الامن فى معسكرات اللاجئين والمناطق المحتلة عامة ، ويجب ان ننسق احتياجات الامن مع المشروعات المدنية لحل المشكلة ، بل ان تقصيرنا فى الحلول المدنية هو الذى جر علينا متاعب الامن ، ويجب حل الموضوع حلا اسرائيليا اصيلا جريئا وشاملا وقد علمتنا التجارب ان مثل هذه الخطة الشاملة تنطوى على آلاف التفصيلات الصغيرة ويصحبها كثير من اليأس والاحباط ومحاولات من التجربة والعمل فى كل خطوة وشبر ، وحتى الان لم نحاول ان نجرب السير فى هذه الطريق الوعرة ، ولكن آن الاوان لكى نجربها ، فان هذا يهمنا كمؤشر على اتجاهنا للمشكلة العربية بأكملها ، كما انه يهم العالم ولاسيما اللاجئين العرب انفسهم . ان هذه الآلاف من اللاجئين الذين ينهش قلوبهم الحقد علينا وعلى العالم هم ونساؤهم وأطفالهم وقد أصبحوا معقدين وطغى عليهم الاحباط لا يمكن معالجة جراحهم دفعة واحدة ، وليست هناك معجزة تشفى هذه الجراح ، ولكن باستطاعتنا ان نقدم الاسعافات الاولية .

أستطيع القول بان رأيى فى هذا الموضوع يختلف عن الواقع اليوم ، ولكن على ان اقر هنا باننى بعد حرب الايام الستة حاولت طوال أشهر عديدة بكل ما فى استطاعتى ان ادرس الموضوع عن كثب وبالاتصال الشخصى باللاجئين ، وزرت جميع معسكرات اللاجئين فى القطاع ، كذلك تقريبا جميع المعسكرات فى الضفة الغربية ، وحاولت ان ادرس افكارى وآرائى على ضوء الخبرة التى اكتسبتها اثناء دراستى بين الاهالى الذين انزل بهم القدر ضربته فى اسرائيل وبعد حرب الايام الستة عرضت على رئيس الوزراء اننى على استعداد بان اترأس هيئة لبحث وتخطيط مشروع اصلاح احوال اللاجئين واعادتهم للحياة الطبيعية ، ولازلت حتى الان على استعداد لتقديم خبرتى فى هذا المجال .

القدس لليهود

هناك مشكلة اخرى بيننا وبين عرب فلسطين تتصل بالعرب عامة بل وبالعالم باكمله ، وهى مشكلة القدس وربما كانت هذه المشكلة أكثر المشكلات حساسية واكثرها اثارة للنفوس سواء لدينا او لدى العرب من بين جملة المشاكل بيننا .

لقد ظل الشعب اليهودى يحتفظ فى قلبه بأرض اسرائيل طوال آلاف السنين التى قضاها فى المنفى ، فاليهودية وحلة فى سبيل الصهيونية ، وقبلتها صهيون بالقدس ، واذا كانت أرض اسرائيل بأكملها التى ورثناها عن الاسباط الاثنى عشر ليس لها مفهوم جغرافى محدود ، فان القدس لها مفهوم واضح جدا لدى اليهود ، وهى نبراس لهم يحفل بها أدبهم بل والادب العالمى ، وهذا المفهوم فريد من نوعه فيه صوفية خفية وهو محط الآمال ومركز الحنين الذى تتطلع اليه العيون وقد وجه اليهود كل حنينهم وتطلعاتهم وصلواتهم وآمالهم واحلامهم وأساطيرهم للقدس ، فقد أنارت القدس ظلمة حياتهم فى المنفى بنور الامل فى المسيح المنتظر ، وكانت منارا لهم فى دروب الجيتو المظلمة وفى ظل الاضطهاد والقتل ، وأشادوا بالقدس فى روائع قصائدهم بالعبرية وبمائة لغة ولغة يتكلمونها ، وظلوا يتطلعون اليها دائما ، وحاولوا كل الايام العودة لهذه المدينة ، ليبكوا خرائبها ، ويموتوا فيها ويقبرون لدى أسوارها فى جبل المكبر ، ومنها ينتظرون ان يجيئهم الخلاص هم والعالم وفيها سوف يظهر فى آخر الايام المسيح المنتظر ويجعلها أجل من اى قاعدة ملك اخرى ، ومن القدس تصدر التوراة وكلمة الرب .

وليس فى تاريخ العالم مثال لمثل هذه العلاقة بين بلاد ومدن وبين دين ومدينة وبين قومية ومدينة كالتى شهدناها بين أرض اسرائيل والقدس وبين اليهود والمدينة المقدسة وبين الشعب اليهودى وصهيون ، فصهيون سبقت الصهيونية ، والنشيد القومى الصهيونى هو نشيد القدس " عين صهيون تتطلع ان يكون الشعب حرا فى أرض صهيون والقدس " ، ولقد أرسلت يوما مبعوثا للطوائف اليهودية البعيدة فيما وراء جبال الظلام فى القوقاز ، وفى مجاهل اوزبكستان ، وقمم جبال كردستان وسفوح جبال الاطلس وأعرف تماما مكانة القدس لدى اليهود ، جميع اليهود . وعندما كنا معشر الاسرائيليين نغشى المعابد اليهودية ليهود تعليس او كوتايس ، او سوخو او باتوم او دربنت او باكو ، او طشقند او سمرقند وكانوا يعرفون اننا من اسرائيل لم يكن يهمهم هذا كثيرا بل كان اهم شئ يثير مشاعرهم الدينية اننا قدمنا من القدس ، فكنا عندما نقول لهم اننا وفدنا من القدس ، تسرى همهمة بين الجموع ، وتلمع شرارة كهربية بينهم وهم يرددون " من القدس ؟ " وكانت الجموع ترفع عباءة الصلاة (الطليت) امامنا ، كما ترفعه امام سفر التوراة بعد ان يخرجوه من الخزانة المقدسة ، وكانوا يقبلون ايدينا ، تلك الايدى التى لمست حجارة حائط المبكى ، ولو سمحنا لهم لقبلوا اقدامنا التى وطأت أرض المدينة - المقدسة ، ففى القدس ، القدس السفلى ، القدس الواقعة بين الاسوار ، القدس التى يحيطها حائط المبكى ، لم تنقطع منها أبدا ولم تخل أبدا من جالية يهودية مهما كانت ضئيلة ومهينة .

عندما بدأ المشروع الصهيونى منذ حوالى مائة سنة ، كان بناء القدس الحديثة هو حجر الزاوية للمشروع كله ، ولاول مرة خرج يهود القدس عن اسوارها العتيقة وأخذوا يبنون حولها احياء يهودية ، ومن ورائها اخذ ينشئون المستوطنات الزراعية اليهودية ، وفى هذه الاحياء الجديدة قامت مؤسسات الدولة الصهيونية المستقبلة ، المؤسسات التعليمية والدينية والحكم ، والجامعة والحاخامية الكبرى ، واللجنة القومية ، والوكالة اليهودية ، ولم تكن القدس حتى فى ذلك الوقت كسائر المدن ، فقد كان لها مصير فريد من نوعه بان تكون دائما محط آمالهم ومركز تطلعات الاخرين ، من العالم العربى والاسلامى والعالم المسيحى ، وقد عرفنا مقدما ، وقد أدركنا من البداية اننا اذا كنا نريد ان تكون القدس عاصمة مشروعنا وعنوانه فعلينا ان نوطن النفس باننا لن نحكمها كلها ، لان غيرنا ممن يقيمون فيها يحبونها حبا جما ، ويتمسكون بها بكل قوتهم .

لقد كنا نحلم ان تكون القدس مدينة سلام لنا وللبلاد وشعوبها ، وللعالم ، ووضعنا

فى اعتبارنا فى جميع مشروعاتنا السياسية حلولا غير عادية تتضمن تحديد مناطق خارج حدود الدولة تكون مشاعا بين الاديان العالمية ، وكذلك لاشباع الامانى القومية للعرب ، وقد حسم السيف هذه المسألة أيضا بسنة ١٩٤٨ كما حدث فى كل تاريخنا المخضب بالدماء ، وضاع فى الهواء نداء الجماعة الدولية بتدويل القدس وضرورة المحافظة عليها وانقاذها من كوارث الحرب ، وقام عرب فلسطين ومن خلفهم الجيش الاردنى والجيش المصرى بحصار القدس اليهودية ، وأخضعوا المقاتلين اليهود فى الحى اليهودى بالقدس العتيقة ، وأعطوا فيهم القتل والاسر ، وقد صمدنا فى القدس الحديثة اليهودية بجهود تفوق جهود البشر ، وببذل الدماء الغالية ووصلنا بجسم دولة اسرائيل بممر ضيق على حين استولت الاردن على المدينة العتيقة والقدس الشرقية وقسمت المدينة شطرين ، وقد نصب الاردنيون رشاشات وهاونات على اسوارها العتيقة وظلت القدس اليهودية عاصمة اسرائيل طوال عشرين سنة حتى سنة ١٩٦٧ مكشوفة للقاصة وحملة البنادق وحملة الرشاشات ، وكان يحدث ان يطلق جندى النوبة العربى بين الحين والاخر النار على المدنيين الذين يسيرون فى الشوارع الرئيسية ، كما نجد ان مبنى الكنيست وديوان رئاسة الوزراء ومنزل رئيس الجمهورية والمحكمة العليا جميعها على مرمى جنود الفيلق العربى .

لقد سلمنا بهذا الشذوذ الفظيع ، ولكنا لم نسلم بهمجية الفيلق العربى والمملكة الهاشمية ، والتخريب الذى أحدثوه فى الحى اليهودى بالمدينة العتيقة ، فانهم احرقوا المعابد اليهودية التى فيه ودمروها تماما ، وانتهكوا حرمة المقابر اليهودية وجبل المكبر المقدس عند اليهود ، ورفض الاردنيون فى فظاظة طلباتنا المتكررة لمدة ١٩ سنة بان يتيحوا لنا زيارة حائط المبكى فى حراسة جنود الجيش الاردنى حتى نصلى عنده ، دون المساس بسيادتهم ودون ان نطالب باى ممر الى حائط المبكى ودون ان يرفع عليه علم اسرائيل ، وكان هذا كل ما طلبناه ، وحتى هذا القليل لم يمنحوه لنا طوال هذه السنين ، ويجدر بنا ان نذكر كل ذلك عندما يحين الوقت لمناقشة مستقبل القدس .

عشنا فى غيظ والم بهذا الخطر الذى فرض علينا ، حرصا منا الا تسفك انهارا من الدماء ، ويجب الا ننسى انه فى صبيحة الخامس من يونيو ارسل ليفى اشكول رئيس الوزراء رسالة للملك الهاشمى يخبره انه اذا لم يبدأ القتال فى المدينة وقطاع غزة فلن يصيبه اى شر ، ومعنى ذلك ان اسرائيل لن تشن حربا لتحرير القدس العتيقة

فرد الملك الهاشمى بنيران الرشاشات ودانات الهاونات وعندئذ وثب جنودنا على المدينة العتيقة ، وخلصوا بدمائهم حائط المبكى وحرروا المدينة ووحدوها .

وبعد هذا بمدة قصيرة ضمت اسرائيل القدس العتيقة وكذلك القدس الشرقية الواقعة خارج الاسوار طبقا لقرار الكنيست ، وكانت هذه عملية الضم الوحيدة التى قامت بها اسرائيل التى ضمت فيها أراضى لتخومها ، وان كانت رقعة صغيرة لا تتجاوز بضع كيلو مترات مربعة ، ولكن هناك ثلاثة أديان عالمية ومئات الملايين من المؤمنين يرون فيها مكانا مقدسا لهم .

القدس المسيحية

ان القدس مدينة مقدسة لدى المسيحيين ، فقد ولد المسيح فى بيت لحم القريبة للقدس وقد عاش ونشر دعوته فى الناصرة والجليل ، وبلغت حياته ذروتها ونهايتها فى القدس ، وهناك على الهضاب قبالة جبل المعبد ظهر لتلاميذه ، وهناك تناول عشاءه الاخير وهناك قدم للمحاكمة وصدر عليه الحكم ، وهناك صلب ودفن . وفى القدس العتيقة قامت اول طائفة يهودية مسيحية ومنها خرج الرسل لنشر الدين المسيحى بين عباد الاصنام من الاغريق والرومان .

ومما يبعث على الدهشة ان المسيحيين الذين أصبح دينهم عالميا أقاموا فيها خلال القرون التى مرت حتى الغزو الاسلامى عدة كنائس فى القدس تعد من أقدس كنائسهم وأجملها ، وأصبحت القدس قبلة تجتذب آلاف القسس والرهبان والمؤمنين والحجاج المسيحيين .

بعد ان احتل العرب المسلمون المدينة خربت معظم الاماكن المقدسة عند المسيحيين ، ولم يغتفر العالم المسيحى ذلك ، وظل يحاول ان يسترد الارض المقدسة ، وبلغت هذه الجهود ذروتها بالحملات الصليبية ، وعادت القدس وقبر المسيح لايدى المسيحيين لبضعة اجيال ، الى ان استولى عليها المسلمون من جديد وخربوا اماكنهم المقدسة ، وأغلقوها فى وجوههم ، ولم يمض وقت طويل حتى عاد للقدس المسيحيون بكافة مذاهبهم وشعبهم المختلفة ، واستطاعوا ان يبنوا فيها تحت حكم المسلمين مؤسسات دينية التى أخذت تنمو وتتسع على مر القرون . وظلت حقوق المسيحية فى القدس مشكلة دائمة طوال حكم المسلمين ، وفى أواخر الحكم العثمانى

نشبت بسبب ذلك حرب متعددة القوميات هى حرب القرم.

ولدى الاحتلال البريطانى اصبحت القدس مرة اخرى مركزا نشاط وقبلة حج للمسيحية ، وفى الحروب التى نشبت بين اليهود والعرب حرس الجانبان على عدم بمقدسات المسيحيين ، وبعد حرب سنة ١٩٤٨ فتحت اسرائيل والاردن ابوابهما على مصراعيها امام الزوار المسيحيين ومنحوهم حرية النشاط الدينى فيهما .

العالم المسيحى — الكاثوليكى والبروتستانتى والارثوذكسى لم ينظر بعين الرضا الى سيطرة اليهود على فلسطين بعد سنة ١٩٤٨ وبالتالى على الاماكن المقدسة المسيحية واليهودية والاسلامية، ولكن الكنائس المسيحية بكافة مصالحها فى الاراضى المقدسة وفى المدينة المقدسة سلمت بالوضع الراهن ، وسلمت أيضا امام الامر الواقع بحكم اليهود للقدس بأكملها بعد حرب الايام الستة بعد مئات السنين من الحروب الدموية الدينية بين المسيحيين تبخرت روح القتال المسيحية من العالم الغربى وأخلت مكانها لروح القتال القومية ، ولم يعد يظهر فى الافق صليبيون جدد ينقضون علينا ، اوعلى العرب المسلمين لكى يستردوا مقدساتهم ، فان هذه الاماكن المقدسة مفتوحة للجميع والسيطرة عليها فى الواقع فى أيدى الهيئات الدينية المختلفة كل على اماكنه ، وأحيانا تقوم خلافات الى حد سفك الدماء بينها ، حول حقوقها فى الاماكن المقدسة المختلفة ، وتقوم السلطات المدنية غير المسيحية بتسوية الامور بينها .

ان الكنائس المسيحية مدينة الى حد ما للشعب اليهودى لا لان مؤسس المسيحية وتلاميذه كانوا من اليهود ، ولا لان انجيلها مستمد من التوراة ، بل لانهم يعلمون جيدا ان القتلة النازيين ومعاونيهم نبتوا فى احضان الشعوب المسيحية وفى قلب الحضارة المسيحية، وتربوا على التعاليم المسيحية ولم يمنعهم ذلك من ابادة الشعب اليهودى ، ويجب ان ينتاب الكنائس المسيحية الشعور بالذنب لما حدث للقدس العتيقة والمقدسات اليهودية فيها ، منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ .

أين كان العالم المسيحى عندما خرب العرب مقام ربى يهودا الصالح ومعبد الرمبان ، ومعبد ربى يوحنان بن زكاى ، وعشرات المعابد الاخرى فى المدينة العتيقة؟ من احتج على ذلك ؟ من طلب من الاردنيين ان يكفوا عن اعمال التخريب والتدمير؟ ومن احتج على عدم السماح لليهود بزيارة حائط مبكاهم ونواحيهم ؟ ومن احتج ومن اهتم عندما قام الاردنيون بهدم قبور عمرها مئات السنين فى جبل المكبر ، ورصف المعسكرات والمراحيض بشواهدها ؟ اين كان البطاركة والاساقفة والقساوسة والرهبان

على اختلاف انواعهم طوال تلك السنوات ؟ ربما كان الشعور بالذنب هو الذى خلق روح التسامح لدى الفاتيكان وسائر الكنائس المسيحية ، وربما كان مرجعه أن مقدسات المسيحيين فى الأرض المقدسة موجودة تحت رعاية اليهود .

يسود بين البروتستانت وكذلك بين كثير من الكاثوليك شعور بان فى اقامة دولة اسرائيل يتحقق لليهود عدالة تاريخية ، ويتاح لهم ان يعيشوا فى أرضهم فى سلام وهناك عامل آخر لمهادنة الكنائس المسيحية لليهود ان تحققت للمسيحيين فى الأرض المقدسة والقدس حرية العبادة تحت حكم اليهود بصورة لم تحدث منذ عهد بعيد.

ومع كل هذا لا شك ان هناك مصالح مسيحية لها وزنها تعمل لتدويل القدس اوعلى الاقل اتخاذ اجراءات خاصة بالنسبة لاماكنهم المقدسة ، ولا يمكن الاستهانة بالكنائس المسيحية ونفوذها ، ويجب ان تأخذ فى اعتبارنا المصالح المسيحية فى اى تسوية لمشكلة القدس ، والوصول مع الكنائس المسيحية اذا لم تكن هناك هيئة تتحدث باسمهم الى تسوية حول اماكنهم المقدسة فى القدس .

لكن هذه المشكلة رغم الضغوط السياسية المحتملة يمكن حلها بسهولة حلا يبعث على الرضا ، وهى أسهل من مشكلة المسلمين واماكنهم المقدسة فى القدس ، والمشكلة القومية لعرب فلسطين ومركز القدس منها .

القدس والعرب

يعتبر الدين الاسلامى القدس اول القبلتين وثالث الحرمين بعد مكة والمدينة حقا ان محمدا عليه السلام لم يعش فى القدس ولا يحج اليها المسلمون بأعداد ضخمة مثل حجهم الى مكة ، ولكن يكفينا ان المسلمين ربطوا القدس بقصصهم الدينية كما ربطوا بين بيت المقدس وحياة محمد ليجعلوا من القدس مدينة مقدسة لهم. وبنى العرب على جبل المعبد مسجد عمر الفخم ، وهناك أيضا المسجد الاقصى ، وهو من أقدس المساجد فى العالم الاسلامى ، واعتبرت القدس مدينة لملايين المسلمين منذ أكثر من ١٣٠٠ عام ، واستبسل المسلمون فى الاستيلاء على المدينة من أيدى المسيحيين الكفار ثم عادوا وقاتلوا من أجل احتلالها وفعلوا فيها ما فعله المسيحيون فأقاموا بالاضافة للمسجدين الكبيرين روائع فى فن العمارة للدين والتعليم ، كما قدسوا قصورها وأحاطوا

آثارها وقبورها بهالة من القداسة بما فى ذلك قبور يهودية قديمة ، كما انهم اعادوا بناء اسوارها ، وأنشدوا فيها الاناشيد المقدسة ، وتحدثوا عن عظمتها وأمجادها وبطوها بالآخرة ، كاليهود والمسيحيين كما انهم يتألمون لان اليهود الكفرة يسيطرون على اماكنهم المقدسة .

يجب علينا فى أى تسوية سلام ان نمنح الاماكن الاسلامية المقدسة فى مدينة القدس ، ولاسيما المساجد التى على جبل المعبد ، وضعا خاصا ، اى حق ان تدير شئونها بصورة مستقلة وحرة تقوم بها الهيئات الدينية الاسلامية دون تدخل من جانب دولة اسرائيل .

وعلينا ان نوافق عن طواعية على هذا الوضع الخاص ، ورغم ان دينا آخر أقام مقدساته فى قدس أقداسنا (وهو أكثر الاماكن قداسة لدينا) ، فاننا لن نفعل مافعله الاخرون فينا وفى مقدساتنا ، ولن نسلك سلوك الاديان الكبرى الاخرى مع مقدسات الاديان الاخرى عندما يحتل المؤمنون بها تلك البلاد ، فلن ندمر مقدسات احد كما فعل المسلمون عندما خربوا الكنائس المسيحية او حولوها لمساجد (الاقصى وأيا صوفيا فى استانبول واماكن عديدة أخرى) اوكما فعل المسيحيون الذين كالوا للمسلمين بنفس الكيل ، فاننا لن نمس ولن نخرب ولن نغير مقدسات الاخرين ، ولن ننتقم من مقدسات المسلمين لان العرب انتهكوا حرمة مقدساتنا فى سنة ١٩٤٨ ، سنعيد امجاد القدس اليهودية العتيقة ولكنا لن نمس الاماكن المقدسة للآخرين ، ولحسن الحظ انه ليس هناك جدل حول هذا فى الدين اليهودى الذى يرى ان انشاء معبد هو عمل الهى لادخل للبشر فيه ، وليس للاشخاص الفانيين ان يتدخلوا فيه .

ولكن مشكلة القدس المعقدة لاتحل بحل مشكلة الاماكن الاسلامية المقدسة . لان علينا أن ندرك ان القدس العلمانية هى أكثر من مجرد مدينة بالنسبة لعرب فلسطين . حقا ان القدس لم تكن أبدا مدينة علمانية هامة فى الامبراطورية العربية ، فان دمشق وبغداد والقاهرة وغرناطة وفاس ومراكش كانت اهم منها بكثير ، وحقا ان القدس كانت من الناحية الادارية مدينة صغيرة ، واقليمية تحت حكم العباسيين والامويين ، وتحت حكم الفاطميين والايوبيين والمماليك والعثمانيين ، ولم تكن مقر حكم ، ولم تقم فيه هيئات حاكمة ، ولم تعسكر فيها جيوشهم ، ولم تقم بها المدارس العظيمة التى يفخر بها العرب . وكانت القدس فى جميع هذه المجالات على هامش الامبراطورية العربية .

لكن علينا الا ننسى انه منذ حوالى مائة سنة أصبحت القدس مدينة هامة لدى العرب ، لا بسبب الاماكن المقدسة التى فيها ، بل كمركز للحركة القومية لعرب فلسطين وكلما دعم اليهود مركزها فى المشروع الصهيونى حاول العرب أيضا ان يفعلوا ذلك ، وقد انطلقنا خارج اسوار القدس العتيقة وبنينا أحياء عصرية وسار العرب فى أعقابنا وأنشأنا فى القدس مؤسسات الدولة المستقبلة : اللجنة القومية ، والوكالة اليهودية ، والجامعة العبرية فأقام العرب اللجنة العربية العليا التى ضمت أعظم شخصيات العرب وزعمائهم . وبعد حرب سنة ١٩٤٨ وتقسيم القدس حدث تغيير جوهرى فى الوزن السياسى للقدس العربية ، فقد بذلت المملكة الاردنية كل مافى وسعها لتنمية عاصمتها عمان وتكبيرها ورفعها وجعلتها عاصمة الضفتين الغربية والشرقية ، ولم يعد للقدس وضع خاص يتصف بالصفة الرسمية فى المملكة — وأصبحت مجرد مدينة — كسائر المدن . أدت هزيمة الاردنيين فى القدس فى حرب الايام الستة واحتلال اسرائيل للمدينة بأكملها وضم القسم العربى لاسرائيل الى اشعال النار فى قلوب العرب ، نارا تنهل من المشاعر الدينية والشعور بالهوان لان مقدساتهم وقعت فى أيدى اليهود الكفرة من ناحية ، ومن ناحية أخرى من المشاعر القومية التى تجعل للقدس اهمية قومية علمانية من الدرجة الاولى .

كان الهدف واضحا لدى زعماء حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة والثورة الفلسطينية وهو ازالة اسرائيل كدولة واقامة فلسطين العربية مكانها ، وعندما يتحقق الهدف ، لا تعود القدس عاصمة اسرائيل اليهودية وتصبح عاصمة فلسطين ، اما عرب فلسطين المعتدلون وزعماء الاردن فمما لا شك فيه انهم يبغون عودة الوضع الى ما كان عليه وتقسيم القدس لشطرين بين الاردن واسرائيل كما كان الوضع قبل حرب الايام الستة . ان مشاعر العرب عامة وليس عرب فلسطين وحدهم نحو القدس مشاعر جارفة . ويمكننا ان نشعر فى حديثنا مع زعمائهم ومع الافراد العاديين شدة تعلقهم بالقدس ، قدسهم لقداستها فى الاسلام ومركزها العلمانى لدى العرب ، ونجدهم ينزلقون لهوة اللامعقولة .

ونحن الذين عزونا الى القدس مركزا خاصا ولا عقلانيا منذ آلاف السنين ، يجب علينا ان نحاول ان ندرك نظرتهم لهذه المدينة وعلينا الا نستهين بهم عندما يتحدثون عنها بشوق ولهفة .

مستقبل القدس

فى مسألة القدس هذه المسألة العسيرة المعقدة التى تنطوى على مشاعر لا معقولة ، علينا ان نقول كلاما واضحا : ان القدس اليوم مدينة متكاملة وموحدة وقد أصبحت عاصمة دولة اسرائيل وسوف تظل كذلك ، وقد كانت حرب الايام الستة مقسمة لشطرين (وان كنا لم نسلم أبدا بخطر الاقتراب من حائط المبكى والحى اليهودى من المدينة العتيقة ، والاماكن الاخرى المقدسة لدى اليهود) ولن نعود للتسليم بذلك ولن تعود هذه المدينة الى التقسيم ، ولن يحكمها حاكمان ، ولن نعيد اليها حكما علمانيا عربيا ولن نعرض مرة أخرى شوارعها ومبانيها وسكانها ومؤسساتها للقناصة وحملة الرشاشات ، ويجب على عرب فلسطين ان يدفعوا هذا الثمن الغالى مقابل السلام معنا بأن تكون القدس مدينة موحدة تحت حكم اسرائيل .

ويبدو انه يمكننا ان نكتفى بان نقول للعرب : اما عن القدس بالنسبة لكم ، فان المسلمين يستطيعون ان يصلوا كما يشاءون فى مساجد القدس ، ولدى العرب ١٥ عاصمة زاهرة فى دولهم ، ولكن شاء القدس ان يكون للقدس وضع خاص ، فهى ليست لليهود وحدهم ولم تكن فقط مدينة داوود وسليمان واشعيا وارميا ومدينة الحشمونائيين وهورودوس واتباع باركوخبا ، ورجال التلمود الاورشليمى ومدينة الرومان وربى يهودا الصالح (وكذلك مدينة واحد من أجدادى وهو ربى مردخاى اتيجر من رجال جماعة " حيد " الذى هاجر اليها منذ خمسة أجيال ودفن على جبل الزيتون وانتهك العرب حرمة قبره فأعادت الاسرة بناءه) كما انها مدينة آلاف اليهود من حماة الاسوار من الايشاريين والسليمانيين والرائيين وبناة المدينة وحماتها من الصهيونيين الذين قاتلوا منذ مائة عام ومدينة رجال المظلات الذين سقطوا عند اسوارها فهى مدينة الشعب اليهودى بأكمله .

وشاء القدر أن تكون القدس مدينة عيسى وبطرس والآلاف من المسيحيين الذين بنوا فيها كنائسهم وجددوها وأذاعوا اسمها فى الخافقين ومدينة الرهبان والكهان والاحبار من عشرات المذاهب المسيحية .

والقدس أيضا مدينة العرب من جنود خالد بن الوليد ، واسامة بن زيد ومدينة عبد الملك بن مروان ، الذى بنى المسجد وملوك بنى امية الذين بنوا القصور الفخمة

ومدينة صلاح الدين وجنوده ، ومدينة سليمان المعظم الذى بنى السور ، ومدينة الحسنيين وأسرة النشاشيبى والخالديين وأسرة نسيبة ، ومدينة آلاف العرب من المسلمين والمسيحيين الذين عاشوا فيها وعملوا فيها وقاتلوا وسقطوا دفاعا عنها .

هذه هى القدس ، ليس لها مثيل فى العالم قديمه وحديثه فى تاريخها ومآسيها وليس لها مثيل فى المصاعب التى قد تنجم عن أى حل لمشكلاتها ، وليس امامنا خيار ، ويجب علينا ان نفكر فى مشكلة القدس وان نبحث لنجد حلولا غير عادية ، ولكى نحاول ان نرضى ايضا المشاعر الدينية للمسيحيين والمسلمين والمشاعر القومية للعرب .

يمكن ان نحل المشكلات الدينية على غرار الفاتيكان أى باعتبار المكان المقدس محدود بمساحته وعلى انه موجود فى مدينة علمانية يحصل منها على جميع الخدمات البلدية ولكن له سيادة بصورة رمزية ، وتدار اموره بشكل مستقل على أيدى الكهنة والاحبار ، ولكن الصعوبة بالنسبة للاماكن المقدسة المسيحية هى اننا لا نجد هيئة مسيحية عالمية واحدة يمكن ان نعهد اليها بادارة الاماكن المقدسة ومن يعلم اذا كانت ستكون مثل هذه الهيئة .

اما عن المشكلة الاسلامية العربية التى تتألف من عناصر دينية وقومية ، ولذلك فهى أكثر حساسية وتعقيدا ، ويمكن ايجاد حل لها يمنح ممرا للفلسطينيين من الدولة العربية الفلسطينية التى ستقوم بعد السلام وستكون حدودها قريبة من القدس ، وينتهى هذا الممر فى منطقة المساجد الكبرى ، وتستطيع الدولة العربية ان تدير ادارة مستقلة ذات سيادة المؤسسات الدينية الاسلامية العليا والاماكن المقدسة ، وترفع على مبانيها اعلامها ويعلقون عليها لافتاتهم ، ويشعر المسلمون والعرب فى هذه المنطقة انهم فى ديارهم .

وهناك مشكلة حضرية فى اساسها وهى مشكلة المدن العربية بيت لحم فى جنوب القدس ورام الله فى شمالها ، والمتاخمة للقدس الاسرائيلية ، وحل هذه المشكلة يتطلب خيالا وخروجا عن الروتين وسننتظر لايجاد طريق يمكن بها ان تنتفع هذه المدن والقدس بخدمات مشتركة ، وايجاد هيئات عليا لذلك للمحافظة على السيادة السياسية المستقلة لها .

ولكن مع هذا يجب ان نوضح للمسلمين والعرب ولا سيما عرب فلسطين والعالم اجمع : اننا لحل مشكلة القدس لا نستطيع الا ان نصل فى نهاية الامر الى عملية تسليم وسلام مع عرب فلسطين وليس فى البداية .

وأى مشروع حل قبل اتمام العملية لن ينجح ، وأى ابطاءة تاريخية منا ، يمكن ان تصبح " حصان طروادة " . وعندما نجد الطرف الثانى الذى سيعقد سلاما حقيقيا معنا على أساس مبدأ " دولتان للشعبين " وبعد ان نتحدث عن نزع السلاح من الضفة الغربية نزعا تاما ، ونصل لاتفاق حول ضمانات نزع السلاح ، عندئذ فقط نستطيع ان نتفاوض حول حلول خاصة للقدس ، كما انه يجب عن نفس الوقت أن نوضح للمسلمين والعرب نوايانا من الان واستعدادنا أن نمد يدنا لهم بهذا الشأن الذى يعد عزيزا علينا وعليهم وعلى العالم كله .

الصلح الأكبر

اننا نواجه شعبا مغلوبا على أمره ومنقسما - نصفه من اللاجئين وقسم منه تحت حكم احتلالنا وقسم منه مضطهد فى الدول العربية وزعامته دائما متنازعة فيما بينها ، فى حين ان حركته الارهابية اصابها الجنون وقد استولت احلام اليقظة على زعمائهم ، فهم يحلمون بدمار اسرائيل وتستغلهم الدول العربية وبعض الدول الكبرى كأدوات لتحقيق سياستها ، وامام مثل هذا الواقع من السهل القول بان اعلان اسرائيل بحق عرب فلسطين فى تقرير مصيرهم وفى الحكم الذاتى وعن استعدادنا لاقامة دولة عربية فلسطينية مستقلة ذات سيادة ، هو اعلان سابق لاوانه وغير واقعى وامام فكرة الدولتين الصغيرتين فى المساحة نسبيا والكبيرتان فى الموارد البشرية تعيش الواحدة منهما بجانب الاخرى فى سلام ، وتستطيعان ان تستوعبا حتى نهاية القرن ملايين السكان وتكونان كبلجيكا وهولندا وتتعاونان فى التنمية الاقتصادية والتجارية والثقافية والعلمية وتكونان معا جسرا لاتحاد دول اقليمى أكبر يتاخم الاتحادات الاقليمية فى أوربا وآسيا وافريقيا ، امام مثل هذه الفكرة من السهل القول بان هذا حلم خيالى وبناء قصور فى الهواء . ومن الاسهل القول كما يقول الكثيرون منا : انه لن يكون هناك سلام ابدا بيننا وبين العرب ، وان ما يجب علينا ان نعمله هو ان نتقوى ، وان ننجز حقائق فى المناطق المحتلة وان نكسب وقتا .

ولكن هذا اتجاه متشائم وعقيم من اساسه ، لقد كانت هناك فى الماضى منازعات مريرة بين شعوب وسفكت فيها دماء أغزر مما سفك فى صراعنا مع العرب ، واستمرت وقتا أطول مما استمر النزاع فى منطقتنا فقد ظل الانجليز والفرنسيون يتقاتلون طوال قرون عديدة ، وسقط الملايين فى هذه الحروب ، وفى النهاية تعبوا من القتل وعقدوا سلاما كما وجدنا الامريكيين واليابانيين يعقدا صلحا بعد بيرل هاربور ، وهيروشيما ، كما اننا معشر اليهود قد سالمنا الالمان من أبناء واخوة قتلة الشعب اليهودى ، فلماذا لانصدق بانه سيأتى وقت " الصلح الاكبر " بيننا وبين العرب وتنتهى الحرب بيننا ، واذا سأل سائل : هذا جميل ، ولكن ماذا نفعل غدا ؟ والرد عندى هو : اذا كنا لانستطيع ان نعقد السلام فورا ، فانه يجب علينا ان نحاول تقريبه ، وان نقترب منه ، وقبل كل شئ بالكلمة ؟ فالعالم قد خلق بالكلمة ، وكذلك السلام بيننا وبين العرب سيخلق قبل كل شئ بالكلمة ، وعلينا الا نسكت ونهمهم ، بل يجب علينا ان نحاول ان نتكلم مع كل من يدعى انه يمثل عرب فلسطين ومعهم جميعا ، ويجب ان نوجه كلامنا لعرب الضفة الغربية وقطاع غزة الذين فى أيدينا وكذلك لعرب المملكة الاردنية وللمخربين الذين فى سجوننا وكذلك لشباب عرب فلسطين فى الدول العربية وأوربا ، وحاشا لنا ان نكف عن المحاولة ، لاننا لم نحاول بما فيه الكفاية ، وسوف نزرع فى البداية على صخر اصم عقيمة ، ان طريق محاولة الكلام سوف نصادف فيها كثيرا من خيبة الامل ، ولكن ليس امامنا خيار ولابد من السير فيها .

فاذا تكلمنا وقصصنا كلامنا يحتمل ان نجد شركاء يتفاوضون معنا يحتمل ان يكونوا من عرب شرق الاردن ، واذا استجاب لنا ممثلون لعرب فلسطين سيكون هؤلاء من عرب الضفة الغربية وقطاع غزة او من الزعماء الشبان الذين نشأوا وترعرعوا فى حركات المقاومة المسلحة .

يجب علينا أيضا ان نثير مثل هذا الكلام بين عرب فلسطين الذين فى المناطق المحتلة فيما بينهم وبين انفسهم ، وان نمنحهم حق الاجتماع وحرية الاجتماع والحوار معنا ، وان كان مريرا ، فاننا لانبغى أنه فى نهاية الصراع حول الارض ان نعيش فى جوار شعب ذليل من عرب فلسطين أذلاء ، كالعبيد ، بل مع أشخاص منتصبى القامة مزهوين ، ودورنا فى انتصاب قامتهم ليس معناه التساهل فى محاربة من يحمل السلاح منهم ضدنا ، بل باعطاء صبغة رسمية لحقهم البدهى فى الحكم الذاتى وفى دولة مستقلة ذات سيادة خاصة بهم .

اسرائيل ومصر

المشكلة الكبرى والخطيرة

اذا كانت مشكلة عرب فلسطين هى أصعب المشكلات وأكثرها مأساة فى النزاع بيننا وبين العرب وحلولها طويلة المدى ، فان النزاع والحرب بيننا وبين المصريين أكبر مشكلة من ناحية القوى المشتركة فيها ، وأخطرها على المدى القصير ، وتنطوى على أخطار قوية من الناحية الاقليمية والدولية.

نجد ان جيش اسرائيل يقف على ضفة قناة السويس شريان الحياة لمصر ، وهى أكبر وأقوى الدول العربية ، ومصر تقف فى مواجهة اسرائيل ، وتمتلك جيشا جرارا مزودا بأحسن الاسلحة السوفيتية الحديثة ، وتحتفظ اسرائيل بشبه جزيرة سيناء كقاعدة عسكرية عصرية ، وقد تمركز السوفييت بمصر ، هذه هى جميع عناصر المشكلة الاسرائيلية المصرية ، ويشكل كل منها كما تشكل مجتمعة نقط اشتعال اقليمية ودولية وبين الدول الكبرى ، ومن هنا كانت حساسيتنا الزائدة ، وحساسية مصر والعالم بالنسبة لحلبة الخلاف هذه ، ومن هنا كانت الجهود الدولية لمعالجة الموقف ومحاولة تفريغ — ولو تفريغا مؤقتا وجزئيا — هذا البرميل من البارود . ان ماضينا القديم يرتبط ارتباطا وثيقا بمصر ، فقد نزح اليها آباؤنا الرعاة من أرض كنعان التى أصابها القحط ، وفى وادى النيل ذو الحضارة الاصيلة وصل يوسف الى منصب الوزارة فى بلاط فرعون وأصبح وزيرا له ، وبها عاشت أجيال عديدة من بنى اسرائيل ، وفيها ذاقوا لاول مرة طعم العبودية والعذاب والاستبداد ، وفيها تحت ضغط المصريين كون العبرانيون الاوائل لاول مرة طائفة يهودية ناضجة ، وبها ولد موسى أعظم أنبياء اسرائيل ، وتعلم فى قصورها ، وعمل فى مدنها ، وارتحل فى صحاريها وتأثر بحضارتها .

وفى طريق عودتنا منها الى أرض اسرائيل وقع اهم حدث تاريخى فى تاريخنا ، وهو الخروج من مصر ، هذا الحدث الذى أشادت به التوراة وأضفت عليه جلالا وعظمة أكثر مما تستحقه رحلة بضعة اسباط نحو الشمال ، ووجدنا صدى هذا الحدث على مر الايام فى أدبنا ، وفى أديان وآداب العالم ، وأصبح خروج اليهود من مصر رمزا لتحرر الانسان والتطلع للانطلاق والحرية.

بعد ان أقام العرب دولتهم فى فلسطين أنشأوا علاقات مع جارتهم الكبرى فى الجنوب ، وكانت العلاقات بين مصر وفلسطين الصغيرة معقدة دائما بسبب وقوع اسرائيل على الطريق الذى سار فيه الفراعنة للقتال عن مصر وحمايتها ، وفيها سار ملوك الشمال العظام لمحاربة مصر واحتلالها .

كانت فلسطين تقع على مفترق الطرق فى الشرق القديم ، ولذلك كانت تسعى للارتباط بمصر او بأعدائها ، وكان احيانا يقوم خلاف بين الساسة الواقعيين وبين الانبياء خلافات حول الارتباط بمصر او محاربتها ، او الدخول فى احلاف معها او ضدها وقد رأينا سليمان يعقد صلات مصاهرة مع ملك مصر ويعقد حلفا معه ، ووجدنا صدقياهو لا يستمع لنصح ارميا بعدم الاعتماد على مصر ، فى نضاله ضد بابل ، وجلب بذلك الخراب للهيكل الاول .

ومرت الايام وانتقلت مصر وأرض اسرائيل الى أيدى الغزاة الغربيين ووقعت كلتاهما تحت نير الاستعمار الافريقى والرومانى ، ومنذ أيام الهيكل الاول ، وفى أيام الهيكل الثانى كان فى مصر جالية يهودية ، وكان فيها مستوطنات من الجنود اليهود الذين كانوا يعملون فى خدمة ملوك مصر فى حصون الحدود ، ووجدت طوائف يهودية تحت حكم ملوك البطالسة ، واباطرة الروم وبيزنطة ، وبعد احتلال العرب لمصر منذ حوالى ١٣٠٠ سنة ، وبعد ان اعتنق معظم السكان الدين الاسلامى ، ظل اليهود فيها ، وقد عملوا واشتهروا فى أيام الاسر الحاكمة العربية الكبرى فى ميادين الحياة المختلفة ، فى الطب والعلوم والادارة والفلسفة والبحث ولما كان اليهود أقلية حضرية غير مسلمة فى مصر عانوا الكثير من الحكام العرب والمماليك والعثمانيين ، ولكن وجد الكثيرون منهم فى مصر ملجأ وملاذا .

منذ أوائل القرن التاسع عشر فى عهد محمد على مؤسس مصر الحديثة أخذ كثير من اليهود يفدون الى مصر ويقيمون فيها طوائف كبيرة وهامة ، ولا سيما فى القاهرة والاسكندرية.

وفى منتصف القرن الماضى قامت الحركة القومية المصرية الحديثة وهى فى طليعة الحركات القومية فى العالم العربى ، وكان امام مؤسسيها مهمة ضخمة ، هى التحرر من نير الاستعمار التركى والبريطانى والحصول على الاستقلال لبلادهم ، ومنذ قيام الحركة القومية حتى الان كانت تتضمن تيارات متعارضة ونشأت خلافات بين من يتطلعون لعروبة

لم يخطر على بال اليهود فى بداية مشروعهم الصهيونى فى البلاد انه سيكون لهم مسألة حياة او موت مع مصر ، وقد أدركوا الان ان الخطر العسكرى الاساسى الذى يتربص بكيانهم هو من هذا الجيش الكبير الحديث وحشدوا ضده معظم قواتهم ، وعندما هزمت "عصابات الصهاينة" جيش مصر الهش عند المشارف الجنوبية لتل أبيب والقدس وردته الى داخل سيناء ، ظهر ان الضربة التى تلقيها مصر أكبر أضعاف المرات عن الضربة التى تلقتها أى دولة عربية أخرى وأثارت الهزيمة والضربة التى لحقت مصر كوامن الكراهية والرغبة فى الثأر من اليهود الذين مرغوا كرامة الشعب المصرى فى التراب وولد حساب النفس والاحباط والخزى والعار اوعجل بقيام ثورة الضباط الحرار فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وعزل الملك واعلان الجمهورية فى مصر ، وارتقاء عبد الناصر الحكم .

وأنا اليهودى أقول .. كان عبد الناصر عملاقـــا
أخطأنا .. فانسحبنا من سيناء وقطاع غزة عـــام ١٩٥٧

لقد أسفرت نتائج حرب ١٩٤٨ عن زيادة التدخل المصرى فى الصراع الاسرائيلى العربى . فقد وجد الحكام العرب الجدد كبش فداء ، لهزيمة الجيش المصرى ، فحملوه المسئولية : انه الملك فاروق ومستشارو نظام حكمه الفاسد ، فهم الذين يحملون على اكتافهم اثقل أوزار المسئولية .. انهم لم يعدوا الجيش المصرى للحرب ، بل شجعوا على الفساد وأدخلوا فى جيوبهم أموالا كانت معدة لشراء السلاح ..

فى عام ١٩٤٨ ، وجد المصريون - لاستغرابهم - ان اسرائيل تقف امامهم دولة صغيرة ولكنها عصرية ، وتملك جيشا له من الكفاءة الحربية وقوة الضرب الخاطف ، مايمكنها من تهديد قلب مصر . فتوغل قوات جيش الدفاع الاسرائيلى الى داخل سيناء باتجاه العريش ، وحقيقة انه " لولا تدخل الانجليز والامريكيين لاستطاع الجنود الاسرائيليون آنذاك احتلال شبه جزيرة سيناء بأسرها " - كل هذا أثبت لمصر بانها بدلا من ان تستطيع تدمير اسرائيل فان اسرائيل قادرة على غزو الاراضى المصرية من نفس الاتجاه ومن نفس الطريق التى كان المصريون يحسبونها - تاريخيا - بانها أمثل طريق لغزو بلادهم .

وثمة عامل آخر لتدخل مصر المتزايد فى النزاع ، هو حقيقة ان مصر ظلت تسيطر على

مصر وينادون بسيادة مصر على العالم العربى ، وبين الذين يفضلون التمسك بمصرية مصر . ووقع زعماء الحركة القومية المصرية فى مازق ، اذ كيف يوفقون بين الاسلام وبين القومية الحديثة ، وكانوا يدركون ان مشكلة مشكلات مصر هى مشكلة داخلية ، ومحددة وهى الارتقاء بدولة فريدة من نوعها يعيش ٩٠ ٪ من ابنائها مكتظين اكتظاظا فظيعا على ضفتى النيل وتحت رحمته .

حقا كان لمصر الحديثة تطلعات توسعية ولاسيما لتأمين تخومها واجنابها ، وقد حدث هذا فى أيام محمد على وابنه ابراهيم اللذان احتلا فلسطين وسوريا على التخوم الشمالية لمصر ، كما حدث فى العهود التى أعقبت ذلك عندما اتجهت لاحتلال السودان على تخومها الجنوبية ، ولكن زعماء مصر الحديثة وجهوا معظم جهودهم للتخلص من نير الاجانب .

كانت نظرة زعماء الحركة القومية المصرية وأبناء شعب مصر للمشروع الصهيونى فى بداية نظرة لامبالاة أكثر من زعماء حركة القومية العربية فى سوريا وفلسطين ، وحتى بعد وعد بلفور وأحداث سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٦ بعد ان زاد تورط الحركات القومية العربية والدول العربية فى مشكلة النزاع اليهودى العربى لم تسارع مصر ، بل كانت تدفع دفعا بفعل القوة المركزية العربية الى حلبة النزاع العربى اليهودى . لما كانت مصر أكبر الدول العربية فقد أخذت على عاتقها ان طوعا وان كرها ، عن قصد او غير قصد مهمة زعامة النضال العربى ضد المشروع الصهيونى .

حقا ان مصر رأست الجامعة العربية ولكن زعماءها لم يتطرفوا فى كراهيتهم للصهيونية الى حد الجنون مثل الفلسطينيين والسوريين والعراقيين ، ولم ينجم هذا الموقف عن محبة اليهود والصهيونية (وان كانت مصر متسامحة جدا مع الحركة الصهيونية التى قامت بين الاهالى اليهود) بل عن عدم مبالاة لان المصريين كانوا مشغولين فى نضالهم من أجل التحرر القومى وفى مشاكلهم الخاصة .

وقد دخلت مصر الحرب ضد اسرائيل فى سنة ١٩٤٨ عن قصر نظر وسوء فهم وخطأ فى تقدير قوة اليهود ، وكان عرب فلسطين وسائر العرب كلهم أمل ويتوقعون المعجزات من ارتال المدرعات والمدفعية المصرية التى عبرت القناة شرقا ، وأخذوا يسيرون شمالا فى حملة حربية ، وكانت أول حملة حربية مصرية مستقلة بعد حروب محمد على وابراهيم باشا .

قطاع غزة ، وأبقت تحت حمايتها مئات الالاف من العرب الفلسطينيين أغلبهم مــن اللاجئين المتراصين فى القطاع الضيق ، وهو مالم يخطر لها على بال عنده ما انطلقت لـ " مساعدة الاشقاء " . لقد ظل المصريون داخل حدود اسرائيل الغربية الانتدابية الماضية ، وفى حين كان قطاع غزة بمثابة حربة مسلطة الى قلب اسرائيل ، فقد كــان الجيش المصرى داخل القطاع يكاد يكون مكشوفا من جميع اجنحته .

حقيقـة مشكلـة مصـر
فى رأى عبد الناصر

فى بداية سيرته عمد جمال عبد الناصر الى عمل الحساب مع نفسه والى عمل حساب مصر . ومن المحتمل انه لوكان قد قرر لمصر اهدافا اجتماعية وبرز على تحقيقها ، لما بلغ وضع مصر ـ بعد وفاته ـ هذه الدرجة من السوء . ومهما يكن من أمر فمن الواضح ان جمال عبد الناصر أدرك فى بداية سيرته ادراكا تاما ، وقد أكد ذلك قولا وكتابة بان الخطر الحقيقى الذى يهدد بلاده ليس هزيمة على يد اسرائيل ، وانه بعد ان ينتقم من اسرائيل ويطرد الانجليز من بلاده فان زعماء الشعب المصرى سيواجهون مهام جليلة . لقد علم حق العلم ان المشكلات الاساسية هى التخلف والفقر وازدحام السكان والمرض والامية ـ هذه الاوباء التى يعانى منها الشعب المصرى . وانه ينبغى اولا وقبل كل شئ ، معالجة العمود الفقرى للشعب المصرى ـ معالجة اوضاع الفلاحين الذين كانوا دائما ابدا يشكلون الاغلبية الساحقة من الشعب المصرى .

لقد كانت تلك مهمة نبيلة : رفع الحيف التاريخى الذى دام خمسة آلاف سنة والذى أدى الى جعل الغالبية الكبيرة من سكان مصر فلاحين مستعبدين ، كل مصدر رزقهم هو النيل ، والذين يحكمهم حكام طغاة ظالمون ، واحيانا غزاة ومحتلون أجانب ـ ان هذه المهمة النبيلة تطلبت تركيز جميع الجهود والطاقات من جانب جماعة الضباط الاحرار التى استولت على مقاليد الحكم لقد كانت هذه المرة الاولى طوال مئات السنين ، التى لم يكن فيها الحكم فى مصر بايدى حكام من المماليك او الالبانيين أو الشراكسة او الاتراك او الاوروبيين المستعمرين ، وانما كان الحكم بأيدى مصريين أقحاح ، أصلا ومنبتا .

لقد أراد جمال عبد الناصر ان يختصر الطريق ، ولذلك قرر ان يعكف فى وقت واحد على معالجة المشكلات الجذرية الداخلية ـ الصحة والتعليم والزراعة والاصلاح الزراعى واعمار المدن والصناعة وما أشبه ذلك . وان يعمل كذلك على تحقيق اهداف امبريالية مصرية واقامة جيش عصرى كبير ، والانتقام من اسرائيل وتدميرها ، وجعل مصر مركز نفوذ شاملا رئيسيا فى عالم " الدوائر الثلاث " الذى يدور فى مدار حول مصر ـ العالم العربى والافريقى والاسلامى .

مهمـة طمـوح .. ولكن

ان هذه المهمة الطموح تسببت فى بعثرة القوى المعنوية والجسدية والموارد القليلة التى يملكها الشعب المصرى ، فى اتجاهات كثيرة مختلفة ، كالذى يريد ان يمسك بيده عدة كرات فى آن واحد فلم يمسك فى النتيجة حتى كرة واحدة !

فبدلا من أن يبنى هرم مصر الحديثة من الاساس وان يجعل هذا الاساس واسعا مسبوكا من الاسمنت المسلح ، أقام جمال عبد الناصر على عجل هرما ذا قاعدة رقيقة جدا . كان الاسمنت العقائدى الذى لصق ما بين أجزائه ليس من نوع واحد : كان هناك شك مصرى وشك عربى شامل ، وشك افريقى وشك اسلامى وشك اشتراكى فى حين ان البناء جميعه ينوء تحت ثقل هائل من جهاز حكم عسكرى .

كان عبد الناصر عظيما ..

وليس فى الامكان القول بان جمال عبد الناصر لم يعط لشعبه وللعالم العربى شيئا .. فالعكس هو الصحيح .. لقد أعطى جمال عبد الناصر ـ أولا وقبل كل شئ ـ شخصيته الزاهرة اللامعة المعتزة ، ولأول مرة ، منذ عهد الخلفاء الراشدين العظام ، قام زعيم عربى رفيع الشأن طبقت شهرته الافاق ، استطاع ان ينقل صوت مصر وصوت العرب الى العالم ، والتقى مع رؤساء الامم وزعمائها ندا لند وعلى قدم المساواة . وفى مزيج من الشجاعة والحذق والقدرة على استغلال الاوضاع الدولية أفلح فى تحرير مصر من نير البريطانيين ، وطوال زمن مديد أحسن لعبة الشطرنج الدولى وعلى مستوى الدول الكبرى . فقد نجح عبد الناصر فى ان يقلب الهزائم العسكرية ـ كحرب ١٩٥٦ ـ فيجعل

منها انتصارات نفسية كبيرة ، وبالنزر اليسير من القوة والوقت اللذين توفرا له قام بأعمال فى ميادين التطوير والتعليم والصحة .

ولكن ، ومع كل ذلك ، فقد كان الميزان العام لمشروع حياته سلبيا ، والسبب الاول فى ذلك هو كثرة الاهداف التى وضعها نصب عينيه دون أن يقرر لها سلم أفضلية ، فالمهام الجسيمة التى أخذها على عاتقه _ جهاز اشتراكى كبير ، زعيم العالم العربى ، زعيم افريقى زعيم معسكر الدول غير المنحازة العالمى ، صلاح الدين حديث يتولى مهمة قسم ظهر الصليبيين الجدد _ الصهيونيين _ كل هذه كانت مهام كبيرة وثقيلة حتى بالنسبة اليه ، وقد ناء تحت وطأتها .

ولم يلبث جمال عبد الناصر حتى " أفلح " فى توريط مصر فى صراع مع اسرائيل أكثر مما كانت متورطة فى هذا الصراع من قبل . أن عظمة الرجل وحقيقة كونه أصبح الزعيم المحبوب لعشرات الملايين من العرب خارج مصر اكسبته مكانة فاصلة فى كل شأن يتعلق باسرائيل . وفى اختياره طريق الانتقام والحرب أصبح جمال عبد الناصر " عدو اسرائيل رقم واحد " ، وقد كان قطاع غزة بالنسبة اليه قاعدة امامية لمهاجمة اسرائيل . فلقد بدأ بتقديم الدعم دون ما تحفظ وبشكل فعال لحركة " الفدائيين " ، وعندما بدأ فى أواسط الخمسينات بتجهيز جيشه بأحسن أنواع السلاح السوفييتى ، وأخذ يتعرض لنا فى مضايق تيران ، انزلنا به ضربة فى عام ١٩٥٦ واحتللنا شبه جزيرة سيناء .

ليتنا لم ننسحب !

ومنذ الخامس عشر من مايو ١٩٦٧ وعندما ركز جمال عبد الناصر جيشه العرمرم مقابل اسرائيل ، أصبح انسحابنا من قطاع غزة ومن سيناء فى عام ١٩٥٧ يذكرنا بالخطأ الفادح الذى ارتكبناه : لقد أثبتنا فى هذا الانسحاب اننا لانتطلع الى التوسع ، وقد اعدنا المناطق التى احتللناها ، جميع المناطق دون اى اتفاق مع جمال عبد الناصر . ولكن ماذا حدث ؟ هل أصبح عبد الناصر أكثر اعتدالا ، وهل أصبح على استعداد للتسليم بكياننا ؟

ان هزيمة سيناء ، قلبها جمال عبد الناصر ، بسبب الفشل الذريع الذى أصاب الانجليز والفرنسيين ، قلبها " نصرا مصريا كبيرا " وظهر أمام العالم العربى كمن يستطيع ، لو اتيح له الامر ، أن ينتصر على اليهود وان يدمر اسرائيل . او لم يواصل ،

بنشاط متزايد ، مهمة توسيع جيشه ؟ اولم يعد بنشاط متزايد _ شبه جزيرة سيناء _ كقاعدة هجومية ضد اسرائيل اولم يشق طرقا ولم يبن مطارات ومعسكرات جيش اضافية ؟ واخيرا الم يبعد فى غضون أيام قوات الامم المتحدة من سيناء ومن قطاع غزة ، ويركز فى شهر مايو ١٩٦٧ على حدود اسرائيل نحوا من مائة ألف جندى مسلح ونحوا من ألف دبابة ؟ اولم يغلق من جديد مضايق تيران وراح يلهب العواطف فى مصر وفى العالم العربى للحرب مع اسرائيل ؟ واما التعهدات الواهنة التى قدمتها فى البداية الدول الغربية الكبرى وفى مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية ، من ان مضايق تيران ستظل مفتوحة دائما ، فماذا تراها حدث لها فى مايو ١٩٦٧ وأين ذهبت ؟

قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء

ان من لا يدرك الصدمة السيكلوجية التى حلت بنا فى النصف الثانى من شهر مايو وأوائل شهر يونيو ١٩٦٧ ، لن يدرك العقدة التى تصيب اسرائيل وزعماءها منذ حرب الايام الستة وحتى هذا اليوم عندما تثار من جديد مسألة انسحاب اسرائيل من جزء من سيناء وقطاع غزة ووجود الجيش المصرى ولو بصورة رمزية فى شبه جزيرة سيناء ، ووضع قوات من الامم المتحدة بيننا وبين مصر .

اننا لا نستطيع ان ننسى ، ولا نريد ان ننسى كابوس وجود مائة ألف جندى مصرى وألف دبابة ومئات المقاتلات المصرية فى سيناء ، وهذا هو الذى يحدد موقفنا نحو مصر فى الحاضر والمستقبل .

اما من ناحية الحقوق التاريخية وماهية العلاقات بيننا وبين مصر فان الموقف يختلف تماما عن الموقف بيننا وبين عرب فلسطين ، ومن ناحية قطاع غزة فان المسألة واضحة تماما لدينا ، فان سيطرة مصر على غزة التى استمرت ١٩ سنة فانها قصة قد انتهت تماما من اطار النزاع الطويل بيننا وبين عرب فلسطين ، فانه لم يكن لمصر على الاطلاق اى حق فى غزة بصفة خاصة ولا فى فلسطين عامة لا فى الماضى ولا فى الحاضر ، وليس لاحد حق فى غزة الا نحن وعرب فلسطين واذا كان الامر يتطلب برهانا على ان المصريين وعرب فلسطين شعبان مختلفان بل وغريبان الواحد منهما عن الآخر . فان سنوات الاحتلال المصرى لغزة فيها الدليل القاطع على ذلك ، فان

مصر لم تمنح عرب فلسطين الجنسية المصرية ، كما ان مصر لم تشأ ان تضم اليها قطاع غزة رغم انها كانت تستطيع ذلك . وقد سلكت السلطات المصرية والجيش المصرى مسلك سلطات الاحتلال ، ولم تفعل شيئا لصالح الاهالى من عرب فلسطين عامة وللاجئين خاصة ، لقد استولوا على القطاع ليستغلوه كورقة لعب ضد اسرائيل وكتهديد عسكرى دائم ضدها ، وفى خلال هذه المدة استخدم كبار الضباط غزة وميناءها كمصدر أرباح سهلة وأثروا اثرا فاحشا عن طريق تهرب السلع الكمالية من غزة لمصر ، وأى مطالبة من مصر فى الحاضر او المستقبل بالعودة لقطاع غزة يعد تحديا لوجود اسرائيل ، فان مصير قطاع غزة ومستقبله يعد من شئوننا وشئون عرب فلسطين وحدنا وهو موضوع مفاوضات بيننا وبين القيادة الفلسطينية . اما مسألة تكوينها جزءا من دولة عربية فلسطينية ، فانها موضوع مفاوضات بيننا وبين القيادة الفلسطينية أو الفلسطينية ـ الاردنية المستقبلة وبهذا سيكون هناك انفصال سياسى وجغرافى بين قطاع غزة ومصر .

اما موقف شبه جزيرة سيناء فانه يختلف تماما اذ انه يتعذر من ناحية الحقوق التاريخية ان نقول ان شبه الجزيرة كان يوما ينتمى لشعب ما ، فانها من ناحية صحراء قاحلة لازرع فيها ولا ماء ، ومن ناحية أخرى تخترقها طرق حيوية للشعوب والدول الواقعة الى غربها وشرقها وجنوبها وشمالها ، وكانت أراضيها طوال آلاف السنين ممرا لقوافل التجارة والمسافرين ، وكانت خالية تقريبا من السكان الدائمين ، وأصبحت نقطة وثوب ناحية مصر او ناحية فلسطين وسوريا الى شمالها ، وكانت شبه جزيرة سيناء منذ فجر التاريخ ممرا بريا ضخما تعبره الجيوش والقوافل والتجار والحجيج وفى أعقابهم الحضارات واللغات والتأثيرات المختلفة .

كان هناك دائما فى سيناء مستوطنات صغيرة ولاسيما على طول سواحلها وكانت القبائل الرحل ترتحل بين الواحات وبين الاماكن المحيطة بآبار المياه ، وكانت سيناء منذ آلاف السنين مهبط الوحى ومهد الاديان ، وكعبة العبادة وكانت هذه الصحراء قريبة من مهد الحضارة الانسانية فى مصر وفلسطين ، وكانت تستهوى محبى العزلة والرهبان والباحثين عن الانوار والاصوات الالهية والخلود وروح القدس .

وقد قصد نبينا موسى الى هناك ، وهناك تجلى له الرب فى وسط العليقة التى تشتعل بالنار والعليقة لاتحترق ، وفى سيناء نزلت التوراة على شعب اسرائيل الذى خرج من مصر وظل فى التيه فى الصحراء أربعين سنة ، وعلى جبل سيناء هبطت الشريعة على الشعب اليهودى وتغلغلت الى أعماقهم ولكن شبه جزيرة سيناء لم تدخل

فى املاك الاسباط الاثنى عشر ولذلك لاتدخل فى نطاق الحقوق التاريخية القومية للشعب اليهودى ، ولم يحن اليها اليهود فى المنفى ولم يصلوا من أجلها ، ولم تكن من اهداف الصهيونية الحديثة . ولولم يجعل المصريون من شبه جزيرة سيناء قاعدة هجوم عسكرية على اسرائيل التى بعثت من جديد لما خطر على بالنا ان نحتلها وأن نضمها لاراضينا .

ومنذ قيام مصر القديمة كانت شبه جزيرة سيناء منطقة عازلة وقاعدة دفاعية عن مصر ضد الغزاة ، او قاعدتها الهجومية فى غزواتها نحو الشمال .

ان جيوش الفراعنة العظام كانت تخترقها فى حملاتها نحو الشمال ، كما اخترقها فرسان القوزاق وجيوش الاشوريين والبابليين والفرس فى طريقهم الى مصر ، واخترقتها جيوش الاسكندر الاكبر بعد احتلالها لمصر ، واتجه ملوك البطالمة شمالا عن طريقها الى فلسطين وسوريا كما اخترقتها جيوش الرومان ، والبيزنطيين والمجاهدين العرب والصليبيين والمماليك والعثمانيين وجيوش نابليون ومحمد على وابراهيم باشا وحملة الجنرال اللنبى وجيش فاروق فى حملته ضد اسرائيل واخترقها جيش اسرائيل تحت قيادة يادين وآلون فى سنة ١٩٤٨ وبقيادة ديان فى سنة ١٩٥٦ ، وكذلك جيش عبد الناصر فى سنة ١٩٦٧ والجيش الاسرائيلى بقيادة رابين وجافيش فى حرب الايام الستة ، وهؤلاء جميعا لم يعتبروا سيناء جزءا من وطنهم او ميراث آبائهم او مكانا لتوطين سكانهم بل كطريق مرور وكقاعدة لجيوشهم .

كان من العسير فى التاريخ القديم الاحتفاظ بقواعد كبرى ، فانه لا يوجد موارد مياه على طول طرق المرور فيها ، وكانت الجبال الشامخة فى الجنوب تشكل سدا لايمكن اجتيازه ، وفى القرن التاسع عشر مع تطور التكنولوجيا والاختراعات الحديثة فى طرق القتال ونقل الجيوش اخذت شبه جزيرة سيناء تشكل قاعدة دائمة ، وزادت اهميتها الاستراتيجية .

وكان من اهم هذه الاسباب حفر قناة السويس وفتحها للملاحة ، وسرعان ما أصبحت ممرا مائيا دوليا من الدرجة الاولى ومركزا للصراعات الاستعمارية ، ومنذ ذلك الحين أصبحت شبه جزيرة سيناء مصدر حماية او تهديد لقناة السويس وربما كان هذا هو السبب الرئيسى الذى دفع مصر وبريطانيا (التى كانت تحكم مصر) فى سنة ١٩٠٦ الى اكراه حكومة السلطان التركى فى استانبول الى جعل الحدود الدولية بين الامبراطورية العثمانية وبين مصر على الخط الذى بين رفح وطابا بحيث تصبح شبه جزيرة سيناء

كلها فى أيدى المصريين ، اى فى أيدى الامبراطورية البريطانية .

وقد أثبتت الحرب العالمية انهم كانوا على حق فى هذا ، فان بريطانيا ومصر لم تكونا قد وطدتا مركزهما فى سيناء ولم تقيما فيها شبكة من التحصينات ، فغزاها الاتراك بايحاء من المانيا ، وكان بينهم وبين النصر خطوة ، ولكن انبرى لهم الجنرال اللنبى ، وسار بجيوشه فى سنة ١٩١٧ فى اتجاه فلسطين ولم يكرر الخطأ مرة أخرى ، فان البريطانيين تقدموا هذه المرة يسبقهم سلاح المهندسين وسلاح المداد والتموين يوطدون سيطرتهم فى اتجاه محاور التقدم ويرصفون الطرق ، ويمدون انابيب المياه ، ويضعون خطوط السكة الحديد وينشئون مستودعات التموين والذخيرة ، ويسهلون نقل الجيش لم يكن البريطانيون يتوقعون فى المدة بين الحربين العالميتين خطرا جديدا على القناة وعلى مصر فلم يفعلوا الكثير لتوطيد مركزهم فى سيناء ، ولكن عندما ظهرت من جديد بوادر الخطر على مصر والقناة لدى اقتراب الحرب العالمية الثانية وأثناءها ، وتعرضت مصر لغزو ايطالى - المانى من الغرب ، كما تعرضت لخطر التطويق والاحتلال الالمانى من الشمال ، سارع البريطانيون وبذلوا جهودا ضخمة فى شق طرق جديدة فى سيناء وتوسيع الطرق الموجودة ، وبناء معسكرات وانشاء مستودعات وقود ونقط مياه جديدة .

بعد الحرب عندما استولى الجيش المصرى بالفعل على شبه جزيرة سيناء ، من أيدى البريطانيين اختلفت الاوضاع فى شبه الجزيرة فأصبحت فيه جميع عناصر القاعدة العسكرية الحديثة ، وأصبح فيه طريقين من خير الطرق احدهما من القنيطرة الى العريش ورفح وغزة ، والثانى من الاسماعيلية عن طريق ابوعجيلة بير عسلوج الى بير سبع ، وكذلك خط حديدى يبدأ من بور توفيق عند جنوب القناة ويتصل بالخط الحديدى الدولى القاهرة - القنطرة - اللد ، كما أصبحت فيها طرق أخرى طويلة وواسعة من انواع مختلفة بينها طريق السويس - الطور - شرم الشيخ ، كما اقيمت منشئات ومعسكرات عند ملتقى الطرق الهامة فى شبه الجزيرة .

فى سنة ١٩٤٨ استخدم المصريون جميع هذه القاعدة لنقل جيوشهم شمالا بهدف الهجوم على اسرائيل ، وتدمير المشروع الصهيونى ، وتوطيد مركزهم على انقاضه . وأدركنا فى تلك السنة وفى سنة ١٩٥٦ ان شبه جزيرة سيناء ، لم تصبح فقط طريقا حديثا لغزو بلادنا ، بل أيضا قاعدة امامية مستديمة للجيش المصرى .

ولكن فى هاتين السنتين انفسهما أثبت الاسرائيليون انهم يستطيعون ان يكيلوا الصاع صاعين وانهم يستطيعون استغلال هذه التسهيلات ، وان الطريق من القنطرة الى رفح هو أيضا الطريق من رفح الى القنطرة ، وان الطريق من الاسماعيلية الى أبوعجيلة الذى يمكن ان يمر فيه جيش من " أبوعجيلة " الى بير سبع يمكن أيضا ان يستخدم من بير سبع للاسماعيلية ، وان نقط المياه المجهزة للجيش الزاحف شمالا يمكن ان يستخدمها الجيش الزاحف جنوبا .

أدرك المصريون فى سنة ١٩٤٨ ، وفى سنة ١٩٥٦ بصورة أوضح ان شبه جزيرة سيناء تشكل تهديدا من الناحيتين تهديدا لقلب اسرائيل وكذلك تهديدا لقلب مصر .

عندما انسحبت اسرائيل من شبه جزيرة سيناء فى سنة ١٩٥٧ خرب الجيش الاسرائيلى الطرق والسكك الحديدية والمعسكرات قبل عودته لبلاده بقصد تحييد سيناء من الناحية العسكرية فلم تشأ اسرائيل ان يظهر فجأة مرة أخرى جيش مصرى ضخم على حدودها .

ولكن تدمير المنشئات العسكرية والطرق العسكرية كان مؤقتا ، وثبت ان هذه الطريقة غير مجدية على الاطلاق فى العصر الحديث ، ففى خلال السنوات العشر التى مرت من سنة ١٩٥٧ وحتى سنة ١٩٦٧ أعاد عبد الناصر بناء جيشه ، وكذلك الطرق والمعسكرات فى سيناء ، وزاد عليها كثيرا .

وفى سنة ١٩٦٧ عاد للمرة الثالثة كابوس التهديد المصرى بالابادة ، وخلال أيام معدودة نقل عبد الناصر جيشا حديثا ضخما الى المعسكرات والقواعد المعدة من قبل ، والقريبة من حدود اسرائيل وخلال ساعات كانت طائراته المقاتلة النفاثة تقف على أهبة الاستعداد فى مطارات بير جفجافة والعريش واماكن أخرى يقوم بصيانتها وامدادها بالوقود طواقم أعدت من قبل وفى طرفة عين طرد عبد الناصر قوات الامم المتحدة من شرم الشيخ ورأس النصرانى ، ونقل الى هناك مدافعه وسفنه الحربية التى سدت مضايق تيران مرة أخرى .

خلال أربعة أصبحت شبه جزيرة سيناء مقابر للجيش المصرى ، ومركباته ، ومدرعاته وطائراته وسفنه وآلاف من جنوده ، واستخدم الجيش الاسرائيلى كفاءته وفطنته بكافة الطرق العادية وغير العادية ، واستغل جميع المنشئات المصرية فى سيناء واتخذها

نقطة وثوب ضخمة الى القناة واحتل شبه الجزيرة بأجمعها .

ومنذ ذلك الحين ، منذ خمس سنوات يستقر الجيش الاسرائيلى على القناة وفى شبه جزيرة سيناء يفعل بها مايحلو له كأنها ملكه ، تماما كما فعل المصريون ومن قبلهم البريطانيون وجميع من سبقوه ، فجعل منها قاعدة دفاعية عن بلاده ، وقاعدة هجومية على مصر فى حالة استئناف الحرب ، وليس فى هذا اى وهم ، واسرائيل ليست فى حاجة الى الاعتذار ، فهى قد وجدت فى شبه الجزيرة قاعدة عسكرية حديثة فجعلتها قاعدة عسكرية من آخر طراز تفوق ماكانت عليه عدة مرات .

ان خط الاستحكامات على القناة " خط بارليف " هو نهاية التحصينات الاسرائيلية فى القاعدة العسكرية الاسرائيلية فى سيناء ، ومنذ احتلال سيناء رصفت فيها مسافات طويلة من الطرق فى طولها وفى عرضها ، وشقت محاور تحركات جديدة تماما ، وزيد طول مدارج الطائرات الموجودة وأنشئت مطارات جديدة ، ومدت خطوط مياه عديدة ، وأقيمت قواعد جديدة للاسطول ، ووسعت المعسكرات الموجودة وأنشئت معسكرات جديدة ، وأقيم كثير من مستودعات الوقود والتموين والذخيرة وأقيمت شبكة اتصالات حديثة سلكية ولاسلكية ، وأنشئت قواعد للمشاة والمدرعات وللمدافع والصواريخ الحديثة ، واليوم تشكل شبه جزيرة سيناء قاعدة عسكرية مجهزة بخير وسائل القتال المتنوعة ، ومن أحدث الانواع ، وأصبحت قاعدة عسكرية ضخمة على المستوى الدولى وقد انفق عليها مليارات الدولارات واستخدم فيها كل الخبرات الهندسية والعلمية والتنفيذية لاسرائيل .

لاشك ان مصر تشعر الان ان جيش اسرائيل يهدد قلبها تهديدا فعليا ، وليس هذا مجرد كلام عاطفى ، فحقيقة ان جيشنا يهدد مصر كلها ، فانه جيش حديث يستقر على ضفة القناة ، وفى جميع انحاء سيناء ، ويستمد قوته من قاعدة صلبة وعريضة فى مؤخرته ، ويعتمد على شبكة حديثة من الامدادات والتموين ويستمد قوته من مستودع دولة ومجتمع تكنولوجى ، وهو بمثابة سيف مصلت على رأس مصر أكبر الدول العربية .

ان المصريين يصيحون فى حنق ويطالبون بان على اسرائيل ان تنسحب من كل شبر من الاراضى المصرية ، وان تسحب جيوشها من سيناء بأكملها الى حدود الرابع من يونيو سنة ١٩٦٧ ، ومن لايفهم صراخهم وتهديدهم من رأس الحربة الاسرائيلية المغروسة منذ خمس سنوات وأكثر فى لحمهم ، وقد تندفع أكثر وتنفذ الى قلبهم ؟

وبعد حرب الايام الستة عاد عبد الناصر واستنجد بالسوفييت للوقوف امام هذا التهديد الاسرائيلى ، وسمح لهم بالتوغل فى عمق مصر ، وأقام بمعونتهم شبكة دفاعية وهجومية حديثة وضخمة .

ان عودة الاوضاع الى ماكانت عليه فى الحدود مابين مصر واسرائيل هو بمثابة ان تهدى اسرائيل بيدها هذه القاعدة العسكرية الضخمة الى أعدائها وان تتيح لهم عندما يحين الوقت ان يزحفوا بجيوشهم وربما أيضا بجيوش السوفييت الى الحدود السابقة .

مستقبل سيناء

فى موضوع شبه جزيرة سيناء علينا ان نقول لانفسنا وللمصريين بضعة أمور اساسية وبسيطة .

ان الصهيونية لم تدع أبدا اى حقوق تاريخية وقومية فى شبه جزيرة سيناء ، ولسنا ندعى ذلك أيضا اليوم ، فان للمصريين حقوقا تاريخية وقومية فى شبه الجزيرة ليست لنا ، وقد تم الحاق شبه جزيرة سيناء بمصر منذ أكثر من ٦٥ سنة ، ومنذ ذلك الحين لم ينازعها فى ذلك احد ، ولم يكن لدينا ولا لدى مؤسسى المشروع الصهيونى اى نية فى منازعتها فى ذلك ، وكنا على استعداد ان نعتبر الحدود الدولية حدودا دائمة بيننا وبين مصر ، وأن نوقع معها معاهدة سلام على هذه الحدود فى سنة ١٩٤٨ وعلينا أن نعلن ان هذا هو مبدئيا موقفنا حتى اليوم ، والمشكلة بيننا وبين مصر ليست مشكلة الحقوق التاريخية القومية كما انها ليست الاعتراف المبدئى بالسيادة المصرية ، بل هى مشكلة امننا وامن وجودنا من الدرجة الاولى .

وان كانت هذه المشكلة تبدو لنا اليوم غير معقولة ، فربما نجم موقف جديد تماما ، وغيرت مصر حكومة وشعبا نظرتها الينا من النقيض الى النقيض ويجلسون معنا الى مائدة المباحثات ويعقدون معنا اتفاقية سلام ، وربما أرسلوا لنا سفراء ، وأرسلنا لهم سفراء ، وتمر سفننا فى القناة ، وربما استقر تجارنا فى القاهرة وتجارهم فى القدس ، وقام سياحنا بزيارة الاهرام ، وسياحهم بزيارة ميدان ديزنجوف ، وربما تبارينا مع فرقهم فى كرة القدم وكرة السلة ، وحاضر علماؤهم فى جامعاتنا ، وأجرى علماؤنا بحوثهم فى معاهدهم ، وربما اعتمادا على تصريحنا بشأن عرب فلسطين ينفضون يدهم من المشكلة ، ويتركونها لتسوية بيننا وبين عرب فلسطين ، وربما حدث كل هذا

فجأة ودفعة واحدة ، وقام بيننا وبينهم سلام حق ، وعندئذ يتحتم علينا ان نعيد شبه جزيرة سيناء للمصريين ، بعد نزع سلاحها نزعا تاما بضمانات متبادلة والعودة للحدود الدولية .

ولكنهم اذا ظلوا على حالتهم الراهنة سيظلون فى مجال الاحلام والسراب فى صحراء العلاقات الجديدة التى بيننا وبين مصر . ان مصر بعد عبد الناصر لم تتحرر من عقدها : لا من عقدة هزيمتها ولا من عقدة تورطها فى شئون جميع الدول العربية بما فى ذلك شئون عرب فلسطين ، ولازالت تحاول ان تطوقنا بجبهات شرقية وشمالية والادهى من هذا ان مصر تطالب بانسحاب اسرائيل من سيناء بأكملها بواساطة ومعونة الامم المتحدة وأمريكا وربما غيرهما ، وهى على استعداد ان تعلن بلغة مبهمة وباضافة شروط عن العدالة للفلسطينيين) بانها مقابل الانسحاب التام ستعقد معنا سلاما ،دون ان توضح مانوع هذا السلام الذى تقصده ، وبعبارة أخرى ان مصر تريد ان نعيد اليها على صينية من فضة أكبر قاعدة عسكرية اقمناها وأقواها وأحدثها لحماية انفسنا من خطر الابادة من جانبها مقابل دون ان نجلس معها الى مائدة الباحثات على الاطلاق اعتمادا على تصريحاتها اللفظية فحسب . ان اعتقاد السلطات المصرية ان مثل هذه العملية يمكن ان تتم من تلقاء نفسها اوحتى على يد وسطاء يدل على الاحلام التى يعيش فيها المصريون ، والادهى من هذا النوايا الخفية فى قلوبهم .

اننا نقول : حقا اننا نستقر على أراضيكم واننا على استعداد ان نعيدها اليكم ، وان قناة السويس ليست شريان الحياة لنا ، بل هى شريانكم وهى ليست من عملنا ، بل من عملكم ، ولم يحفرها رجالنا ، بل رجالكم وفلاحوكم ، وفوق هذا اننا على استعداد ان نعلن جدئيا ان شبه جزيرة سيناء ، مصرية ، وليست اسرائيلية ، ولكنا فى نفس الوقت نقول : ان هذه القناة وشرم الشيخ وشبه جزيرة سيناء كلها منطقة حيوية لنا من ناحية الامن ، واننا نرتاب فيكم انكم بعد ان نعيد لكم هذه المناطق لن تتموا الاتفاق معنا بل تكتفون بالبداية (كما انكم ترتابون فينا باننا نريد ان نضمها وأن نعبر القناة ونمتلكها) ، اننا لايمكن ان نفكر فى جدية فى اعادة سيناء الا اذا صرحتم بلغة واضحة وأسلوب قاطع انكم ستدخلون معنا الى مائدة الباحثات الى جوار الخرائط وأن نبحث كيف ومتى ، ولأى السبب نعيد لكم شبه الجزيرة دون ان نتعرض لأى خطر فى المستقبل .

اننا نرتاب فى كل من لا يريد او لا يستطيع ان يجلس معنا ، سياسى أمام سياسى ، وضابط أمام ضابط ، وان نناقش معاهدة السلام (وهذه التفصيلات تتألف من آلاف التفصيلات) ونرتاب فى كل من يقول : أعيدوا كل شئ ، أعيدوا هذه القاعدة كلها بمنشئاتها وطرقها وموانئها ومطاراتها ، ويحق لنا ان نرتاب فيه ، وأن نرتاب فى أن له نوايا خبيثة .

انه فى أثناء المحادثات المباشرة وحدها ندرك نحن وانتم ان علينا جميعا ان نعرف مايتم فى كل كيلو متر مربع من شبه جزيرة سيناء فى المستقبل ، وما مصير كل كيلو متر من الطرق ومن السبل وماذا سيتم فى كل معسكر وفى كل قاعدة ، وماذا سيكون مصير كل مطار وكل نقطة ماء ، فكيف تطلبون منا ان نعيد هذه القاعدة اذا لم نعرف كافة تفصيلات الاتفاق بالتفصيل ومسبقا ، واذا لم نكن على يقين انها ستكون على هذا النحو؟ ان اعادتها على غير هذا النحو معناها تحويل رأس الحربة من قلوبكم الى قلبنا ، ومن منا يفعل هذا على اساس خطاب او كلام أجوف ؟

والمراد هو تجريد شبه جزيرة سيناء من السلاح تجريدا شاملا وتاما واخلاءها من جنودنا وجنودكم . فكيف يتم هذا ؟ وكيف نضمن هذا ؟ هل بالكلام فى الظلام ، او بالاتفاقات عن طريق طرف ثالث ؟ لقد كانت لنا ولكم تجربة تاريخية مريرة مع الطرف الثالث الاجنبى من الاتراك والفرنسيين والبريطانيين والامم المتحدة والامريكيين الى السوفييت فهل تعتقدون اننا سنوافق على ان يضمن لنا طرف ثالث نزع سلاح هذه القاعدة ؟

ألم يتضح لكم ان ضمانات نزع السلاح يجب ان تكون متبادلة منكم ومنا ؟ اننا ندرك جيدا انكم انتم أيضا ترغبون فى الاشراف على حدودنا ، لاننا نعلم انكم ترتابون فينا وفى أننا قد نعود لاقتحام سيناء ، كما اننا بنفس القدر نرغب فى ان نتأكد من انكم لن تعودوا لاقتحام سيناء بجيوشكم وتصلون خلال ساعات الى حدودنا ، يحتمل أننا عن طريق المفاوضات المباشرة فيما بيننا ، نصل الى حلول على شكل رقابة متبادلة او رقابة مشتركة او دوريات مشتركة فى انحاء سيناء تقوم ولو لمدة سنوات محدودة بمراقبة كل ممر حساس فى شبه جزيرة سيناء ، ويحتمل ان يصل رجالنا ورجالكم على مائدة المباحثات الى نتيجة بانه لنزع سلاح شبه جزيرة سيناء ، نزعا تاما يجب تدمير كل معسكر وكل مطار ، وكل قاعدة قبل اعادتها ، وأكثر من هذا ، كل طريق ، وكل جسر وكل بئر

وكل ماسورة مياه ، كما يحتمل ان يجد الجانبان أثناء المفاوضات الى طريقة أخرى: هي عدم تدمير ماهو موجود ، بل جعل شبه الجزيرة بمنشآتها ومساحتها الضخمة شبه جزيرة سلام ، وتكون طريقها نعيما ومسالكها سلاما ، ويحتمل ان يصل خبراء الجانبين الى اعادة وصل شبكات الطرق والسكك الحديدية والجسور في سيناء بين مصر غربا واسرائيل شرقا ، وجعل المطارات شبكة طيران مدنية مصرية - اسرائيلية وجعل سيناء بأكملها قاعدة ضخمة للسياحة الدولية يغشاها ملايين السائحين وطالبو الاستجمام في طريقهم للقاهرة والاقصر او القدس وتل أبيب .

اذا بدت هذه الأمور خيالية ومثالية ، فانه لاتقل عنها واقعية ان نتخيل ان يحدث فجأة ان تأتي اسرائيل وتقول : استرجعوا هذه القاعدة بكل مافيها ، فاننا نعتمد على حسن نواياكم ، وعلى حسن أخلاقكم ، وسوف نرجع الى بلدنا ، ونرى كيف تسير الأمور .

أين المخرج ؟

ان الارتياب المتبادل عميق الى حد اننا لانستطيع ان نقدم بمثل هذه المجاملة او مايماثلها ، فاننا مكبلين بعقدة الابادة التي غرستموها فينا ، وانتم لازلتم لاتستطيعون اجراء محادثات معنا لانكم مكبلين بعقدة الكرامة الجريحة والخوف من توسعنا وقد تسلل الى نفوسكم ، وأين المخرج ؟

انكم تذكرون انكم سوف تستأنفون الحرب ، وتستعيدون بالقوة ماأخذ بالقوة ، والكثيرون منكم يعرفون مامعنى ذلك ، انكم تستطيعون ان تحاولوا فتح النيران عبر القناة ، أو ان تقوموا بمحاولة رمزية لعبورها ، وأكثر من هذا تستطيعون ان تستنجدوا بالروس لمعاونتكم في الحرب وعبور القناة بقوة كبيرة ، وربما بقوة مشتركة انكم تستطيعون ان تحاولوا اعادة احتلال سيناء للوصول الى الحدود الامامية ، او ماوراءها وان تحاولوا استنزاف دماء كثيرة بين الاهالي المدنيين في اسرائيل بالاستعانة بالقاذفات او الصواريخ ، وهذا على امل اننا لانستطيع أن نتحمل خسارة كبيرة في الأفراد ، ولكنا نأمل ان الكثيرين في مصر من بين الطبقات المختلفة للشعب وفي السلك الحكومي والسلك العسكري يدركون معنى استنزاف كثير من الدماء او الحرب الشاملة في اسرائيل في أيامنا هذه .

اذا كنتم تتطلعون لمعركة اقتحام وحسم في سيناء ، وتأملون ان تنتصروا علينا في هذه المعركة ، فما الذي يمنعكم بعد ان تقصموا عنق الجيش الاسرائيلي كما تحلمون من ان تتوغلوا في اسرائيل ، وأن تصلوا الى تل أبيب وان تملوا علينا أوامركم ، كما صرح بها أحدكم ذات مرة بأن تكون حدود اسرائيل هي البحر الكبير في تل أبيب وما حوله الا تدركون ان هزيمة واحدة في معركة حاسمة هي بالنسبة لنا انهيار تام لمشروعنا ، وضياع دولتنا ، وهذه المرة على نطاق أكبر مقبرة للجيش المصري ، كما يحتمل ان يتوغل الجيش الاسرائيلي - أثناء مطاردته للجنود المصريين - الى غرب مصر ويحتل أجزاء من أرضكم وهذا حلم فظيع لنا ولكم على السواء .

ان معركة حاسمة قد تنقلب الى دوامة من النار تسحب اليها بلادنا وبلادكم وربما العالم كله ، وعندما يتحدث زعماء مصر عن التضحية بملايين الجنود في محاربة اسرائيل ، عليهم ان يدركوا ان مثل هذه الحرب قد تضم ملايين من البشر من الجنود ومن المدنيين منهم ومنا ومن الشعوب الاخرى . ان مصر من أكثر البلاد كثافة في السكان في العالم ، ويعيش أكثر من ٩٠ ٪ من سكانها في وادي النيل الضيق الطويل ، وهي تعتمد دائما وأبدا على نهر واحد وسد واحد ، وعليها الا تنزلق الى معارك ابادة وحسم ، ولاسيما في عصرنا ، وقد أصبحت الحرب والاسلحة الشاملة على أبواب مصر واسرائيل والمنطقة بأكملها .

الم يفكر زعماء مصر الذين يتحدثون في استخفاف عن استعدادهم لتقديم ملايين القتلى كثمن لتحرير أرضهم ، في أن يضعوا لانفسهم تقريرا عن مغزى هذا الرقم ؟ ألا ينص على انه بالاضافة الى ملايين القتلى سيكون هناك ملايين عديدة من الجرحى . انهم يتحدثون عن التضحية بربع السكان ونصف السكان من أجل ماذا ؟ ليس من أجل تحرير الأرض ، بل لعدم رغبتهم في الجلوس معنا لمائدة المباحثات التي في نهايتها تعود لهم أرضهم بصورة أو أخرى .

ونلاحظ انه عندما يتحدث زعماء مصر او الدبلوماسيون او المفكرون او كبار الموظفين فيها عن ملايين القتلى يتركون في النفس انطباعا بأنهم لايفكرون بمفهوم مستقل ، بل سيقتلون اي الجنود والفلاحون وبسطاء الشعب وليس هم أنفسهم ، فعليهم ان يدركوا ان الحرب الشاملة لاتميز على الاطلاق بين نحن وهم ، فان القتل سيلحق كل بيت وكل أسرة وكل طبقة ، ولن ينجو أحد منهم ، وحاشا لمصر ان تراودها احلام صلاح الدين والظاهر بيبرس اللذين حسما الامور في معركة حطين وعين جالوت .

كما انه حاشا لنا ان نهدد بالحاق الدمار والخراب ، فان الحرب الشاملة لن تجلب علينا الا الموت والخراب ، فان المعركة التى تؤدى بالجيش الاسرائيلى ان يقف على انقاض القاهرة ليس وراءها الا الضياع ، ضياع صورتنا الانسانية واليهودية والصهيونية والاسرائيلية .

ان عقدة مصر : " لن نجلس معهم لمائدة المباحثات " لازالت عميقة وغير معقولة الى حد ان الفظائع المنتظرة نتيجة الحرب الشاملة لن تقنعها باجراء مفاوضات مباشرة ، ويمكن ان يتغير هذا الموقف اذا أعلنت اسرائيل باعترافها مبدئيا بسيادة مصر على سيناء من ناحية ، واعلان مصر من جانبها باستعدادها للدخول معنا فى مفاوضات مباشرة من ناحية أخرى ، والى ان نصل الى هذا علينا ان نبحث عن طرق اخرى تقرب الطرفين ، فاذا كانت مصر واسرائيل ترغبان فى الحياة ، فيجب على زعمائها ان يطووا سلاح جيوشهما وفى نفس الوقت يتحتم على الطرفين الوصول الى حلول مؤقتة على امل ان يحدث تحرك للمحادثات وتزداد الثقة المتبادلة ، ويجب على الطرفين للوصول الى حلول جزئية ومؤقتة الاستعانة بخدمات الآخرين : من الأمم المتحدة وأمريكا والاتحاد السوفييتى ، ودول أوربا ، ودول العالم الثالث ، أو كل هؤلاء مجتمعين ، حتى لا نشعل فتيل المفجر الذى قد ينسفنا جميعا ، ويجب أن تكون الوساطة بيننا وبين مصر غير عادية ، ويمكن ان تكون مباشرة او غير مباشرة ظاهرة او خفية ، او يجب علينا نحن والمصريين والوسطاء ، أن نقترح حلولا وسطا مختلفة ومتنوعة ، وأن نقدم عروضا بتنازلات متبادلة .

اذا تحدثنا مثلا عن أن السيطرة على مضايق تيران حيوية بالنسبة لنا فعلى المصريين ان يدركوا اننا لا نتحدث عن شرم الشيخ التى تركوها لنا ، بل عن شرم الشيخ وفيها الميناء والمطار الجديدان اللذان بنيناهما ، والقاعدة العسكرية البحرية الممتازة التى أقمناها ، والتى يجب ان نحتفظ بها لا لمواجهة التهديد المصرى فحسب بل فى مواجهة اى تهديد من أى جانب معاد عربى او خلافه موجود حاليا ، او قد يقدم مستقبلا ويرغب فى خنقنا فى مضايق تيران او فى البحر الأحمر عند مشارف باب المندب ، واذا قال المصريون ان شرم الشيخ هى جزء من سيناء ، وأن سيناء بأكملها هى جزء من مصر ، فيتحتم ان نجد حلا يرضى الطرفين ، ويمكن ان نجد مثل هذا الحل فى تأجير شرم الشيخ لمدة طويلة او بصور أخرى كثيرة .

ان العالم الحديث (وكذلك القديم) يعرف أمثلة غير عادية عديدة لكيفية

انهاء الدول للمنازعات التى بينها بحلول يستطيع الطرفان المتنازعان ان يعيشا بها ، فمن الافضل اجراء أى شذوذ فى سيناء يتيح للطرفين ان يعيشا به عن الوضع الذى ينادى فيه كل طرف بعدم التنازل عن شبر من الأرض والذى قد يجرفنا الى الهاوية .

مثل هذا الشذوذ يمكن ان يحدث أيضا فى قناة السويس التى تقوم مصر بفتحها وادارتها من الضفتين مع تسوية تريحنا وتطمئننا من ان فتح القناة ليس مناورة مصرية ومرحلة فى سبيل معركة حاسمة فى سيناء ، ان مثل هذا الشذوذ يمكن ان يحدث فى طول وعرض شبه جزيرة سيناء وأن يكون على مراحل ويشكل حجارة فى بناء السلام وقد تمضى سنوات عديدة حتى تنتهى اقامة هذا البناء ، ولكن علينا ان نرسى اساسه ، وسوف يحل السلام عندما تصبح شبه جزيرة سيناء جسرا بين اسرائيل ومصر ، ولا تعود نقطة وثوب لالوية المدرعات وقاعدة لصواريخ التدمير .

ان مصر دولة كبيرة وذات امجاد ، وتاريخها فى العهد القديم وعصر الاسلام من أزهى العصور فى العالم ، كما ان الشعب المصرى عانى الكثير من الاحتلال والاستعباد ، ولكنه عرف كيف يمتص ويذيب فيه كل محتليه ، انه شعب فريد من نوعه ، وهو شعب موهوب هادئ الطبع ، وهو شعب متعدد المواهب ، وربما كان أول شعب فى العالم عرف كيف يسخر الطبيعة لاغراضه ، وأقام أول حضارة كبرى فى العالم القديم بنى أبناؤه فى الماضى البعيد الأهرام الراسخة ، بل وخلقوا حضارة متكاملة شملت الهندسة والطب والأدب والشعر ، والزراعة والصناعة والفلك والملاحة وجد الاغريق والرومان يسجدون أمام عظمته ويقفون فاغرى الأفواه امام عظمة خلقه ، ان هذا الشعب من أوائل شعوب الشرق الأوسط التى حاولت استيعاب الحضارة الغربية بطريقة خاصة ومزجها بالحضارة الاسلامية وهو يناضل عن استقلاله وحريته منذ أكثر من خمسين عاما .

ان ماقلناه عن نظرتنا لعرب فلسطين وشبابهم وعن أمانيهم وقيمهم القومية ينطبق أيضا على المصريين وهو لا يقتصر على المصريين من أبناء الفراعنة بناة الأهرام بل يشمل اساسا المصريين من أبناء المقاتلين الذين حاربوا نابليون وحاولوا التخلص من نير المماليك ، والذين حاربوا العثمانيين والبريطانيين والذين حفروا قناة السويس ، وأنشأوا الاسكندرية والقاهرة وبور سعيد والسويس ، ووضعوا أساس الجامعات الفخمة والذين شقوا الطريق الى القومية الحديثة ووضعوا الأسس للتعليم والصحة والخدمات الاجتماعية العصرية ، وحاشا لنا ان نستهين بمصر او نحتقرها .

ان لدى المصريين مشكلات عسيرة كمشكلات الشخصية والجد القوى ، فلديهم انفصال فى شخصيتهم (هل هم مصريون ام عرب ؟) ، ومشكلات الدين الاسلامى فى الدولة الحديثة ، ولديهم مشكلات رهيبة كمشكلة الزيادة السريعة فى السكان ، (فاذا استمرت زيادة السكان بمعدلها الحالى سوف يصل عدد سكان الدولة فى نهاية القرن الى حوالى ٨٠ مليون نسمة) ، ومشكلات عاجلة وضخمة كمشكلات التشجير والتصنيع ، والتغييرات الثورية فى حياة الريف وبنائه .

علينا ان نحاول ان نشرح للمصريين اننا لانشكل مشكلة بالنسبة لهم ، فانهم بتحقيق احلامهم بتدميرنا لن يحلوا شيئا من مشكلاتهم فان شبه جزيرة سيناء ليست المكان الذى سيحل مشكلاتهم الديموجرافية والاجتماعية ، كما ان اعادة سيناء اليهم بعد السلام ، فان اعادتها سوف تشفى كرامتهم الجريحة .

علينا ان نقول لهم فى وضوح وبالتفصيل اننا لاننوى التوسع فى سيناء لاننا لانبغى التمسك بها بصفة دائمة ، لانها بالنسبة لنا أيضا ليست المكان الذى يحل مشكلات ملايين المهاجرين الجدد من اليهود ، وعلينا ان نطلب من المصريين ان يفهمونا وأن يدرسوا ماضينا ومصيرنا ، وأهدافنا وفرديتنا ، وأن يصدقوننا فى اننا لانبغى التوسع على حسابهم ، وان مشكلة عرب فلسطين هى مشكلتنا أكثر منها مشكلتهم ، واننا سنجد لها الحل حلا غير عادى اذا شاركونا ، وعلينا ان نأمل انه بمرور الأيام بعد انتهاء المراحل الشاذة وبعد السلام سوف يوافقون على اقامة علاقات معنا تؤدى الى ازدهار المنطقة التى نعيش فيها نحن وهم .

ان النزاع بيننا وبين المصريين هو حاليا (رغم الحروب الثلاثة وكثرة الشهداء ، وقبل نكبة حرب رابعة هو نزاع أصغر وأقل مرارة من المنازعات الدموية التى استمرت مئات السنين كالمنازعات التى كانت مثلا بين الألمان والفرنسيين أو بين الروس والاتراك او بين اليابانيين والأمريكيين .

فلماذا لانستطيع ان نبدأ وأن نتوقع اننا خلال جيل او جيلين سوف نتعاون فى العلوم والثقافة والملاحة والطيران والهندسة والتجارة ، واننا سوف نرسل للدراسة فى القاهرة ، وان يأتى ابناؤهم الى معهد وايزمان . يحتمل ان يقول لنا المعارضون ان احلامنا الودية هذه تضعف قوة صمودنا الحالى فى مجابهة المصريين ، ولكن العكس هو الصحيح .

ان شبابنا وجنودنا سيزدادون قوة اذا عرفوا انهم امام عدو عظيم ولكنه ليس عدوا ابديا ، وان أمامهم جنودا معتزين بأنفسهم ويحبون وطنهم مثلهم ، وشبابنا الذى يحلم بانه فى يوم من الأيام سوف يزور منطقة الأهرام ، وانه سوف يستضيف الشباب المصرى فى مستعمراته لن يتحول بسبب ذلك الى شباب رخو ، فانه يعلم ان حربه على القناة هى من أجل اسرائيل العزيزة والوحيدة التى له فى الدنيا ، وانه لولا تدمير السويس والاسماعيلية لدمرت عسقلان وبير سبع ، ولكنه فى نفس الوقت يتمنى التوقف عن التدمير والتخريب ، وأن يعود الى بلاده الى اسرائيله عندما يحل السلام .

ان فكرة عدم التنازل عن شبر واحد من أرض سيناء هى أكثر تدميرا من فكرة عدم التنازل عن شبر من الضفة الغربية وقطاع غزة ، ان هذه الفكرة او مايماثلها تؤدى الى ان يضطر شبابنا لأن يحلم ، لا بالسلام ، بل بحياة الخنادق والدشم فى الصحراء وعلى ضفة القناة دون ان تبدو نهاية أو آخر للحرب ، ان شعوبا أكبر منا قد حاربت ببطولة خارقة من أجل الشعب والوطن على مسافات شاسعة ، فقد حارب البريطانيون حربا بطولية فى طبرق والامريكيون فى ابنجيما ، ولازالت هذه الاسماء حتى اليوم بالنسبة لهم رمز البطولة والدفاع عن الوطن ، ويجب ان تكون لنا نظرة مماثلة فى نهاية الأمر وبعد السلام الى الاسماء مثل جزيرة جرين و " تمبو " .

ان النصر الكبير سيكون كما قال الشاعر : عندما يرى الجد لحفيده أثر جرح قديم من معركة بور توفيق قد التأم منذ أمد بعيد ويقول له والآن : اليك تذكرتى سفر لك ولعروسك لتسافرا وتقضيا شهر العسل فى فندق سميراميس بالقاهرة .

نحن والسوريون

بؤرة الاستفزاز والاثارة

اذا كانت مشكلة عرب فلسطين هى أصعب المشكلات ، ومشكلة مصر هى أكبرها وأخطرها ، فانه يمكننا القول ان مشكلة علاقتنا بسوريا هى أكثرها اثارة للغضب ، وليس هذا لان السوريين يثيرون غضبنا أكثر من العرب الآخرين ، بل لانهم يثيرون أيضا غضب الشعوب العربية المتورطة معنا فى النضال الدموى ، من عرب فلسطين والمصريين واللبنانيين . فمنذ بداية النزاع كان السوريون بؤرة الاستفزاز والاثارة ، وأكثر العرب تطرفا ضدنا ، واذا كانت الثورة السياسية والاجتماعية تجتاح الدول العربية جميعا ، فان سوريا هى أبرز مثال لذلك .

كان من الواجب ان تكون سوريا من أهدأ الدول العربية ، فهى ليست مكتظة بالسكان ، والأراضى والمياه متوفرة فيها ، ويمكنها ان تنمى مواردها الطبيعية دون مصاعب خاصة ، ولم يكن هناك أى داع لان تدخل فى خلافات ومنازعات دائمة مع جيرانها العرب حول شكل نظام الحكم . وكان يمكنها ان تسير فى يسر فى سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنها ظلت تغلى طوال السنين التى مرت منذ استقلالها ويتطاير منها شرر الغضب والثورة فى كل اتجاه .

وترجع أسباب ذلك دون شك الى تاريخها ، فانها مثل فلسطين كانت دائما ممرا للشعوب والغزاة المتجهين شمالا وجنوبا وشرقا والى البحر ، وقد خلفوا فيها نسلهم وتأثيراتهم وهى بلاد تتكون من قبائل وشعوب عديدة تجتاحها العداوة والكراهية ، ويتنافسون على الحكم والسلطة من ناحية ومن ناحية أخرى كانت مهدا لحركة القومية العربية المتطرفة ولمدارس القومية العربية التى تنادى بوحدة جميع العرب وتشمل المنطقة بأكملها ، وربما كان البعد الشاسع بين التوقعات الكبرى لرواد حركة القومية العربية فى سوريا (سوريا الكبرى) و" الهلال الخصيب " وفى وسط سوريا ، ونظرية "حركة البعث ") وبين الواقع الهزيل من النزاع الشخصى والقبلى والطائفى الدائم حول الحكم هو احد الاسباب وربما كان السبب الاساسى لانفصام الشخصية القومية لدى السوريين .

ومن هنا كان بحثهم الدائم عن عدد خارجى يتخذونه كبش فداء لغضبهم

واحباطهم الداخلى ، وفى نفس الوقت يكون عاملا لتوحيد وتكتل هذه الامشاج الانسانية التى تدعى الشعب السورى .

ان القوميين السوريين الذين نصبوا انفسهم زعماء وموجهين لجميع العرب جعلوا للصهيونية واليهودية طابعا شيطانيا ، ونجد ان عرب فلسطين مع كل عداوتهم لنا ، قد عرفونا عن طريق الاحتكاك اليومى بنا كبشر وعامل المصريون فى البداية اليهودية والصهيونية بتسامح نسبى فى حين ان السوريين اعتبرونا أفظع عدو للقومية العربية التى يدعون لها . هناك سبب آخر لهذه العداوة السورية الزائدة لنا ، وهو انهم رأوا ان ماتحقق من المشروع الصهيونى بوعد بلفور واتفاقية سايكس بيكو الفوامل التى حالت فى نهاية الحرب العالمية الاولى دون تحقيق حلمهم الضخم باقامة دولة سورية كبرى تشمل فلسطين بأكملها ، وبدا لهم الانتداب البريطانى على فلسطين كمؤامرة استعمارية أدت بصورة غير مباشرة الى بيع سوريا للفرنسيين والى سيطرتهم الاستعمارية عليها .

ومنذ بداية الحكم البريطانى فى فلسطين عاش السوريون مع قادة المحرضين على المقاومة العربية المسلحة ضد الصهيونية وضد البريطانيين وكانت سوريا منذ العشرينات والثلاثينات مكانا لتدريب وانطلاق ولجوء العرب الفلسطينيين الذين يحاربوننا ، وفى سنة ١٩٤٧ قبل ان تقوم للدولة اليهودية قائمة ، تسلل القاوقجى والمقاتلون السوريون لفلسطين ، وشكلوا خطرا كبيرا على مستعمراتنا فى الشارون والوادى والجليل .

ولدى قيام الدولة استغل الجيش السورى التفوق الطبوغرافى الذى منحتهم الطبيعة اياه بوجودهم على جبال الجولان ، وأخذت المدافع تقصف مستعمرات وادى الاردن والجليل الاعلى ، وبعد هذا القصف التمهيدى ، هبطت كتائب المدرعات والمشاة بهدف تدمير المستعمرات ، وبتر وادى مرج بن عامر (وادى يزرعئيل) واحتلال حيفا ، والاتصال بالجيوش العربية الاخرى التى غزت البلاد من الشرق ومن الجنوب .

وأبرزت هزيمة السوريين فى سنة ١٩٤٨ ، كما تكرر ذلك فى السنوات التالية الفارق بين التشدق بالكلام عن الحرب الشاملة ضد اسرائيل وبين قتال السوريين ، واستعداد السوريين للقتال حتى آخر جندى فلسطينى او مصرى او أردنى ، ورغم

تفوقهم الطبوغرافى أصبح السوريون سخرية بين العرب انفسهم ، وتجد انه رغم أن معظم المجهود الحربى الاسرائيلى فى سنة ١٩٤٨ كان موجها ضد المصريين والجيش الاردنى ولم يضع أمام السوريين الا قوات اسرائيلية قليلة مزودة بالاسلحة الخفيفة ، فان السوريين لم يعرفوا كيف يستغلون هذا التفوق ، وعندما كانوا يصادفون استماتة الاسرائيليين فى الدفاع كانوا يستدبرون على أعقابهم ويفرون ، ولم يكن لدى السوريين استعداد لتقديم تضحيات كثيرة وكانوا يسارعون بالعودة لمواقعهم الحصينة فى الجبال ، على حين قدم عرب فلسطين والمصريون والفيلق العربى الاردنى كثيرا من الضحايا " وكان قتالهم يتناسب تناسبا عكسيا مع غرورهم وخيلائهم ، وتناوبت سوريا فى المدة التى أعقبت سنة ١٩٤٨ الثورات والثورات المضادة بمعدل كل سنة أو أكثر ولم يستقر نظام التحكم فيها .

ظهر الطابع السورى مرة ثانية فى حرب سيناء سنة ١٩٥٦ ، فانه رغم التصريحات العالية ، والكلام الكثير لم يحرك الجيش السورى ساكنا لمعاونة عبد الناصر عندما توغل الجيش الاسرائيلى لعمق سيناء ، وضرب الجيوش المصرية ، وبعد هذه الحرب بسنتين قامت الجمهورية العربية المتحدة فى المدة من ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ وهى وحدة سياسية قصيرة الأجل كثيرة الاحقاد بين مصر وسوريا ، وقد رأت اسرائيل فى هذه الوحدة كماشة مهمتها الاساسية سحق اسرائيل ، وضربها بجيش موحد تحت قيادة موحدة ، وان المصريين والسوريين سرعان ما أدركوا ان هذه الوحدة مصطنعة تماما ، وان الشعب المصرى يختلف فى طابعه وخصاله ومعايير حياته وأمانيه عن السوريين تمام الاختلاف كما تختلف مشكلاته عن مشكلات السوريين . ولم يمر وقت طويل حتى اتهم السوريون المصريين بالسيطرة والتميز فى جميع المؤسسات الحكومية والاقتصادية والجيش فى الجمهورية العربية المتحدة ، وذاق المصريون الأمرين من السوريين ، ورأوا كيف يثير السوريون الاحقاد .

وبعد الانفصال وعودة سوريا لاستقلالها الكامل أخذ زعماؤها فى بداية الستينات يوجهون كل نشاطهم وغضبهم ضد اسرائيل ، وأتاح السوريون أكثر من أى دولة عربية أخرى لمنظمات المقاومة الفلسطينية المسلحة وعلى رأسها " فتح " بالعمل فى بلادهم ، وقد وجدت هذه المنظمات فى سوريا قاعدة جبلية عملية وأيديولوجية لعملياتهم ، وفى المدة من سنة ١٩٦٥ ـ سنة ١٩٦٧ أخذ السوريون بالتعاون والتنسيق مع فتح يهاجمون الحدود الشمالية لاسرائيل ، ويستنزفون دماء

المستوطنين اليهود ولاسيما فى الجليل .

تسلح السوريون بالأسلحة السوفيتية الحديثة ، وتحصنوا بصورة أفضل مما فى سنة ١٩٤٨ ، وعرفوا كيف يستغلون تفوقهم باعتصامهم بالمرتفعات واستغلالهم جبال الجولان كقاعدة نيران ممتازة ضد المستعمرات اليهودية فى وادى الحولة التى أصبحت هدفا لمدافع السوريين واتخذوا من كل مستعمرة وقرية ومدينة هدفا يصبون عليه نيران المدافع والهاونات والرشاشات من مدى قصير ومن ارتفاع مئات الأمتار .

وفى أثناء القصف أخذ مقاتلوا فتح بتشجيع الجيش السورى يقومون بغارات ليلية على المستعمرات اليهودية فى الوادى وعلى طول الحدود ، ويقومون بأعمال تخريبية وتلغيم ونصب كمائن ، ثم يعودون الى ملجأهم الأمين الى جبال المرتفعات السورية .

أن هل نجاح عمليات " فتح " فى السنوات التى سبقت حرب الأيام الستة زعماء وأدى الى انتعاش منظمات المقاومة الاخرى ، والتى قام الجيش السورى أيضا بمعاونتها ، وجعلت الجيش السورى وقيادته (وهى فى الواقع قيادة الدولة) المقاتل الرئيسى ضد اسرائيل وحامى القضية الفلسطينية .

أصبح السوريون العامل الأول فى تصعيد العمليات الارهابية (وعملياتها الانتقامية ، وتسخين الحدود والدعوة لجولة ثالثة ضد اسرائيل) .

ان مصر تحت حكم عبد الناصر والاردن تحت حكم الملك حسين لم تسعيا خلال السنتين اللتين سبقتا حرب الايام الستة الى مواجهة شاملة وحرب ابادة ضد اسرائيل بل سوريا هى التى سعت الى ذلك وأوقدت الشعلة ، وقذفت بعبد الناصر الى الهاوية فجرف معه حسين وسائر الدول العربية فى يونيو سنة ١٩٦٧ .

ان زعماء سوريا فى تلك الايام هم المسئولون عن النكبة التى حلت بمصر ، والأردن فى حرب الايام الستة .

وفى حرب الايام الستة عاد السوريون الى لعبتهم المعهودة ، فلدى نشوب المعارك الكبرى فى سيناء والضفة الغربية لم يحاولوا التخفيف عن جيوش مصر والاردن ، فلم تهبط ألهبة مدرعاتهم ومشاتهم من جبال الجولان ، واكتفوا بقصف المستوطنات اليهودية فى الوادى اعتمادا على ان الاسرائيليين لن يستطيعوا حتى بعد هزيمة الجيوش العربية الأخرى أن يصعدوا الى معاقلهم وأوكار نسورهم فى الجبل ، ولكن

اسرائيل قوت هذه المرة ان تتسلح بجرأتها وتحتل الجبال التى تهددها ، واحتل الجيش الاسرائيلى ببذل الدماء الغالية وصمم ان يحتل مرتفعات الجولان وأن يستأصل شأفة الجيش السورى من هناك .

مرتفعات الجولان

باحتلال مرتفعات الجولان اختلف الوضع الاستراتيجى تماما بين سوريا واسرائيل ، فقد أصبحنا على المرتفعات على نفس الارتفاع مثل السوريين وألغينا ـ على الاقل جزئيا ـ التفوق الطبوغرافى الكبير الذى كان لهم ، والذى ظلوا يستغلونه دون رحمة طوال السنين الماضية ، وبتمركز الجيش الاسرائيلى على مرتفعات الجولان أصبحت العاصمة السورية معرضة للتهديد الاسرائيلى ، فان دمشق أصبحت لاتبعد أكثر من خمسين كيلو مترا عن الألوية المدرعة الاسرائيلية ، وللمرة الاولى فى تاريخ سوريا المستقلة ، حولت حرب الايام الستة الآلاف من أبنائها الى لاجئين ، ودفع السوريون بالكامل ثمن الحرب الضارية القصيرة . وكما كان متوقعا عاد السوريون بعد حرب الايام الستة الى الوقوف على رأس المتطرفين والذين لايعرفون هوادة ولا مهادنة بين زعماء الدول العربية ، وكانت قرارات مؤتمر الخرطوم لسنة ١٩٦٧ (بألا مفاوضات مع اسرائيل ولا اعتراف بها ولا سلام معها) قرارات لينة بالنسبة لهم ، وعادوا فى السنوات التى أعقبت الحرب الى معاونة منظمات المقاومة الفلسطينية المسلحة بلا حساب ، واحترزوا جدا من ان تكون هذه المنظمات فى سوريا حكومة داخل الحكومة ، وجيشا داخل الجيش ، وحرصوا على أن يدرك عرب فلسطين المسلحون من هو صاحب الكلمة وصاحب البيت الفعلى فى سوريا .

وعلى عادتهم لم ينضم السوريون الى مصر فى حرب الاستنزاف خلال المدة من ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ ، واحترزوا جدا من تسخين خطوط وقف النيران بينهم وبين اسرائيل .

ان هذا الخط فى سياسة سوريا وردودها العسكرية يدل على واقعية زعماء سوريا (ونحن لانستطيع تقدير المستوى الاخلاقى لهذا السلوك) ، وهذه الواقعية تملى عليهم حاليا عدة اجراءات محددة ، أولها : الحذر من توريط انفسهم مباشرة

فى صدام فى معارك حاسمة مع الجيش الاسرائيلى (ومع هذا يواصلون تحريض الآخرين على هذا الصدام) مدركين ان مثل هذه المعركة قد تكلفهم استقلالهم ودولتهم ثانيا : الحذر من ايجاد مستعمرات مسلحة من العرب الفلسطينيين فى وسطهم لانهم يعلمون تمام العلم انه يوجد فى بلادهم التى تتألف من كثير من الطوائف والشعوب والقبائل بذور فتنة عديدة ، ولا داعى لان يضيفوا اليها عرب فلسطين كعنصر فتنة ، ثالثا : عدم الدخول فى وحدة شاملة مع بعض الدول العربية الاخرى طالما ان هناك خطرا من ان يبتلعهم الشركاء ويجعلون منهم شريكا صغيرا وقزما (هذه القاعدة لاتنطبق على الاتحاد الفيدرالى الهزيل مع الآخرين مع ضمان عدم المساس بالسيادة والاستقلال السورى) .

هذه الواقعية الخفية تبيّن بصورة متناقضة انهم رغم تظاهرهم امام الآخرين بشدة تطرفهم فى عداء اسرائيل ، فانهم يكونون أكثر واقعية وأقل جنونا عندما يتصل الامر بهم أنفسهم ، وهذا الخط السياسى ربما يخفى فى طياته الامل فى تسوية مستقبلة مع سوريا .

فى الواقع انه يبدو ان السوريين يقفون الآن مع آخر طابور الدول العربية المجاورة والمتاخمة لاسرائيل والتى ستغير موقفها حيالها ، فان السوريين ليسوا كالمصريين والاردنيين فهم لا يقولون ان على اسرائيل ان تنسحب أولا الى حدود الرابع من يونيو وعندئذ نعقد معها سلاما ، ويبدو انهم غير معنيين على الاطلاق باستعادة مرتفعات الجولان ، ولم يقولوا أبدا انه اذا عادت مرتفعات الجولان سنعقد سلاما مع اسرائيل ، فلازالوا يحتفظون بالأسلوب العتيق بان اسرائيل لا وجود لها ، ولا توجد الا العصابات الصهيونية ويجب القائها فى البحر .

ولكن فى المستقبل سوف يحدث العكس ، فانه اذا حدث لاسباب غير ظاهرة وغير متوقعة حاليا ان دخلت اسرائيل فى مفاوضات مثمرة وتسوية فعلية (ولو على مراحل او مؤقتة) مع احدى جاراتها الأخرى ، فان سوريا لن تتخلف عنها وستدخل فى تسويات كهذه بنفسها لهذه الواقعية السليمة التى تحدثنا عنها والتى نرى بوادرها طول الوقت .

علينا أن نستعد لمثل هذا اليوم فى المستقبل بصياغة سياستنا بشأن المسألة الكبرى والشىء الوحيد موضع الخلاف بيننا وبين السوريين وهو منطقة مرتفعات

الجولان . وعلينا ان نفكر من الان فيما سنقوله فى هذا الموضوع للقيادة السورية المستقبلة التى قد تكون أكثر واقعية ولذلك ستكون أكثر اعتدالا وتفهما . ان رأينا فى مرتفعات الجولان يرجع الى ناحيتين : ناحية الأمن الاستراتيجى وناحية الحق التاريخى فى الاستيطان .

من الناحية الأولى يجب ان تكون لنا سيطرة عسكرية على هذه الهضبة فى المستقبل الظاهر للعين . فحتى الذى يفكر بمفاهيم الجيش والحرب غير التقليديين فى السبعينات والثمانينات لا يستطيع ان يتجاهل المدافع المصوبة الى رؤوسنا . فاذا عاد هذا الوضع الى ما كان عليه ، فانه سوف يغرى المدافع على الانطلاق من تلقاء نفسها .

ومن الناحية الثانية علينا أن نقول للسوريين ان حكم الجولان بالنسبة للحقوق التاريخية هو حكم ميراث الاسباط الاثنى عشر ، وان لنا وللسوريين حقوقا فى مرتفعات الجولان . لقد كنا على استعداد للتنازل عن تحقيق هذه الحقوق ، ولم نتحدث عنها طوال السنين حتى حرب الايام الستة . ولكن الآن علينا ان ننظر لمرتفعات الجولان على انها من تراثنا وان نفكر فى ان الحل هو فى التقسيم الذى يضمن لنا السيطرة العسكرية على المعاقل فى جزء من هذا الجبل من ناحية ، ويخفف مخاوف السوريين من وجودنا قبالة دمشق من ناحية أخرى . ويجب ان يتيح لنا هذا الحل مركز استيطان فى الجبل وان يتيح للسوريين ان يعيدوا لمرتفعات الجولان لاجئيهم وهم ليسوا بكثيرين أو جزء منهم . وهناك مكان لاعادة توطينهم على نظام الاستيطان الحديث .

وهذا الحل يتطلب أيضا مثل كافة الحلول تسوية النزاع مع عرب فلسطين ومع المصريين . ومراحل تمهيدية ونزع سلاح . وضمانات من الجانبين ودوريات مشتركة تشرف على التسويات .

وسيكون مصير المستوطنات اليهودية فى مرتفعات الجولان فى المستقبل كمصير المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وقطاع غزة . فسوف يكون جزء منها بعد السلام داخل حدود دولة اسرائيل . ويصبح جزء منها قواعد عسكرية . والجزء الآخر -- وان بدا الأمر اليوم خياليا -- سيكون فى تخوم سوريا التى تعيش فى سلام مع دولة اسرائيل .

من العسير الآن ان نتكلم عن سوريا المستقبلة ، ولاسيما علاقتها باسرائيل انها لا زالت دولة مفككة ، ولا زال التكتل السياسى والاجتماعى فيها هزيلا . ولا زالت العلاقات الطائفية والقبلية فيها فى حالة غليان . ولا زال قادة الحكم فيها يخشون لانفسهم من أعداء وخصوم فى الداخل والخارج وينسجون لانفسهم احلاما عن القومية العربية بزعامة دمشق . وبسبب هذا التفكك نجد ان سوريا هى أكثر الدول انفتاحا للتسلل السوفييتى والصينى الى حد كبير .

ولكن يمكن ان تكون فى المستقبل سوريا مختلفة تستغل أراضيها الواسعة بصورة عصرية . وتتحكم فى مياه الفرات وتولد فيها القوة وتستغلها فى تطوير الزراعة والصناعة . وتستطيع ان تحل فى يسر مشكلاتها الاقتصادية . وقد يأتى يوم وتعرف فيه سوريا كيف تستغل موقعها الجغرافى الممتاز بين البحر المتوسط والصحراء العربية . والاشتراك فى شبكة ملاحة اقليمية وشبكة طيران وكذلك وحدة تجارية وتطوير السياحة . وتشكل جسرا بين تركيا والعراق وايران ودول الهلال الخصيب وأوروبا . لن يكون لدى سوريا فى هذه الحالة أسباب لتخشى من اسرائيل كما أن اسرائيل لن تخشى منها . وسوف تصبح المعاقل على مرتفعات الجولان على مر الأجيال اماكن سياحية ، ومن ذكريات الماضى الكئيب .

علاقاتنا بلبنان

ان لبنان تعد مثالا توضح كيف يمكن ان تقوم علاقات مختلفة بين اسرائيل وجاراتها .

ونحن لانقول هذا استهانة بلبنان ، او اعتقادا بأن اسرائيل لاتستطيع أن تسوى امورها الا مع الدول العربية الضعيفة والصغيرة ، فان لبنان الصغيرة كان فى امكانها لو شاءت ، ان تنفق كل مواردها ، وان تستغل كل قوتها القومية وكل نشاطها (وهى لاتقل عن الدول العربية الأخرى) فى تكوين جيش كبير مزود بألوية مدرعات وسلاح جوى قوى واسطول حديث ، وان تضع جميع مقدراتها لمحاربة اسرائيل ، ولو شاءت لبنان التي تتاخم اسرائيل بحدود طويلة رتسبب لها متاعب جمة ، ولا ضطرتها ان تحشد على حدودها قوات ضخمة ، ان لبنان اذ لم تفعل هذا لانه يعوزها المشاعر القومية اللبنانية والعربية ، فان لبنان كان يعمل فى الماضى ولا زالوا يعملون حاليا عدد من أبرز الايديولوجيين والمفكرين العرب وأعظمهم موهبة والشعور بالوحدة فى لبنان لايقل عن أى دولة عربية أخرى ، بل ربما زاد عن الموجود فى معظمها .

ان نظرة لبنان للمشروع الصهيونى ودولة اسرائيل ترجع فيما يبدو الى ظروفها الفريدة من نوعها ، فان تركيب لبنان التاريخى كدولة عربية نصف سكانها من العرب المسلمين ونصفهم الثانى من العرب المسيحيين قد أدى الى توازن حساس يتطلب من اللبنانيين منذ قيام دولتهم واستقلالها ان يكرسوا كل نشاطهم وقواهم النفسية وحكمتهم السياسية للمحافظة على بلادهم حتى لا يتزعزع نظام الحكم كله ، فان الحرب المستعرة مع اسرائيل تؤدى الى تدمير القرى والمدن وتجميد التنمية والاقتصاد ، ويمكن أن تزعزع وتحطم كل التكوين المعقد والرقيق الذى يدعى لبنان ، ويعمل زعماء الدولة بكل قواهم على تجنب هذا ، ورأوا فى الحرب ضد اسرائيل نكبة وسفك دماء بلا معنى وتلحق الاضرار بالدول العربية المحيطة بهم ، وعقدوا العزم رغم استفزازات حركات المقاومة الفلسطينية على ألا ينساقوا لهذه الحرب .

ان التكوين الاقتصادى للبنان يشكل عنصرا فى هذه العلاقات ، فانه اقتصاد

مصرى يعتمد على التجارة والاعمال المصرفية الدولية والعربية ، والملاحة المزدهرة والطيران الدولى والعربى ، والسياحة الصيفية والشتوية سواء من الشرق او الغرب وعلى الترفيه وعلى الصناعات الصغيرة ، والى حد ما على الصناعة والزراعة للتصدير ، ويتطلب النهوض بكل قطاع من هذه القطاعات الهدوء والتطور العضوى والاستقرار النسبى الدائم .

ان لبنان حقق هذا الامر مجرد الكلام عن النضال العربى الاسرائيلى انه لم يظهر اى رغبة فى أن يهدد وكبطل فاز ، ويحتل الجليل الغربى وحيفا ، ولم يبد أى اهتمام فى الانضمام للخطط العربية من الجبهة الشرقية او الجبهة الشمالية ضد اسرائيل .

ان اللبنانيين هم من سلالة حيرام وأهالى صور ومن أبناء الملاحين والتجار الافريقيين والرومان والبيزنطيين وورثة التجار والملاحين العرب ، وسلالة الرواد الاوائل من تجار جنوة والبندقية الذين استقروا على مر العصور موجة بعد موجة على طول سواحل لبنان الجميلة ، وشعروا وأدركوا بذكائهم التاريخى ان العالم فسيح وتسع الارجاء ، وان البحار مورد رزق لا ينضب ولا نهاية له ، وان الدول والحضارات الكبرى لم تقم على مجرد المساحات الشاسعة ، بل أيضا على أساس عدد السفن والمواهب التجارية والعلمية للشعوب وفتح أبواب هذه الدول لسيول السلع وحرية التجارة والأموال والفكر واللغات والتأثيرات الخارجية .

وخلق هذا الاحساس فيهم او فى قسم منهم الوعى بان المنطقة الشرقية من البحر المتوسط تتسع لمدينة بيروت الزاهرة وتل أبيب العامرة ، وانه لا داعى للقتل والابادة لتحقيق حياة طيبة وجميلة على الارض .

هناك سبب آخر لمراعاة لبنان لاسرائيل يرجع الى الخوف الكامن لدى العرب المسيحيين فى لبنان ، فانهم حقا يشكلون نصف سكان الدولة ، ولكنهم يتلاشون بين المسلمين فى العالم العربى الذى يحيط بهم ، حقا اننا نجد الكثيرين من زعماء القومية العربية فى لبنان ، وأيضا فى الدول العربية الاخرى من المسيحيين ، ومنهم من ينافسون المسلمين فى تطرفهم ويحاولون ان يفوقوهم ، ولكن لاشك أن القومية العربية المتطرفة سوف تسوق موجة اسلامية متطرفة ، وان الجهاد ضد الكفار من اليهود الصهيونيين يمكن تحت ظروف معينة ان يوجه غضبته ضد العرب المسيحيين ويغمد سيف دين محمد عليه الصلاة والسلام فى قلوبهم .

لهذه الاسباب او لغلافيها (دون ان نحاول تقدير هذه الاسباب او غيرها) كان تدخل الجيش اللبنانى فى حرب سنة ١٩٤٨ محدودا جدا ، وقد توغل الجيش الاسرائيلى فى لبنان أثناء مطاردته للمقاتلين غير النظاميين الذين فروا الى لبنان واحتل ثلاثا من قراه ، ولكنه عاد الى الحدود الدولية بعد توقيع اتفاقية الهدنة بين اسرائيل ولبنان ، ومنذ ذلك الحين وحتى حرب الايام الستة ظلت حدودنا مع لبنان هادئة وطبيعية جدا ، والصمت تام على الحدود ، وحتى فى حرب الايام الستة لم تطلق علينا من تلك الحدود طلقة واحدة نحونا ، كما اننا لم نطلق طلقة واحدة نحوهم ، فى السنوات التى أعقبت حرب الايام الستة أخذت فتح والمنظمات الفلسطينية المسلحة الاخرى تتمركز فى لبنان وتتخذ منها قاعدة خطيرة لعمليات التخريب والعمليات الارهابية ، وقد فعلوا هذا لعدة أسباب أولها انهم لم يقبلوا ان تظل دولة عربية واحدة وحيدة تحتفظ بحدودها مع اسرائيل هادئة وساكنة ، وأرادوا ان يغرقوها هى الاخرى فى بحر الدماء ، ثانيا كان من السهل عليهم ان يوزعوا قواعدهم فى عدة دول عربية ، وان يقاتلوا اسرائيل مع جميع الاتجاهات ، حتى تضطر اسرائيل نفسها ان توزع قواتها وان تهتم بكل حدودها وتوجه جميع مستوطناتها ثالثا ، لاشك ان سوريا كان يعنيها لاسباب تتعلق بسياستها الداخلية وعلاقاتها بلبنان ان تدفع " فتح " وسائر منظمات المقاومة الفلسطينية الى لبنان ليباشروا نشاطهم من هناك وتصبح لبنان – لا سوريا – هدف العمليات الانتقامية للجيش الاسرائيلى كما انه بعد ضرب المنظمات الفلسطينية فى الاردن أصبحت لبنان مأوى وبحا لهم .

وقد أدركت حكومة لبنان وجيشها حقيقة ما يحدث وما قد تتعرض له ، وان كانت لم تدرك ذلك بما فيه الكفاية ، فان الجيش الاسرائيلى قد رد لها صوابها عندما زادت الاعمال الارهابية من داخل لبنان ، وقد أدركوا ان عملية ايواء واستضافة المقاتلين الفلسطينيين فى بلادهم ، قد تؤدى الى انفجار داخلى فيها ، وقيام حكومة داخل الحكومة ، وفى النهاية أيضا الى قيام الجيش الاسرائيلى باحتلال أجزاء من البلاد احتلالا مؤقتا وضياع استقلالها .

حقا لقد قام اللبنانيون بعدة عمليات وقائية فى بلادهم ، ولكنهم لم يوقفوا بعد العمليات التخريبية من تخومهم ، وسوف ينالون جزاءهم على هذا .

واذا ظل موقف وقف اطلاق النيران على الحدود اللبنانية الاسرائيلية مزعزعا ووصلت اسرائيل الى تسويات سلمية دائمة او مؤقتة ، شاملة او جزئية ، دفعة واحدة

او على مراحل مع عرب فلسطين ومع المصريين وربما أيضا مع السوريين ، فلن تكون هناك اى مشكلات بين لبنان واسرائيل ، فان الحدود الدولية معروفة ومحددة وقائمة ، وكل ما سنضطر اليه نحن واللبنانيون هو فتح الحدود عند رأس الناقورة ومع عيون وعدة نقاط أخرى لانتقال التجارة والناس بين البلدين .

ان مستوى المعيشة ومستوى النشاط الاقتصادى والسياسى فى لبنان ، يعد حاليا من أعلى المستويات فريدا من نوعه بين الدول العربية ، ويمكننا القول بأن جمهورية لبنان هى اليوم أكثر الدول انفتاحا وأكثرها تحررا بين العالم العربى فان صحافتها حرة ، وتشكيل نظام الحكم فيها متنوع ومتعدد الاحزاب ، وتتم فيها الانتخابات للمؤسسات على الدوام مع المحافظة على الحقوق المدنية فى ظل القانون .

تحتل لبنان مكانا فريدا فى الكتلة المستقلة لدول شرقى البحر المتوسط ودول الهلال الخصيب ، لا كنموذج للعلاقات الطبيعية مع اسرائيل فحسب بل أيضا كنموذج حى تحتذيه الدول العربية الاخرى فى مجالات الحياة المختلفة ، وفى ظروف السلام يمكن ان نقيم علاقاتنا مع لبنان كما هو الحال مع دولة عرب فلسطين على اساس تبادل المنافع والتأثيرات المتبادلة .

ويدرك جزء كبير من عرب لبنان هذا الامر جيدا ، فنجد هنا وهناك من تحت السطح عيونا وتيارات جوفية تبشر بالتفاهم والتسليم والرغبة فى حياة السلام وحسن الجوار تبدو من وراء الكلمات المعادية لاسرائيل التى تصدر فى التصريحات وتكتب فى المقالات التى تنهال أيضا من لبنان .

نحن والعالم العربي
اسرائيل رابطة للعالم العربي

لقد تحدثنا عن جيران اسرائيل الاعداء الاربعة ، أى الدول أو الشعوب الاربعة المتورطة فى نزاع مباشر مع اسرائيل ،وناقشنا مسائل الحدود بيننا وبينها والاراضى والصراع الدموى ، وصلتنا الدموية بكل منها ، والجغرافية المشتركة ،والتاريخ المشترك بيننا قديمه وحديثه واحتمالات الوصول معها لتسويات سلمية .

ولكنا نجد انه بالاضافة الى هذه الدول الاربع ان حوالى اثنتى عشرة دولة وشعبا تدعى هى الاخرى انها فى حالة حرب معنا ، بالرغم من انه ليس بيننا وبينها حدود مشتركة ، بل لانها تكون جزءا مما يطلق عليه اسم العالم العربى . انها تدعى ان الحرب بالنسبة لها مسألة حياة أو موت ، وتدخل فيها موريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والسودان فى افريقيا والمملكة السعودية واليمن ، واليمن الشعبية الجنوبية وامارات الخليج العربى والعراق والكويت فى آسيا ، وهذه الدول العربية تهددنا بانه لا يقف فى الصراع ضدنا الخمسين مليون عربى الذين تتاخم دولتهم اسرائيل وحدهم بل فوقهم خمسون مليون عربى آخرون يبعدون عنا مئات أو آلاف من الكيلومترات ويرون ان وجودنا هو رابطة تربط العالم العربى بعضه الى بعض ، هذا العالم العربى الذى يعتبرنا عدوا مشتركا لهم جميعا . ونجد ان الجامعة العربية ليست الا هيئة تجمع بصورة مهزوزة جميع الدول العربية ، واسرائيل هى عملها الاساسى .

وتنشأ احلاف وتكتلات واتحادات فيدرالية بين الدول العربية بهدف معاونة دول الخط الاول الاربعة فى حربها ضدنا ، وتتلقى المنظمات الفلسطينية الاموال والتشجيع من بعض الدول العربية التى تبعد عنا كثيرا ، وتقيم قواعدها فيها ، وتنفق الدول العربية الغنية من الدول المصدرة للبترول مئات الملايين من العملات الصعبة فى محاربتنا .

ان هذه الصورة حقة وليس بها الا الحق ، وهو صورة رهيبة فظيعة وقد تعودنا على مر السنين على هذا الرعب وليس امامنا الخيار لمنازلتها ، الم تغزو الجيوش العراقية فلسطين فى سنة ١٩٤٨؟ او لم يعد العراقيون لمحاربتنا فى سنة ١٩٦٧؟ وبعد حرب الايام الستة ألم يتمركز الويتهم فى الاردن ، أو لم

يقصفوا مستعمراتنا من مرتفعات الجولان ؟ واليوم ألا يوجد كتائب سودانية وأخرى جزائرية تعسكر على ضفة القناة ؟ ألا تجد متطوعين من جميع الدول العربية فى صفوف الوحدات الفلسطينية المسلحة ؟ ألا يهددنا حكام ليبيا بارسال جنود وطائرات لقتالنا ؟

هناك شئ من الحقيقة فى ان العالم العربى متحد ضدنا ولكنها ليست كل الحقيقة . انها نصف الحقيقة ، وبالتالى نصفها الآخر كذب .

ان رابطة الكراهية لاسرائيل هى رابطة خبيثة من أساسها لا من الناحية الاخلاقية فحسب ، بل أيضا من الناحية العملية .

ان الدول العربية متنازعة ومنشقة بعضها على بعض منذ قيامها وحتى الآن وبينها احتكاكات عديدة وتعارض فى المصالح جزء منها ناجم عن منازعات حول الحدود ، منازعات مريرة وقاسية ، وجزء منها ناجم عن التوتر بين نظم الحكم الذى يختلف الواحد منها عن الآخر اختلافا تاما ؟ فهناك نظم تقدمية شبيهة بالاشتراكية وموالية للسوفيت وملكية موالية للغرب ونظم حكم الشيوخ والجماعات العسكرية ، ويرجع جزء من الاختلاف والتناقض الذى بينها الى اختلاف العمليات وبعد الواحدة منها عن الأخرى بعد السماء عن الأرض .

لا يمكن ان نكتل كل هؤلاء على اساس رابطة سلبية واحدة فحسب هى الكراهية لاسرائيل والرغبة فى تدميرها ، ان هذه الرابطة اخف من ان تستطيع ان تكتل العالم العربى وتخلق من كتلة واحدة ، وقد أدرك العرب ذلك المرة تلو المرة ، فان هذه الرابطة لا تكفى حتى لتكتيل عرب فلسطين فى كتلة واحدة ضدنا ، فان كراهية عرب فلسطين الحقة وغير المزيفة ضد المشروع الصهيونى لم تستطع فى أيام المفتى ومعارضوه ولا الآن فى عهد عرفات وخصومه ان تكتل عرب فلسطين فى معسكر واحد ، فان اهداف عرب فلسطين وأغراضهم كانت دائما سلبية بألا يسمحوا لليهود بالارتقاء والا يسمحوا لهم بالتطور ، وألا يبيعوا لهم الارض ، والا يسمحوا لهم بالعيش ، ويبدو ان هذه الاهداف السلبية كانت رمالا وكثبانا متحركة ، وأن عرب فلسطين لم يستطيعوا ان يبنوا عليها قاعدة لوحدة فكرية وعملية .

ان كراهية اسرائيل لم تصلح ان تكون رابطة صلبة تجمع بين مصر وسوريا هاتين الدولتين المتاخمتين لاسرائيل واللتين يعتبرانها عدوا مباشرا ، ويبدو ان كراهية

اسرائيل لاتحوى القوة الكافية لتوحيد الشعب المصرى والشعب السورى فى قوة واحدة كما ان كراهية اسرائيل لاتكفى لان تجعلهما ان يشترك اشتراكا فعالا فى محاربة شعب اسرائيل .

واذا كان الأمر هكذا بين الشعوب العربية المجاورة لنا والذين يرتبطون بحسا بمناط الحياة والموت ، واذا كانت رابطة كراهيتهم عديم القيمة فما بالك بسائر الدول العربية انها لن تكون الا هباء منثورا ليس من السهل استخدام الكراهية كمادة اشتعال وسكبها على طبقة ضحلة من الوعى الشعبى ، واشعالها بحار الديماجوجية ان هذا هو ماصنعه ويصنعه بنجاح كبير بعض زعماء الدول العربية البعيدة عنا ولاسيما ليبيا والجزائر والعراق ، ولكن المسافة لازالت بعيدة بين هذه الدول وبين التكتل والقتال والتضحية بكل شئ فى سبيل النصر ، وقد أثبتت بعض الدول والشعوب العربية فى وضوح انها على استعداد ان تبذل كل شئ من أجل استقلالها السياسى وتحررها من نير الامبريالية والاستعمار ، فوجدنا الجزائريين يبذلون كل مرتخص وغال فى سبيل اقامة دولتهم ، والمصريين يخوضون حربا ضارية استغرقت عدة أجيال من أجل الاستقلال التام ، ورفع نير الاستعمار البريطانى وغيره .

ولكن هناك مايقرب من عشرين دولة عربية لازالت تبحث عن رابطة قوية توحد كلمتها وأهدافها القومية الداخلية والقريبة الى قلبها ، وكل منها منوط فى العديد من المشكلات الداخلية والخارجية الحقيقية والخاصة بها فى جميع مجالات حياتها النامية ، ولازال الطريق امامها طويلا وشاقا ، فنجد المغرب مثلا لديها مشكلاتها العسيرة الشاقة الخاصة بها ، فعليها أن تكتل قبائل البربر فى جبال الاطلسى والصحراء الكبرى بسكان من الدار البيضاء والرباط وخلق شعب واحد منهما ، وعليها أن تنهض بشعبها نحو العصر الحديث ، وان تطور بلادها ، وهذه المهام الضخمة تنوء بها الاجيال ، ونجد العراق قد تعقدت مشكلاته الى حد مخيف ، من مشكلات اجتماعية واقتصادية وقومية ودينية ، فلديهم مشكلات الشيعة والسنة ومشكلة الاكراد ، كما يواجه مشاكل خارجية معقدة مثل علاقته بايران والحدود المشتركة بينهما ، كما نجد السودان يواجه مشكلات خاصة به مثل مشكلة الزنوج فى جنوب الدولة والمشكلات الاقتصادية ، وتقسيم منابع المياه بينه وبين مصر ، كما نجد لكل واحدة من الدول العربية الاخرى مشاكلها ، ووضعها المماثل .

ونجد الدول العربية غير المتاخمة لاسرائيل قد اتخذت كل منها — بالصورة التى

ثلاثيها — سياستها المعادية لاسرائيل من تصريحات معادية للدولة اليهودية والتحريض ضدها ، والزيارات المتكررة بين عواصم الدول العربية ، وعقد مؤتمرات القمة ، واتخاذ القرارات المشددة المتعنتة فى التعاون السهل الرخيص فى الاقتراع ضد اسرائيل فى الامم المتحدة والمنظمات الدولية الاخرى ، والاستغلال المكشوف للنزاع العربى الاسرائيلى للأهداف الخاصة وللمصالح المشروعة — ظاهريا — لكل دولة وهى فى أساسها أنانية ؟

* * *

* حذار من التدخل العسكرى أيتها الدول العربية البعيدة .

* الذين حاربوا اسرائيل طوال أعوام هم الجديرون باعلان المصالحة .

ان هذا الوضع من الغوض السائد فى الدول العربية اتاح للدول الكبرى والمتوسطة فرصة الاصطياد فى المياه العكرة ، وسهل عليها التوغل — تحت ستار من الموالاة للدول العربية والعداء لاسرائيل — الى داخل المنطقة ، تحقيقا لمآربها التى لاصلة لها البتة بالنزاع الاسرائيلى العربى نفسه .

فالتوغل السوفييتى يعتبر — دون شك — انموذجا بارزا لذلك . فبثمن بخس نسبيا يتمثل فى القليل من المعونات العسكرية والاقتصادية " ولا نعنى بهذا مصر وسوريا المتاخمتين لاسرائيل " وبالكثير من الكلام المناوئ لاسرائيل والدعاية المعادية للصهيونية ، استطاع السوفييت ان يكسبوا لانفسهم صفة حماة القضية العربية ، وان يحظوا بحسن النية والعطف ، وبالتالى الحصول على قواعد ومراكز نفوذ اقتصادية وسياسية .

والضيوف أيضا يلعبون نفس هذه اللعبة مع الدول العربية ، ويحظون بالعطف ولكن بثمن بخس ، بل ان اليوغوسلافيين أيضا يستغلون ، لاغراضهم الخاصة ، النزاع فى منطقتنا ، وهكذا أيضا تفعل دول شرقى أوروبا ، ولقد تعلم الفرنسيون كذلك ، وبصورة جيدة انهم — فى مقابل اتخاذ موقف مضاد لاسرائيل — يمكن ان يحظوا فى الشرق الاوسط بأسواق ومراكز نفوذ وامتيازات نفط وما أشبه بذلك .

الدول البعيدة عن الميدان

فعلى أساس احداث الماضي من الصعب اجراء تقييم دقيق للمستقبل ولكن تاريخ الحروب التي نشبت بيننا وبين العرب تشير الى انه في حروب ١٩٤٨ و ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ لم تكن الدول العربية البعيدة عن الميدان ، على استعداد للمساعدة في انقاذ الدول العربية المجاورة لاسرائيل ، خوفا من التورط في تلك الحروب . فقد كانت هذه الدول تدرك جيدا بأن الحرب كانت ساخنة ضارية ، وان كل تورط حقيقي فيها او ارسال جيوش وطنية كبيرة الى ميدان الحرب ضد اسرائيل ، من شأنهما ان يجلبا عليها كارثة مماثلة ، بل لعلها تكون أعظم هولا من الكارثة التي منيت بها الدول العربية المتاخمة لاسرائيل .

- فالجزائريون الذين يعتزون ، وبحق ، بحرب التحرير التي خاضوا غمارها ، يعلمون جيدا بأنهم اذا ما هزموا في حرب وانزلت بهم ضربة ساحقة ماحقة في صحراء سيناء ، فانهم لن يفقدوا عزتهم الوطنية فحسب ، وانما يجازفون ببلادهم أيضا .

- والعراقيون أيضا يعلمون بانه لو شارك جيشهم ، ولو مشاركة ضئيلة في كماشة الجبهة الشرقية فسيؤدي ذلك الى تداعي مبنى دولتهم المهتز ، بتعدد الأقوام والطوائف والمذاهب فيها ، والتي تمزقها النزاعات والضغائن شر ممزق .

ولابد ان نذكر انه في هذه المرحلة من التطور الذي يسود الدول العربية فان جيش كل واحدة منها لا يشكل فقط أقوى أداة للحكم – وفي أغلبها الاداة الوحيدة – وانما يشكل أيضا أجل ما صنعت . فزعماء هذه الجيوش يلتزمون منتهى الحذر في تعريض جيوشهم دون داع ، لضربات من مسافات بعيدة ويمكن الافتراض انه في المستقبل ، أكثر من الماضي ، وبسبب دروس ثلاث حروب بيننا وبين العرب ، فان الواقعية ستكون رائد حكام الدول العربية البعيدة عن اسرائيل ، ورائدة زعمائها " .

حذار من " التدخل " !

ان تدخلا عسكريا مباشرا من جانب دول عربية بعيدة ، من شأنه ان يعرضها لضربات مقابلة اسرائيلية في بلادها بالذات ففي عصر الاسلحة الحديثة لسنوات

السبعينات والثمانينات ، أخذت المسافة الجغرافية تتضاءل باطراد . فقد ذاق العراق عام ١٩٦٧ مرارة ذلك ، وأدرك ان مسافة الطيران بين بغداد وتل أبيب هي نفس المسافة بالضبط للطيران من تل أبيب الى بغداد . ان هذا الدرس ينبغي أن يمثل امام أعين الجزائر وليبيا فاذا عمدت طائرات ليبية او جزائرية الى قصف مدننا فان بنغازي وطرابلس والجزائر ووهران ستكون معرضة تماما وبنفس المدى لضربات طائراتنا .

واذا تعرض اليمانيون والسعوديون والسودانيون او غيرهم لسفننا في باب المندب فلن تكون هذه الدول آمنة على سفنها وموانيها ، ولن تنجو لا جدة ولا عدن ولا بورسودان .

ان حدود وقف اطلاق النار بيننا وبين الدول الاربع المجاورة ليست مقدسة سيما بالنظر الى استعدادنا للترضيات والتنازلات عند حلول السلام . ففي حرب أخرى – اذا ما فرضت علينا ، واذا اضطررنا الى نقل جنودنا عبر هذه الحدود – فسنفعل ذلك دون تردد . وهذا ينطبق أيضا على الدول العربية البعيدة عن حدودنا ، اذا ما تدخلت في الحرب تدخلا مباشرا .

ونحن لا نقول هذا الذي نقوله على سبيل التهديد المجرد ، ذلك انه ليس لنا اي نزاع كان مع أية دولة عربية على حدودنا . ولكن اذا شعرت هذه الدول ان لها نزاعا معنا فعليها ان تحذر من أن تكتوي بنارها المحرقة كيات موجعة اذا ما سولت لها نفسها محاربتنا . وطالما ظل النزاع بيننا وبين الدول العربية ماثلا على منصة الامم المتحدة محصورا في اطار فرض المقاطعة ومساعدة دول " الخط الأول " فان تدخل هذه الدول يكون محتملا . ولكن اذا تجاوز التدخل هذه الحدود فسينطبق على هذه الدول ما ينطبق على دول الخط الأول .

الذين يعقدون السلام

لقد لوحظ هنا وهنالك ، وعلى الاقل في أوساط جانب الفلسطينيين باستيعاب الحقيقة الاولية القائلة " بأن هؤلاء فقط هم الذين سيعقدون سلاما مع اسرائيل ، وان هؤلاء الذين استنزفوا دماء اسرائيل واستنزفوا دماءهم والذين تسببوا لاسرائيل ضحايا في النفوس والممتلكات ، فكالت لهم اسرائيل بنفس القسطاس الذي كالوا لها

فيه ، هؤلاء فقط هم الذين سيكونون مهيئين ليقولوا مرة من المرات : كفى ! فلنقف عند هذا الحد !

اننا على استعداد لان نجلس مع العرب الفلسطينيين او الفلسطينيين الاردنيين ومع المصريين والسوريين واللبنانيين فى كل زمان ومكان لنتحدث - فى السر او العلن - عن عقد سلام بيننا . وفى اللحظة التى تظهر فيها بوادر تسوية أيا كانت ، مع احدى هذه الدول او مع جميعها سوية ، فستنزاح تلك القشرة من العداء الذى يحمله العالم العربى تجاه اسرائيل ، وعندها سيكون لزاما على الشعوب العربية وعلى الدول العربية ان تبحث جيدا عن عامل موحد حقيقى ناجع ، ذى قوة عظيمة ، يوحد بينها فى حلف اقليمى او حلف سياسى . ان هذا العامل الموحد ، او هذا الصمغ اللاصق ، موجود فى قوة : انه موجود فى اللغة والثقافة والدين والاخلاق والتاريخ المشترك .

ان هناك مشكلات اقليمية اقتصادية مشتركة ، ومشكلات مماثلة يجب ان تجد حتى نهاية القرن الحالى مكانها الحقيقى فى هذا العالم المتطور دائما أبدا . وبمرور الزمن ستكون الدول العربية ملزمة بأن تفهم وتسلم ، بانه عندما يقوم بناء اقليمى غير مرتبط بجنسيات ، فان مثل هذا البناء لا يمكن ان يكون عربيا خالصا . وكالاحلاف الاخرى فى العالم ، فهو أيضا سيكون متعدد الجنسيات وتنضم اليه دول غير عربية كايران وتركيا واسرائيل وغيرها . وهذا التنويع بالذات يتيح للشرق الاوسط امكانات واحتمالات لان يكون أكثر عصرية وذا مجالات اتصال كثيرة جغرافيا وسياسيا واقتصاديا مع العالم كله .

ان مجالات اتصال كهذه ، مثمرة ناجعة يمكن ان تكون ، بعد حلول السلام قابلة الاستخدام من جانب اسرائيل أيضا .

تم بعون الله تعالى